الآلة والأداة في التعبير القرآني

شذى معيوف يونس الشماع



شذى معيوف يونس الشماع

الآلة والأداة
في التعبير القرآني



الإهداء

إلى.... الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

إلى.... من علمني الرأفة والطيب ومعاني الحنان من
كنت فطيم... أبي الغائب الحاضر

إلى.... من منحني حياة بعد عناء الحياة زوجي
الغالي....

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه أجمعين. من المعروف أن للغة العربية شأناً عظيماً في الدين والدنيا لأنها وسيلة الفهم ونيل المعرفة وسبيل التدبر المحكم لشريعة الله سبحانه وتعالى، كما أنها وسيلة التواصل بين الناس لذا كان لها شأن وحضور في المجتمعات، ويكفيها فخراً أنها لغة القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، وظلّ معيناً لا ينضب ينهل منه الدارسون، هذا الكتاب - المعجزة - الذي عجز الأنس والجان عن الإتيان بمثله والذي فتح لنا الباب على مصراعيه للولوج إلى سبل الحياة بتفهم وتعقل ومعرفة ليس بعدها معرفة، وعلم لا جدال فيه، ويقين، لا شك بعده.

فضلاً عن أن التعاطي مع دلالة بعض المفردات ضمن السياق القرآني يحتاج إلى دقة وذهنية تخصصية ابتداءً وانتهاءً. ناهيك عن ضرورة توافر رؤية جادة تتمكن من توليف الدلالة مع التفسير الموروث لمعنى المفردة (الآلة والأداة) عند شيوخ اللغة والتفسير وبمعنى آخر فإن الكتابة في موضوع قرآني تنحى إلى تأسيس منهجي يَميل إلى رصد معجمي لتلك المفردات ومن ثم الكشف عن وجوه الدلالة فيها بحسب طابع الاستخدام على الوجوه الحقيقية والمجازية.

والذي أردنا توضيحه من السياق العام في الكتاب هو تبيان التأويلات القرآنية لمراد الله سبحانه وتعالى - من ذكر الآلات والأدوات في القرآن الكريم. وما الحكمة من ذكرها؟ لأننا لسنا بحاجة إلى معرفة وظيفة أداة أو أكثر نحن نعلمها أصلاً ونتعرف إليها في استخداماتنا اليومية، لكن مراد الله من وراء زج هذه المفردة أو تلك يقود إلى معانٍ وسياقات أعمق وأكثر دقة من وصف آلة أو أداة نستخدمها وهي قريبة من مدارك عقولنا وتصوراتنا. وبهذا فقد اقتصرت المتابعة على توثيق

الآلات والأدوات من صنع البشر ذات الاستخدام اليومي ولم نتطرق إلى بعض الآلات والتي من صنع الله سبحانه وتعالى مثل لفظة " الأيدي، والحيوانات، والنجوم " وقد يضيق المجال في رصفها وقد تشتت الموضوع وتشعبه وتبعده عن مساره المنهجي المرسوم، لذا فقد اقتضت طبيعة المادة أن تقوم على تناول المفردات التي تحمل دلالة الآلة والأداة على وفق ترتيب حروف المعجم - الترتيب الهجائي - وقد تتعدد دلالة المفردة حسب السياق القرآني لها، وبهذا فقد تأتي المفردة غزيرة وشاملة وقد تأتي مقتصرة على معنى واحد من غير توسع في الاستعمال.

ونتيجة لذلك الاختلاف الحاصل في الاستعمال القرآني للألفاظ كثرة أو ندرة تفاوتت مساحة الكتاب في الألفاظ.

وعليه فإن خطة الكتاب لا ترمي إلى تشكيل مناخ إحصائية بحتة وإنما معالجة منهج تحليلي وتتبع الاستخدام الوظيفي للآلة والأداة في النص القرآني مما اقتضى تتبع المفردات ومعانيها مع الأصل الذي وضعت له والاعتماد على أقوال المفسرين الذين رفدوا الفهم الدلالي على وفق ما تستحق المفردة.

وقد أوجب كل هذا الرجوع إلى كتب الصرف وكتب النحو التي حددت مقاييس لاسمي الآلة والأداة وفق عملية استقرائية سماعية ثم شكلوا منها معايير اشتقاق اسم الآلة وعلى الأقل حصره في أطر ناظمة له. وكله مبين في تمهيد يتقدم الدراسة وقفنا فيه على تعريف للآلة والأداة لغة واصطلاحاً، والتمييز بينهما ومعايير صياغتهما.

وأخيراً فإن للكتاب جهداً أردت به من ضمن طموحاتي الكثيرة أن أرفد المكتبة بجهد شخصي يخدم الحركة العلمية في بلدنا العزيز فإن أحسنت فذلك فضل من الله وإن كان غير ذلك فلي فضل المحاولة. وأرجو من الله جل وعلا احتساب أجري مع بقية المجتهدين المخلصين وله الحمد أولاً وآخراً...

شذى معيوف الشماع

التمهيد

أولاً: الآلة والأداة لغةً واصطلاحاً

اللغة العربية واحدة والثقافة العربية واحدة، ومما يوجب الحرص على بقاء اللغة العربية والثقافة العربية موحدتين يوجب مقابل ذلك إيجاد مصطلح موحد متفق عليه في الأقطار العربية كافة كيلا تتشعب اللغة العربية لوجود أسماء متعددة لمسمى واحد فتفقد آنذاك وحدتها التي هي سر بقائها وخلودها وللحصول على المصطلح الموحد والدال على المقصود بالمدلول ثمة طرائق تتفق مع طبيعة اللغة العربية ومن إحدى الطرائق «الاشتقاق» وصولاً إلى فرع من فروعه وهو (اسم الآلة) لما لهذا المشتق من أهمية في الدلالة على الأدوات والآلات وما أكثرها في هذا العصر الذي يعج بالمبتكر فيها[1].

الآلة لغة

الآلة لغة: الأداة والجمع الآلات. والآلة: واحدة الآل والآلات وهي خشبة تُبنى عليها الخيمة. والآلة أيضاً الجنازة وكذلك تعني الحالة يقال: هو بآلة سوء[2].

وجذر الآلة (أل) فالهمزة واللام في المضاعف ثلاثة أصول: منها اللّمعان في اهتزاز والصوت والسّبب يحافظ عليه. وقيل: آل الشيء إذا لمع، وقيل: سمّيت الحربة آلة للمعانها وأل الفرس يئل ألاً. إذا اضطرب في مشيه، وقيل: الآلة الحربة والجمع الآل وقيل: سمّيت الآلة لأنها دقيقة الرأس[3]. والآلة كذلك تعني: «السّلاح وجميع أداة الحرب، ومنها المِئَلُّ: القرن الذي يُطعَن به»[4] وأصل الآلة

(١) ينظر: التنمية اللغوية ودور الاشتقاق فيها، شحادة الخوري، مجلة اللسان العربي، الرباط، العدد ٢٩ ١٩٨٧م: ١١.

(٢) ينظر: الصحاح: للجوهري: ١٦٢٧/٤-١٦٢٨.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ١٨-١٩.

(٤) لسان العرب: ١١/ ٢٣ -٢٤.

عند التهانوي «أهلٌ بدليل تصغيره على أهيل: وقيل أصله أول فإنه نقل عن الأصمعي أنه سمع من أعرابي يقول آل وآويل وأهل وأهيل. وردّ بأنه لا عبرة بقول الأعرابي، وهذا مذهب الكوفيين كما أن الأول مذهب البصريين في جامع الرموز الآل في الأصل اسم جمع لذوي القربى ألفه مُبدله عن الهمزة المبدلة عن الهاء عند البصريين وعن الواو عند الكوفيين والأول هو الحق، ثم لفظ الآل مختص، بأولي الخطر كالأنبياء والملوك ونحوهم يقال آل محمد (صلى الله عليه وسلم) وآل علي (رضي الله عنه) ولا يضاف إلى الأراذل ولا المكان والزمان ولا إلى الحق سبحانه وتعالى»[١].

وقد ذكر آنستاس الكرملي أن جمع الآلة: آلات ولكنها عند أطباء العرب: مجموع أعضاء تقوم بعملها الخاص بها وهي بالفرنسية [٢]**Organs appareit**، وقيل: إنه يذكر ويؤنث، أما الآل بمعنى الشخص أو عمد الخيمة فمذّكر وقيل: إنه جمع آلة فإذا كان كذلك، فهو يذكر على اللفظ ويؤنث على المعنى[٣]، وقد عرف أصحاب مجمع اللغة العربية الآلة بأنها: «أداة الطرب، عمود الخيمة والحالة والشدة، والآلة الحدباء: سرير الميت. وأداة العمل البسيط، وفي علم (الميكانيكيا) جهاز يؤدي عملاً بتحويل القوى المحركة المختلفة إلى قوى آلية مثل: الآلات التي تحرك السفن، والتي تجر القطرُ... الخ، وتنسب كل آلة إلى القوة التي تحركها فيقال الآلة البخارية والآلة الكهربائية (جمع) آلٌ آلات»[٤].

وقيل أيضاً: إن الآلة في المذهب الفلسفي شيء مركب من أجزاء محكمة الترتيب تسمح بنقل الحركة أو بصنع بعض الأشياء[٥].

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون، : ١/ ٨٨.

(٢) ينظر: المساعد، الكرملي: ١/ ٢٦٥.

(٣) معجم المؤنثات السماعية العربية الدخيلة، حامد صادق قنيبي: ٥٥.

(٤) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون: ١/ ٣٣.

(٥) ينظر: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية واللاتينية، د. جميل صليبا: ٢٧.

الأداة لغةً

أدو: الهمزة والدال والواو كلمة واحدة، والمراد منه يقال آدا يأدوا أذواً. وهذا شيء مشتق من الأداة لأنها تعمل أعمالا حتى يُوصل بها إلى ما يراد.. وقيل: إن الألف التي في الأداة لا شك أنها واو لأن الجمع أدوات، وأداة الحرب: السلاح[١] وقيل: إن العرب تقول: أخذ هَداتهُ في أداته، على البدل، وقد تأدى القوم تأدياً إذا أخذوا العِدَّة التي تقويّهم على الدهر وغيره، ولكل ذي حرفة أداة: وهي آلته التي تُقيم حرفته[٢]، وقد ذهب الرصافي إلى أن الأداة هي الآلة جمعها أدوات[٣].

الآلة اصطلاحاً

والآلة هي «الواسطة بين الفاعل والمنفعل في وصول أثره إليه كالمنشار للنجار والقيد الأخير لإخراج العلة المتوسطة كالأب بين الجد والابن، فإنها واسطة بين فاعلها ومنفعلها إلا أنها ليست بواسطة بينهما في وصول أثر العلة البعيدة إلى المعلول»[٤]. وأما اسم الآلة فهو «اسم مصوغ من مصدر الفعل الثلاثي المتعدي للدلالة على ما وقع الفعل وبواسطته وهو قسمان جامد ومشتق وأوزان المشتق هي:

أ. مِفْعَل كمِبْرَد

ب. مِفْعَال كمِنْشَار

ج. مِفْعَلة كمِرْوَحة

وقد يكون اسم الآلة جامداً غير مأخوذ من مصدر الفعل ولا ضابط لأوزانه كالفأس والساطور والقدوم والسكين والناقور»[٥].

---

(١) ينظر مقاييس اللغة: ١ / ٧٣.

(٢) لسان العرب: ١٤/ مادة (أدا).

(٣) ينظر: الآلة والأداة، الرصافي: ١٧.

(٤) التعريفات: ١٩.

(٥) دروس في قواعد اللغة العربية، محيي الدين الأنصاري: ١٠-١١.

الأداة اصطلاحاً

عند النحاة والمنطقيين «هو الحرف المقابل للاسم والفعل»[١]، وفي اصطلاح النحويين تعني الأداة: «الكلمة تستعمل للربط بين الكلام أو للدلالة على معنى في غيرها كالتعريف في الاسم والاستقبال في الفعل (جمع) أدوات»[٢].

وبعد كل هذه الثوابت اللغوية والاصطلاحية للآلة والأداة التي تعمل أعمالا يتوصل بها إلى ما يراد وطبيعة وظيفتها في الاستخدام بأنها الشيء الذي تحقق المعالجة به أو تنقل ويعمل به في الأسماء، على الرغم من أن القدماء من اللغويين والنحويين قد أشاروا إلى هذه المعالجة أمثال سيبويه حين قال: المِقص (آلة) بدلالة معالجة القص الذي يقص به، أما المِحْلب فهو (أداة) لا يعالج بها بل وعاء لحفظ الشيء[٣]وعلى الرغم من جهود القدماء الكبيرة فإنهم لم يتوسعوا في البحث عن اسم الآلة والأداة كغيره من مباحث اللغة بحكم بساطة آليات الحياة القديمة وعدم تعقدها كما الآن، فبقي الحال عليه لدى المتأخرين في أعصر لاحقة فقيدوا مطلق اسم الآلة وأوزانها واستعمالها على وفق تصور الأقدمين[٤]، وعلى هذا فقد بحثت هذه القاعدة في كتب اللغة على طريقتين مختلفتين، سارت كل منهما على منهج، أولهما: تقوم على الاستقراء اللغوي ومراعاة الاستعمالات العربية الأصلية، فتقعُدُ ولا تعقِدُ، فتناولت اسم الآلة من ناحية أبنية بعض صيغها الاشتقاقية التي تلحق أولها ميم مكسورة للتفريق بينها وبين صيغ أسماء المكان والمصدر التي تكون على شاكلتها وتفتح ميمها، لأن العرب كانت تفرق بين دلالات الصيغ المتشابهة. بالحركات وغيرها. فنقول مثلاً (مِقَصٌّ) للشيء الذي يُقَصُّ به، و(مِقَصّ) للمصدر والموضع الذي يكون فيه القَصّ[٥]، وهذا ما أشار إليه سيبويه في (الكتاب) إيجازاً (باب ما عالجت به)، بقوله «بأن كل شيء يعالج به فهو مكسور الأول كان فيه تاء

---

(١) كشاف اصطلاح الفنون: ١ / ١٠٠.

(٢) المعجم الوسيط: ١ / ١٠.

(٣) ينظر: الكتاب، (سيبويه)، : ٤ / ٩١-٩٤.

(٤) ينظر: نظرات فاحصة في قواعد رسم الكتابة العربية وضوابط اللغة، محمد بهجة الأثري، ٢٧.

(٥) ينظر: نظرات فاحصة في قواعد رسم الكتابة العربية وضوابط اللغة، : ٢٨.

التأنيث، أو لم تكن مثل مِنْجَل ومِقراض مفتاح مصباح»[١]، هكذا يعبر سيبويه عن (الآلة) لا بلفظها بل بملحوظها وهو قوله «ما يعالج به»[٢].

وقيل في المكحلة وأخواتها: لم يذهبوا بها مذهب الفعل، ولكنها جعلت أسماء لهذه الأوعية، يعني أن المكحلة ليست لكل ما يكون فيه الكحل، ولكنها اختصت بالآلة المخصوصة، وكذا أخواتها[٣].

أما بعض أئمة الكوفيين أمثال الكسائي، فقد أشاروا إلى دلالة الآلة فيما كان من الآلات ما يُوضع ويُرفع مما في أوله ميم فاكسر الميم أبدا على مِفْعَل ومِفعَلة... يفهم من ذلك أنهم أتوا بصريح لفظ الآلة غير أن مفهومها هو (ما يوضع ويرفع)[٤]، في حين قال ابن السكيت في هذا المجال «كل اسم في أوله ميم زائدة على مِفْعَل ومِفْعَلة، مما ينقَل أو يعمل به، فهو مكسور الأول نحو مطرقة ومروحة»... [٥]، وبهذا ترى أن منحى الأوائل في صدد ذلك هو بحث بناء مِفْعَل ومِفْعَلة وضبط حركة الميم التي تلحقهما بالكسر لما يُنقل أو يُعْمَل به من الأسماء، وبالفتح للمكان أو المصدر[٦].

والطريقة الثانية: هي طريقة تناول القاعدة على منهج بحثها بالتحليل المنطقي، ومن الذين نادى بها الزمخشري معرفاً اسم الآلة بحيث تحس بأن تعريفه لها يوهم لأول وهلة أنه بسبيل من نهج الأوائل، ونص تعريفه «اسم الآلة هو ما يعالج به الشيء وينقل، ويجيء على صيغة: مِفْعَل، ومِفْعَلة، ومِفْعال»[٧].

فيلاحظ أن الشطر الأول من تعريف الزمخشري منقول من الطريقة العربية أي من ابن السكيت مع فرق واحد هو الواو في نصه... ولكن شطره الآخر قد عدل عن طريقة الأوائل في تناول الباب من جهة التفريق بين دلالة حركة ميم مِفْعَل

---

(١) الكتاب: ٤/ ٩٤-٩٥.

(٢) ينظر: نظرات فاحصة، : ٢٩.

(٣) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الإستراباذي، : ١٨٧.

(٤) ينظر: نظرات فاحصة: ٢٨.

(٥) إصلاح المنطق، ابن السكيت: ٢١٨.

(٦) أدب الكاتب، ابن قتيبة: ٤٤٩.

(٧) المفصل في علم العربية: ٢٣٩.

ومِفْعَلة بالكسر والفتح والى حصر الاشتقاق بهذه الصيغ الثلاث التي أخذها من سيبويه، ولم ينبه كما نبه سيبويه إلى قلة مِفعال فجعلها كلها على مستوى واحد من الشيوع دون غيرها من صيغ الآلة الاشتقاقية المتعددة في اللغة العربية.

ثم جاء الخالفون فأضافوا قيوداً جديدة، وصاغوا قاعدتهم صياغات متنوعة ران عليها الاختلاف والاضطراب وهي كثيرة لا مجال لنقلها، وملخص هذه النقول في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إنها تحصر اشتقاق اسم الآلة بالفعل، وعلى أن يكون معلوما ثلاثياً متعدياً وتمنعه من اللازم والمزيد من أسماء الأعيان وإن ورد في كلام العرب عشرات بل مئون من الأسماء المشتقة.

الأمر الثاني: أنها تقصرُ الأوزان الاشتقاقية على: مِفْعَل ومفعال ومِفْعَلة على اختلاف في أيهما هو الأصل.

الأمر الثالث: أنها اختلفت في قياساتها، فقال الأكثرون: يطرّد مِفْعَل ومِفعال ومفعلة، وقاس بعضهم على مفعل ومفعال، ومنع القياس على مِفْعَلة واشترط آخرون السماع فيها كلها، ومنعوا أن يطبق القياس ويعمل به إلا في المسموع[١]. هذا وذاك لا يصح أساساً لقاعدة لأن القواعد تبنى على استقراء الجزئيات ومناحي اللغة في استعمالاتها، لكننا لو عدنا إلى ما ذكرنا فإن أقوال علماء اللغة الأوائل في الكلام على طريقة الاستقراء اللغوي اهتدينا إلى أنهم إنما عرفوا منها قول سيبويه وحده في المعنى العلاجي الذي استنبطوا منه شرط اشتقاق اسم الآلة من الفعل الثلاثي المتعدي دون غيره، وإلى جانبه أيضاً أقوال لغيره من علماء اللغة[٢].

بعد كل هذا التفصيل يلاحظ أن أوزان أسماء الآلة والأداة لا تنحصر فعلاً في ثلاثة كما توهمه قاعدة النحاة، لأننا لسنا بصدد استقصاء للبحث عن كلمات جاءت على صيغة اسم الآلة ولم يتوافر فيها شرط النحويين، ولكن لو فعلنا ذلك لجمعنا من ذلك الشيء الكثير مما اشتقت عليها العرب من الأفعال اللازمة وغير

(١) ينظر نظرات فاحصة: ٣٠/٣٣.

(٢) ينظر: اسم الآلة، حسين والي: ٣٨٥.

الثلاثية ومن المصادر وأسماء الأعيان، أمثال المكحلة من الكحل الذي يوضع في المكحلة، وليست من فعل كحل حتى تكون اسم آلة له، وإنما آلته تسمى المكحل والمكحال.

إذاً العرب قد تشتق مثلاً الاسم من الفعل المتعدي وتريد به المعنى العلاجي الذي يوصل أثر الفعل إلى منفعله، كالمِقَص والمنشار... وتشتق أيضاً من الفعل اللازم لتدل على قيام المعنى بنفسه، وإن مدلوله هو غير مدلول المشتق من الأفعال المتعدية كالمِغْرَف والمِصْباح والسِّراج[1].

إذاً الأمر متعلق بالمعالجة التي تقع باسم الآلة فهي على هذا تختلف باختلاف نوع العمل الذي يعالج بها سواء أكانت المعالجة حقيقية أم اعتبارية، مثال ذلك قولنا (المِئذنة) بكسر الميم وهي المنارة - التي يؤذن المؤذن من فوقها - فهي من أذن المزيد على الثلاثي، فالمؤذن الذي يريد أن يسمع الناس أذانه، لا يقدر على ذلك في أرض الشارع أو بين البيوت فيتوسل إلى غرضه بالمئذنة فيرتقي عليها فيسمعهم صوته من فوقها، فالمئذنة إذاً آلة لأنه يتوسل بها إلى الغرض، وهو إسماع الناس الأذان، وإن لم يحصل هذا التوسل بطريقة المعالجة الحقيقية كالمعالجة بالمفتاح والمنشار[2].

ثانيا: التمييز بين الآلة والأداة ومعايير صياغتهما

ومن الملاحظ من كلام المعاجم والمتداول من كتب اللغة أن الآلة والأداة لفظان مترادفان أوقعتهما العرب على معنى واحد كما نقول السيف والعضب، وهو مذهب لبعض علماء اللغة في المترادفات، وأن كثرة الألفاظ للمعنى الواحد إذا لم تكثر بها صفات هذا المعنى كانت ضرباً من العبث، ويتساوق مع هذا المذهب ما ذكرناه آنفا من قول ابن السكيت «ما يعتمل به أو ينقل»، الذي استنتجت منه إرادته التفريق بين الآلة والأداة، بدليل التمثيل للقاعدة.

---

(١) ينظر: نظرات فاحصة: ٣٤.

(٢) اسم الآلة، حسين والي: ٣٨٩.

بأسماء تنوعت دلالات ما اشتقت منه من تعديه ولزوم فلا جرم بين الآلة والأداة فرقاً، لأن الآلة التي يعالج بها وتكون واسطة بين الفاعل ومنفعله في وصول أثره إليه هي غير الأداة التي يترفق بها، وهذا القول بوجود الفرق بينهما إنما يجري بسبيل من دلالة تنويع العرب الاشتقاق في هذا الباب من الأفعال المتعدية التي تفيد العلاج تارة، ومن اللازم وغيره تارةً لإفادة معنى آخر، وهذا يحل لنا المشكلة حلاً يلائم فطرة اللغة في إطلاق حرية اشتقاق أسماء الأجهزة وأسماء الآلات وأسماء الأدوات من الأفعال والأسماء التي تلائم معانيها ووظائفها[1]. «وبصورة عامة كان العرب إذا أرادوا التكثير استخدموا أوزان فُعّال وفَعّالة وفَعّال وفعّيل وفعلول، كالقَذّاف وهو المنجنيق والحرّاقة وهي ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر»[2].

أما بالنسبة لمعايير صياغة اسم الآلة فقد تطرق اللغويون القدامى إلى معايير صياغتها، وقد ورد في أقوالهم أن وزني فِعال وفِعَالة يفيدان الاشتمال (أي وظيفتهما الاشتمال على شيء لاحتوائه) مثل الحِزام والخِمار والعِمامة والكِنانة، فالحزام يشتمل على الجسم ويلفه والخمار يشتمل على الرأس ويغطيه، وكذلك العِمامة، فإنها تشتمل على الرأس، وكذلك فقد أجمع مجمع اللغة العربية بالقاهرة على جعل معيار صياغة اسم الآلة هو (وظيفة الآلة في الاستخدام)، إذ خصص وزن مِفْعَال لآلات الكشف ووزن مِفعَل لآلات القياس ووزن مِفْعَلة لآلات الرسم ويبقى السؤال أليس لأسماء الآلات التي هي على غير هذه الأوزان الثلاثة وظائف؟ فما وظائفها؟ وما يناسبها من أوزان لتكون مرتكزاً للقياس عليها إنماء للمفردات اللغوية، وتلبية للحاجات المستجدة؟

إذاً ليس هناك التزام بأن نكتفي بمعيار واحد للتخصيص، فثمة أمور أخرى يمكن اتخاذها معايير فإلى جانب معيار «وظيفة الآلة في العمل» يمكن اتخاذ معيار «كيفية عمل الآلة»، ومعيار ثالث هو «حجم عمل الآلة»[3]. فبالنسبة لمعيار كيفية

---

(١) ينظر: نظرات فاحصة، : ٣٧-٣٨.

(٢) معاني الأبنية في العربية، : ١٢٦.

(٣) ينظر: التنمية اللغوية ودور الاشتقاق فيها: ٢٠.

عمل الآلة: فثمة الآلات تعمل عملاً عارضاً: وهي على وزن فِعَال: مثل حِزام ولِجَام وزِمام والسِّوار وعلى سبيل المثال الحِزام يسد حاجة مؤقتة ولا يترك حين انتهائه أي أثر وكذلك القِراب والسِّوار فكأنه عمل بلا جهد أو فاعلية وثمة آلات أخرى تعمل بجهد بشري: وهي على أوزان مِفْعل ومفْعَلة ومِفْعَال

مثل مِبرد وميزان ومكنسة، فالإنسان هو الذي يقوم بالبَرد والوزن والكنْس والآلة هنا وسيلة عمل، وثمة آلات تعمل بجهد ذاتي: وهي على أوزان فاعِل وفاعِلة وفعّال وفَعّاله وفعّال وبقية الأوزان مثل لاصق، قاطرة، سيارة، جرار... الخ.

أما بالنسبة لمعيار حجم عمل الآلة الذي تقوم به الأداة أو الجهاز أو الآلة حجم متفاوت بتدرج من الحجم الصغير إلى الحجم الكبير وفيه مستويات مختلفة، وبعد هذا الاستعراض في بيان معايير صياغة اسم الآلة تبقى الآراء التي طرحت آنفا على بساط الدرس والمناقشة ليتداول بها أصحاب الاختصاص ناهيك عن أنّ الاشتقاق له الدور الكبير في إغناء اللغة العربية ورفدها بما هو جديد وملائم مع حاجات العصر لكي تبقى لغة المعرفة والحضارة كما كان شأنها في عصور ازدهارها السالفة[١].

---

(١) ينظر: التنمية اللغوية ودور الاشتقاق فيها: ٢١.

ألفاظ الآلة والأداة في التعبير القرآني

١. حرف الهمزة

١ - ١: الأباريق

للجذر (برق) أصلان تتفرع لفروع منها: أحدهما لمعان الشيء والآخر اجتماع السواد والبياض في الشيء، وما بَعدَ ذلك فكله مجاز ومحمول على هذين الأصلين.

ويقال للسيف ولكل ما له بَريق إبريق، والإبريق معروف وهو من الباب.[١] والإبريق (واحد الأباريق)، فارسي معرب»[٢]، ويقال: إنّ «الإبريق ترجمته من الفارسية أحد شيئين: إما أن يكون طريق الماء، أو [صَبّ الماء] على هِنَيَّةٍ، وقد تكلمت به العرب قديماً»[٣]، وقد أشار ابن منظور إلى أن الإبريق «هو الكوز، وهو في كل ذلك فارسي. والعرب تشبه أباريق الخمر برقاب طير الماء ... ويشبهون الإبريق أيضاً بالظبي»[٤] ومن الإبريق البارقة: السيوف ويطلق على المرأة البرّاقة: إبريق[٥] ووصف الرصافي الإبريق بقوله: «إناء من زخرف أو معدن له عروة وفم وبلبلة»[٦].

وعلى الرغم من ورود لفظة إبريق في مادة (برق) في المعاجم اللغوية فإنها من الفارسي المعرب وأصلها (إبريز)[٧]، وقيل أيضاً إن سبب تسمية الإبريق إبريقاً

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٢٢٥.

(٢) الصحاح: ٤ / ١٤٤٩.

(٣) المُعرب من الكلام الأعجمي: ٧١.

(٤) لسان العرب: ١٠ / ١٧-١٨، مادة (برق).

(٥) ينظر: مجمل اللغة: لابن فارس: ١/٢٥٣.

(٦) الآلة والأداة، الرصافي: ١٥.

(٧) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، ط٢ منقحة ومزيدة (دار النصر للطباعة، د/ م: د/ ت): ١ / ٢٦.

لأن مَعْدِنَهُ يَبْرُق من صَفائِهِ ونفاسَتِه[١].

لقد وردت لفظة (إبريق) في موضع واحد من القرآن الكريم وبصيغة الجمع[٢] ففي قوله تعالى ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ الواقعة: ١٨ فاستخدام اللفظة ضمن السياق القرآني يوحي إلى معنى الخمر الجارية من العيون وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلف ومعالجة[٣] أي «من خمر صافية سائغة»[٤].

وقد اختلفت الأقاويل والمسائل في تقديم الأباريق وذكرها بصيغة الجمع والتزام صيغة المفرد للكأس، فمنهم من قال من عادة العرب في الشرب أن يكون عندهم أوانٍ كثيرة فيها الخمر معدة موضوعة عندهم... فإن قيل الطواف بالكأس على عادة أهل الدنيا، وأما الطواف بالأكواب والأباريق فغير معتاد، فما الفائدة فيه؟ نقول: عدم الطواف فيها في الدنيا لدفع المشقة عن الطائف لثقلها وإلا فهي محتاج إليها بدليل أنه عند الفراغ يرجع إلى الموضع الذي هي فيه وأما في الآخرة فالآنية تدور بنفسها والوليد معها إكراما لا للحمل، وفيه وجه آخر من حيث اللغة وهو أن الكأس إناء فيه شراب فيدخل في مفهومه المشروب، والإبريق آنية لا يشترط في إطلاق اسم إبريق عليها أن يكون فيها شراب[٥].

وقال المفسرون «إذاً يطوف عليهم الولدان المخلدون بهذه الأدوات النفيسة، وذكر هذه الأدوات عن طريق الكناية بما فيها من أنواع أشربة نفيسة لذةٍ للشاربين»[٦]، وهذه الأباريق مملوءة بأنواع المشروبات التي هي عند المؤمن كفاية حاجة، وبهذا التصوير الفني الرائع والذي يقربه الله بأداة بسيطة بمستوى تخيل الإنسان ليستوعب الصورة النورانية في الحركة الجماعية التي يسخرها البارئ عز وجل لخدمة عباده الصالحين في الجنة، وبهذا تتبين بلاغة القرآن في إرادة الله تعالى

---

(١) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٨/ ٤٤٩.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي: ١١٨.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣٢/١٧.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦٩٦/١٧.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب. الرازي: ١٥١/٢٩.

(٦) معارج التفكر: ٨/ ٤٤٨.

بأن يبين بذكر لفظة أباريق ليس لذكر جنسه بل لدلالته على المشروب[١]. وبعد كل هذه الاعتبارات والتفسيرات للفظة إبريق يظهر أداة (الإبريق) بوصفها الوظيفي ليرتقي بآدائها فيتحول بها من الاستخدام الدنيوي إلى الاستخدام الأخروي لبيان فضل تكريم المؤمنين من الله عز وجل.

١ - ٢: الأرائك

للجذر (أرك) أصلان عنهما يتفرع المسائل: أحدهما شجر، والآخر الإقامة، فالأصل الأول الأراك وهو شجر معروف... والأصل الثاني: الإقامة[٢].

والأرائك واحدتها أريكة وهي السُّرر في الحجال»[٣]، والأريكة أيضاً «مقعد منجد، سرير يجلس عليه ويكون محوطاً بالستائر والزينة، أو كل ما اتكئ عليه من سرير أو فراش والجمع أرائك»[٤]، ويقال إن سبب تسمية - الأريكة - بهذا الاسم «أما لكونها في الأرض متخذة أراك وهو شجرة، أو لكونها مكاناً للإقامة من قولهم أرك بالمكان أروكاً، وأصل الأروك: الإقامة»[٥]. وعرفها ابن منظور أيضاً بأنها «سرير في حجلة، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة، والجمع أريك وأرائك»[٦].

وقد وردت اللفظة في خمسة مواضع من القرآن الكريم وبصيغة الجمع[٧]، وبدلالة واحدة وهي كونها أداة للراحة والتكريم ففي قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ المطففين: ٢٥، ٢٣ تدل الأرائك هنا على الإقامة والنعيم والراحة التي ينالها المؤمنون فهي آلة الراحة لديهم. «أي أنهم في موضع التكريم ينظرون

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٩/ ١٥١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ١/ ٨٣-٨٤.

(٣) مجاز القرآن، ابو عبيدة: ٤٠١/١.

(٤) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١/ ٣٦.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ١٨/١٧.

(٦) لسان العرب: ١٠/ ٣٩٠، مادة (أرك) والآلة والأداة: ١٧.

(٧) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٣٦/١.

حيث يشاءون... وهم على الأرائك وهي الأسرة في الحجال، وأقرب ما يمثلها عندنا ما نسميه [الناموسية]! وصورتها الدنيوية كانت أرقى مظاهر النعيم عند العربي ذي العيشة الخشنة! أما صورتها الأخروية فعلمها عند الله وهي على أية حال أعلى من كل ما يتعهده من تجاربه في الأرض وتصوراته»[١]، وقد ذهب الطوسي في قوله بأن هذا مثال واضح على عطاء الله للمؤمنين في الملك والكرامة ويظهر هذا النعيم في كونها من اللؤلؤ والياقوت ينظرون منها إلى ما أعطاهم الله من الملك والكرامة، والجملة كل قبة على الأسرة[٢].

وقد وصف ابن عاشور الأرائك «بأنها تجلس فيها المرأة أو تنام فيها ولذلك يقال للنساء ربات الحجال، فإذا وضع فيها سرير للاتكاء والاضطجاع فهي أريكة ويجلس فيها الرجل وينام مع المرأة. وذلك من شعار أهل الترف»[٣]، ومثيل اللفظ أيضاً في قوله تعالى:

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ۝ ﴾ (الإنسان: ١٣) فقد أشار سيد قطب إلى أنهم في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ في غير حر، ندى في غير برد، ولنا أن نقول: إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرى من نظائرها... وكفى[٤].

فالسياق القرآني للفظة يعرض لنا المشهد باستخدام أداة من أدوات الراحة ويقدمه أنموذجاً للحظات الجزاء والنعيم بوصف مكان المؤمنين في الجنة ومقامهم فيها بذكر لفظة أرائك، والتي كان حصيلتها المكانة العالية عند الله بجنات الخلد، وبهذا ندرك بعقلنا الذي ينبئ عن وصف - الأريكة - بوصفها أداة للراحة والإقامة بأنها مثار التكريم، فلم تكن هذه أداة لتحقيق عقاب أو تغرير بشيء بل وجدت لتميط اللثام عن جودة الخلق وراحة وجزاء لمن يستحق فعل الخير.

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٠/ ٥٠٧.

(٢) ينظر: التبيان: ١٠/٣٠٢.

(٣) التحرير والتنوير: ١٥/٣١٤.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٣٩٩.

١-٣ الأزلام

للجذر (زلم) أصل واحد يدل على نحافة ودقةٍ في ملامسة وقد يشذ عنه الشيء، فالأصل الزَّلَم والزُّلَم: قدح يُسْتَقْسَم به، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، وحَرّم ذلك في الإسلام بقوله جل ثناءه: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ [1] (المائدة: ٣).

وقول لبيد:

{تَزِلُّ عن الثرى أزلامُها}

فيقال: إنه أراد أضلاف البقرة. وهذا على التشبيه[2] «وسمى لبيد أظلاف البقرة الوحشية أزلام وسمى الدهر والأزْلم الجَذع»[3]، وقد ذهب الفراهيدي إلى أن الأزلام: هي القداح التي لا ريش لها، كانت العرب تَسْتَقسِم بها عند الأمور إذا همَّ بها أحدهم مكتوب عليها: افعل... لا تَفْعل[4]، وفي راوية: الأزلام: «القداح ... كان الرجل منهم يضعها في وعاء له فإذا أراد سفراً أو روَاحاً أو أمراً مهماً أدخل يده فاخرج منها زُلَماً فإن خرج الأمر مضى لشأنه وإن خرج النهي كفَّ عنه ولم يفعله»[5]، وقد وردت لفظة (الأزلام) في موضعين من القرآن الكريم[6].

<u>الموضـــــع الأول:</u> في قوله تعالى: ﴿... وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ...﴾ (المائدة: ٣) فقد أشار الزمخشري إلى أن معنى الاستقسام بالأزلام هو طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام. وقيل أيضاً هو الميسر... فإن قلت لما كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام لتعرف الحال فسحاً؟ قلت: لأنه دخول في

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ١٨.

(٢) شرح المعلقات السبع: ٩٠.

(٣) الجمهرة: ٣ / ١٧.

(٤) ينظر: العين: ٧ / ٣٧٠، المصطلحات العسكرية: ٢ / ٨٣٥، الفارابي اللغوي، أحمد مختار عمر، : ٧٤.

(٥) لسان العرب: ١٢ / ٢٧١ ومادة (زلم).

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٣٢.

علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب وقال: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١] (النمل: ٦٥) .

وقد فسر الرازي أيضا معنى الاستقسام بالأزلام بقوله: «وفيها مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية قولان: الأول: كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً آخر من معاظم الأمور ضرب بالقداح، وكانوا قد كتبوا على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها نهاني ربي، وتركوا بعضها خالياً من الكتابة، فإن خرج الأمر أقدم على الفعل، وإن خرج النهي أمسك، وإن خرج الغفل أعاد العمل مرة أخرى.

المسألة الثانية: الأزلام القداح وأحدها زلم... وإنما سميت القداح بالأزلام لأنها زلمت أي سويت، ويقال: رجل مزلم وامرأة مزلمة إذا كان خفيفاً قليل العلائق، ويقال قدح مزلم ولزم إذا ظرف وأجيد قده وصنعته....، ويقال لقوائم البقر أزلام، شبهت بالقداح للطافتها[٢]، وذلك حرام لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ (لقمان: ٣٤) والمعلوم إن الاستقسام كله باطل... والمستقسم بالأزلام نسلم أنه لا يستفيد من ذلك علماً وإنما يستفيد من ذلك ظناً ضعيفاً[٣]، «والاستقسام بهذا كله هو طلب القَسْم والنصيب كما بينا، وهو من أكل المال بالباطل وهو حرام، وكل مقامرة بحمام أو بنرد أو شطرنج أو بغير ذلك من هذه الألعاب فهو استقسام بما هو في معنى الأزلام حرام كله، وهو ضرب من التكهن»[٤].

وقد وردت اللفظة أيضاً في موضع آخر من القرآن بوصفها أداة مستخدمة يُستعان بها لمعرفة الخير والشر بواسطة ضرب القداح إذا أرادوا أمراً (ما) سواء سفراً أو أي شيء آخر، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ

---

(١) ينظر: الكشاف: ١/٦٠٤.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١١ / ١٣٨.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ١١ / ١٣٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٤٠.

وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (المائدة: ٩٠) وقد ذهب سيد قطب إلى أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الجاهلية، وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق في مزاولتها. وكان الميسر من ضمن هذه الأفعال المحرمة في الإسلام، ويجري الميسر عن طريق الأزلام وهي قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه (المعلى) يأخذ النصيب الأوفر، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه، وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها[١].

وبهذا النداء الموحي تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس...)، لأن هذا الاستقسام رجس من عمل الشيطان ونوع من أنواع التطير ورجم بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله فهو حرام لا يجوز استخدامه والمداولة فيه.

١ – ٤: الأسفار

للجذر (سفر) أصل واحد يدل على الانكشاف والجلاء من ذلك السَّفر لأن الناس ينكشفوا عن أماكنهم، ومن الباب وهو الأصل: سَفَرتُ البيت كنستُه، ولذلك يسمى ما يسقط من ورق الشجر السَّفير، وإنما سمي سَفيراً لأن الريح تسفره... ويقال للطعام الذي يتخذ للمسافر سُفْرة... ومما شذ عن الباب السِّفار، حديدة تجعل في أنف الناقة... والسِّفرُ: الكتاب، والسَّفرة: الكتبة، وسُمّي ذلك الكتابة تُسِفر عما يحتاج إليه من الشيء المكتوب[٢].

والسِفْر «الكتاب والجمع أسفار وكذا هو في التنزيل: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ (الجمعة: ٥) والله أعلم، ويقولون أسماؤنا في السِفْر الأول أي: في الكتاب الأول»[٣].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٧ / ٣٠، ٣١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ /٨٢-٨٣.

(٣) الجمهرة: ١٢ / ٣٣٣ وينظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٦٨.

ومن المجاز: «وجه مُسْفِر: مشرق سروراً ... وَسفَرت الريح عن وجه السماء... وسفرت الحربُ: وَلّت، وأسفرت: اشتدت»[1]، وقيل أسفاراً «وتعني الكتب بالسريانية»، وقال بعضهم بالنبطية»[2]، وقيل: في (سفرت) المرأة قناعها عن وجهها «كشفته سفوراً فهي سافر»[3]، وقد كان ورود اللفظة في التنزيل العزيز على خمسة وجوه:

الأول: «الأسفار: (جمع سَفر) المنازل والقرى، في قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا ﴾ (سبأ: ١٩) يعني قرآنا ومنازلنا.

الثاني: (الأسفار جمع سِفْر) الكتب، في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ (الجمعة: ٥) يعني كتاباً كقوله تعالى: ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴾ (عبس: ١٥) يعني كتبه.

الثالث: الأسفار يعني (الإشراق) ويقال الفرح في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴾ (عبس: ٣٨) أي: مشرقة

الرابع: أسفر بمعنى (انكشف) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴾ (المدثر: ٣٤) أي: أضاء وانكشف.

الخامس: السَّفَرُ بعينه في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ[4] ﴾ (البقرة: ١٨٤) .

إن ما يعنينا هو استخدام لفظة (الأسفار) بوصفها أداة يترفق بها، فقد وردت في موضعين من القرآن الكريم[5]، الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ (الجمعة: ٥) والأسفار هنا تعني الكتب بوصفها وعاء العلم الذي

---

(١) أساس البلاغة: ٢٩٨.

(٢) الكليات: ١ / ٢٦٨.

(٣) المُغرب في ترتيب المعَرب، المطرزي: ٢٢٦.

(٤) قاموس القرآن أو أصلاح الوجوه والنظائر: ٢٣٨.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٥٢.

تحفظه من النسيان والضياع، ومستودع ثمر العقول، وقد أشار القرطبي إلى أن الأسفار هي جمع سِفر، وهو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ، وقيل: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبيل، فهكذا اليهود، وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه، لئلا يلحقه الذّم ما لحق هؤلاء[١]، ولسيد قطب قول في ذلك يبين «أن بني إسرائيل حملوا التوراة وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة (ثم لم يحملوها)... فحملُهَا يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع، ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم - وكما هي في حقيقتها - لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة، ولا أنهم فقهوا حقيقتها ولا أنهم عملوا بها، وليس شريكاً في الغاية منها»[٢].

«وهكذا شبه الله تعالى اليهود بالحمار يحمل على ظهره أحمالا من كتب العلم لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، وليس له إلا ثِقْلُ الحِمْل من غير فائدة»[٣]، وفي هذا التشبيه «صور عدة مترابطة بين حاملي التوراة والحمار الحامل للأسفار، ترابطت واتحدت حتى ظهرت هذه الصورة التشبيهية المعروضة... ويبدو أن سبب تشبيه اليهود بالحمار من بين سائر الحيوانات في هذه الآية أمور منها:

إن الحمار من أشهر الحيوانات بالبلادة والجهالة حتى قالوا للبليد على سبيل المثال (أجهل من الحمار) يعني حمار بن سويلك، الذي يقال له: أكْفر من حمار[٤]، ولما كان المقصود إعلان بلادة روح اليهود وجهلهم بالتوراة وعدم الاستفادة منه وقع هذا التشبيه»[٥]... فالتشبيه مركب من أحوال الحمار، وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نفع مع تحمل التعب في استصحابه[٦]، «وهذا التشبيه أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في الجهل بما حَمَل، وفي ذلك

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ٦٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٨ / ٩٧-٩٨.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٧٢٣.

(٤) مجمع الأمثال: ١/ ١٨٩.

(٥) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: ١٨٢.

(٦) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٣ / ١٤٤.

العيب لطريقة من ضيّع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية»[1]، وقيل: «إن جهل اليهود وإغفالهم ما في التوراة من أمر محمد (ﷺ) معنى يستفاد من المعنى اللغوي في الآية، ومن التمثيل»[2]، فالسياق القرآني يحول لفظة (السِفر) التي على وصفها الاعتباري القائم على حفظ العلم والإعلان عن مضامينه إلى معنى الكشف والوضوح زيادة بجهل اليهود وغبائهم، وعلى هذا أصبح (السِفر) في سياق الآية الكريمة السابقة الذكر أداة إدانة للمعاندين الذين أنكروا ما ورد فيه، فالإشارة ضمنية وهم في موقف ضعف فلديهم الدليل القاطع والكتاب الدامغ ولا يفهمون ما بين أيديهم مثلهم ومثل الحمير والأنعام سواء.

وقد وردت اللفظة في موضع آخر من التنزيل العزيز وبدلالة مغايرة عن دلالتها في الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ (سبأ: ١٩) فالأسفار هنا تعني القرى، ومعنى الآية أي باعد بين قرآنا ومنازلنا فنسير على نجائبنا ونربح في التجارات ونفاخر في الدواب والأسباب بطروا بالنعمة وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب[3]. وهذا أيضاً ما ذهب إليه محمد مخلوف فقال: «طلبوا بطراً وطغياناً أن يجعل الله بينهم وبين الشام مكان تلك القرى العامرة مفاوزَ وصحارى متباعدة الأقطار، فأجابهم إلى ما طلبوا، وذلك واضح من سياق قوله تعالى: ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ... ﴾ (سبأ: ١٩) أي: صَيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم، ويضربون بهم المثل ففرقناهم في البلاد»[4].

١ - ٥: الأسلحة

للجذر (سلح) أصل واحد والسلاح هو ما يُقاتل به وكان يفرق بين السلاح

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٨٤.

(٢) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ٣٠٩.

(٣) ينظر: الأساس في التفسير: ٨ / ٤٥٢١-٤٥٢٢.

(٤) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٥٤٣.

والجُنة يقول: السلاح ما قوتل به والجُنّة ما اتقي به[1] «والسّلاح من عداد الحرب ما كان من حديد حتى السّيف وحدَه يدعى سِلاحاً»[2]، وقيل: «السلاح يذكر ويؤنث والغالب تذكيره»[3]، وقد أشار ابن سيدة إلى أن: «جمع السِّلاح سُلُح وسُلحان وأسلحة ... والسلاحُ مذكر فإن ذهبت به إلى الدِرْع أنثت»[4] وقيل أيضا: إن «كل عُدة للحرب فهو سلاح، ومن المجاز: أخذت إلى الإبل سِلاحَها وتسلحتْ بأسلحتها إذا سمنت في عينك وحسنت»[5]، وهكذا نرى أن السلاح بالكسر «اسم جامع لآلة الحرب ويطلق على السيف وعلى القوس بلا وتر وعلى العصا أيضاً»[6].

وقد وردت لفظة (السلاح) في موضوع واحد من القرآن الكريم وبصيغة الجمع[7]. ويوصفها آلة وأداة للقتال أو الدفاع عن النفس في قوله تعالى: ﴿ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ (النساء: ١٠٢) .

فقد أشار الرازي لقوله: «وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم»، والمعنى «أنه تعالى جعل الحذر وهو التحذر والتيقظ آلة يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ فإن قيل: لم ذكر في الآية الأولى (أسلحتهم) فقط، وذكر في هذه الآية حذرهم وأسلحتهم؟ قلنا: لأن في أول الصلاة قلما يتنبه العدو لكون المسلمين في الصلاة، بل يظنون كونهم قائمين لأجل المحاربة. أما في الركعة الثانية فقد ظهر للكفار كونهم في الصلاة، فهاهنا ينتهزون الفرصة في الهجوم عليهم فلا

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٩٤.

(٢) العين: ٣ / ١٤١ وينظر: جمهرة اللغة: ٢ / ١٥٤-١٥٥، المُغرب في ترتيب المعرب: ٢٣١.

(٣) المذكر والمؤنث: ١ / ٤٣٠.

(٤) المخصص: ٢ / ٣٦ (السفر السادس).

(٥) أساس البلاغة: ٣٠٤.

(٦) الآلة والأداة: ١٤٧.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٥٤.

جرم أنّ خص الله تعالى هذا الموضع بزيادة تحذير فقال (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)[١]. وهذا أيضاً ما ذهب إليه القرطبي بقوله: «وقد بين الله تعالى وجه الحكمة بأخذ السلاح بأنه قد يجد الكافرون غفلة المصلين عند أخذ السلاح ليصلوا إلى مقصودهم لأن العدو لا يؤخر قصده من هذا الوقت لأنه آخر الصلاة وأيضاً يقول العدو قد أثقلهم السلاح وكلّوا، وفي هذه الآية أدل دليل على تعاطي الأسباب واتخاذ كل ما يُنجي ذوي الألباب ويصل إلى السلامة ويبلغ دار الكرامة»[٢].

وذكر السلاح في هذه الآيات وتكراره، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في مشقة فهم يأخذون منه بقدر الطاقة (وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ) (النساء: ١٠٢) فحمل السلاح في هذه الحالة يشق ولا يفيد، ويكفي أخذ الحذر، وتوقيع عون الله ونصره، ولعل هذا الاحتياط، وهذه اليقظة، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذي أعده الله للكافرين... فيكون المؤمنون هم ستار قدرته وأداة مشيئته وهي الطمأنينة مع ذلك الحذر والثقة في النصر على قوم ﴿ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [٣] نلاحظ أن السياق القرآني يحول أداة السلاح إلى حالة تربي الأمة وتلفت أنظارها نحو مشروع أكبر هو مشروع الجهاد بالسيف الرمح فالسلاح كما وصف في سورة (النساء: ١٠٢) إنما هو أداة ووسيلة دفاعية لما يقتضيه الحال ضد أعداء الدين والوطن وهذا السلاح مدعوم بقوة خفية ترهب العدو على بُعد منه فتمثله بالإيمان بالله والثقة بنصره على الرغم من قوة العدو وبطشه.

---

(١) مفاتيح الغيب: ١١ / ٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٥ / ٢٣٨.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٥٠٧-٥٠٨.

١ - ٦: الأسورة - أساور

للجذر (سور) أصل واحد يدل على علوّ وارتفاع، من ذلك سارَ يَسوُر إذا غضب وثار. والسُّور: جمع سُورة، وهي كلُّ منزلةٍ في البناء. ومنه السِّوار: سِوار المرأة والأسوار من أساورة الفُرس وهم القادة فأراهما غير عربيتين[١].

والسوار: «القلب: سوار المرأة والجميع: أسْورة وأساور والكثير سُور»[٢]، وقيل: «الإسوار [بالكسر] من أساورة الفرس، أعجمي معرب وهو الرامي، وقيل الفارس، و(الأسْوارُ) [بالضم] لغة فيه»[٣]، والأساورةُ أيضاً «قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً»[٤].

ومن المجاز: «سار الشراب في رأسه. وساورتني الهموم وله سُورة في المسجد: رفعة وله سُورَة عليك: فضل ومنزله»[٥]وقيل إن الأسْوارُ «حلية من الذّهب مستديرة تُلبَس في المعصَم والزّنْد (جمع) أسورة (وجمع الجمع) أساور. واساورة. وقائد الفرس والفارس المقاتل والثبات على ظهر الحصان»[٦]. فقد قيل: السوار هو الذي يلبس في الذراع من ذهب فإن كان من فضة فهو قلب وجمعه قلبة، وإن كان من قرون أو عاج فهو مسكة وجمعها مسك[٧].

وقد وردت اللفظة في خمسة مواضع من القرآن الكريم أفراداً وجمعاً[٨]، بوصفها أداة تكريمية تدل على النعيم المادي المحسوس لأهل الجنة وهي خاصة بهم لا يسورها غيرهم، كما نتصور في مخيلتنا وذاكرتنا بأن هذه المبثوثات التكريمية لا تكون إلا للملوك وأصحاب النعيم في الدنيا، وفي الآخرة تكون من

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ١١٥.
(٢) العين: ٧ / ٢٨٩.
(٣) المُعرب من الكلام الأعجمي، الجواليقي: ٦٨.
(٤) الصحاح: ٢ / ٦٩٠.
(٥) أساس البلاغة: ٣١٢.
(٦) معجم لغة العرب: ١ / ٢٩ وينظر: معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٦٣١.
(٧) ينظر: القرآن الكريم وبهامشه كتاب نزهة القلوب: ٢٤٦.
(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٧٠.

شأن المخلصين المؤمنين منهم من رفيعي الدرجات عنده كما سيتبين في قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ (الإنسان: ٢١) .

فقد ذهب الطوسي «أن التحلية الزينة كما كان من الذهب والفضة والتحلية تكون للإنسان وغير الإنسان كحلية السيف وحلية المراكب والفضة الشفافة هي التي يرى ما وراءها كما يرى البلورة، وهي أفضل من الدرّ والياقوت وهما أفضل من الذهب فتلك الفضة أفضل من الذهب، وقد يحلون الذهب تارة وتارة الفضة ليجمعوا محاسن التحلية كما في قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ (الكهف: ٣١) والفضة وإن كانت دنية في الدنيا، فهي في غاية الحسن خاصة إذا كانت بالصفة التي ذكرها، والغرض في الآخرة الالتذاذ والسرور به لا بأكثر الثمن لأنه ليس هناك أثمان»[1].

وعلى العموم قال المفسرون: «لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة»[2]. ومما يلاحظ أن ذكر الأساور ولبسها من صفة الأبرار في الجنة ولما ذكر الله تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان: ٢١) أي طهروا بواطنهم من الحسد تكريماً وأماناً لهم[3]. «فالتحلية هنا للزينة، وليست من الضروريات، فجاء الفعل (يُحلّونَ) أي: حلاّهم غيرهم ولم يقل يتحلون»[4]. وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ ﴾ (فاطر: ٣٣) ولسيد قطب وصف نستشف من ورائه حالة المؤمنين في الجنة متمثلاً بقوله: «مشهد يتكشف عن نعيم مادي محسوس، ونعيم نفسي محسوس منهم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ... وذلك بعض المتاع ذي المظهر المادي، وبجانبه ذلك الرضى وذلك الأمن والاطمئنان والدنيا بما فيها من خلق

---

(١) التبيان: ١٠ / ٢١٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠ / ٢٥٨.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٩٠.

(٤) الشعراوي: ١٤ / ٨٨٩٥.

على المصير ومعاناة للأمور تعد حُزناً بالقياس إلى هذا النعيم المقيم»[١]، والأساور على هذا سواء أكانت من ذهب أم لؤلؤ، فهي كلها حلية في الآخرة لذلك قال: محمد (ﷺ) عن هذه الحلية في أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عن المؤمن[٢].

وكـذا اللفـظ فـي سـورة الزخـرف: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ (الزخرف: ٥٣) وهنا السوار «كناية عن تمليكه. وكانوا إذا سوّروا رجلاً سوّروه بِسوارَين، وطَوّقوه بطوق من ذهب، علامة لسيادته»[٣].

وبهذا يوحي السياق القرآني بأن أداة (السّوار) هي أداة إحاطة وتحلية يُكافئ بها المؤمنون يوم القيامة لأنهم هجروا متاع الدنيا في الدنيا وتقربوا إلى الله تعالى بزهدهم وتعبدهم الخالص له وحده.

(١) في ظلال القرآن: ٢٢ / ٧٠١.

(٢) ينظر: الشعراوي: ١٤ / ٨٨٩٥.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٦٢٥.

١ - ٧: الأصفاد

للجذر (صفد) أصلان صحيحان: أحدهما عطاء والآخر شَدَ بشيء.. أما الصِفد فالغُلّ، ويقال الصِفد التقييد، والأصفاد: الأقياد والأصفاد: القيد أيضاً[١] وفي الحديث: «إذا كان أول ليلة من رمضان صُفّدت الشياطين»[٢]، والأصفاد «الأغلال قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ ﴾ (إبراهيم: ٤٩) والصِفد العطية اعتباراً بما قيل: أنا مغلول أياديك، وأسير نعمتك ونحو ذلك من الألفاظ الواردة عنهم في ذلك[٣] وقد ذكر الأصفهاني أن الأصفاد أغلال واحدها صفد[٤]، ومن المجاز: «صفدته بكلامي تصفيداً إذا غلبته»[٥]... والأصفاد أيضاً: «جمع صفد: وهو القيد الذي يوضع فيه الرجل أو الغُل الذي تضم به اليد والرجل إلى العنق»[٦] وقد قال الرصافي أن الصَفَد بالتحريك: الوثاق، أما الصِفاد بالكسر ما يوثق به الأسير من قدّ أو قيد أو غلّ[٧]، وثمة من يقول إن الصفد «مدينة بين الشام والقدس»[٨].

وردت لفظة (صفد) في موضعين من القرآن الكريم[٩] وبصيغة الجمع وبوصفها أداة من أدوات التكبيل والتقييد متمثلة في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ ﴾ (إبراهيم: ٤٩) قال ابن قتيبة «أي قد قُرن بعضهم إلى بعض في الأغلال، واحدها صفد»[١٠].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٢٩٣ -٢٩٤.

(٢) صحيح ابن حبان: ٨ / ٢٢١ وسنن البيهقي الكبرى: ٤/ ٣٠٣.

(٣) ينظر: المفردات: ٤١٧.

(٤) ينظر: غريب القرآن: ١٧.

(٥) أساس البلاغة: ٣٥٦.

(٦) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ٢ / ١١.

(٧) ينظر: الآلة والأداة: ١٨٣.

(٨) الفارابي اللغوي: ٦١.

(٩) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٠٩.

(١٠) تفسير غريب القرآن: ٦١.

وقد ذهب الطوسي: إلا أن الأصفاد هنا تعني: «السلسلة التي يقع بها التقرين»[١] أما القرطبي فقد أشار إلى أن الأصفاد هنا تعني «الأغلال والقيود واحدها صَفْد وصَفَد قيل: يقرن كل كافر مع شيطان في غلّ بيان قوله: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ (الصافات: ٢٢) وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي»[٢]، وقيل أيضاً: ترى المجرمين الكافرين يوم القيامة قد قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين (في الأصفاد) متعلق (بمقرنين) أي يقرنون في الأصفاد أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود أو الأغلال[٣].

أما الشعراوي فقد قال: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ (إبراهيم: ٤٩) إن المجرم «هو من ارتكب ذنباً، وهو هنا من ارتكب ذنب القِمّة، وهو الكفر بالله ومن بعده مَن ارتكب الذنوب التي دون الكفر وتراهم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض في (قَرنٍ)، وهو الحبل، أو القَيْد الذي يُقيدون به والأصفاد جمع صفد، وهو القيد الذي يوضع في الرِّجلْ! وهو مثل الخلخال، وهنالك من يُقيدون في الأصفاد من أرجلهم وهنالك من يُقيد بالأغلال. أي توضع أيديهم في سلاسل وتعلق تلك السلاسل في رقابهم أيضاً. وكلُّ أصحاب جريمة معينة يجمعهم رباط واحد، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا - في الغالب - مودة وتعاطف، أما هنا فسنجدهم متنافرين، وعلى عداء، ويلعن كل منهم الآخر، وكل منهم يناكف الآخر ويضايقه، ويعلن ضيقه منه، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾»[٤] (الزخرف: ٦٧) وكذلك اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ (ص: ٣٨) وقد أشار النسفي إلى قوله تعالى: ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ بقوله كأن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ٢٥٢.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق والتأويل: ٢ / ٨٣٥.

(٣) الشعراوي: ١٢ / ٧٦١٤ – ٧٦١٥.

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٤٨٨.

«يقرن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد، والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول الإمام علي (ﷺ) مَن بَرَّكَ فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك».

وقد يكون معنى (مقرنين في الأصفاد) أي: مجموعين في السلاسل والأغلال بقوة، مقرنين أزواجا أو جماعات[1] ويقصد أيضاً: «أنهم المردة من الشياطين مقروناً بعضهم ببعض بالأغلال والقيود»[2].

فالصفد في سياق الآيتين يستخدم أداة تقييد تتقوى وظيفته بإنزال العقوبة على المجرمين الذين يستحقون ذلك العقاب، والصفد لا يأتي مقروناً إلا بعقاب العصاة فلا صفد مع المطيع وإنما يصفد المسيء فهو - أي الصفد - أداة ضابطة لعقاب من يخالف الأحكام الإلهية العليا فبهذا كانت أداة تنبيه إلا أن اقتراف الآثام يورث التصفيد ....

١ - ٨: الأعلام

للجذر (علم) أصل صحيح واحد يدل على أثر بالشيء يتميزُّ به عن غيرهَ. ومن ذلك العلامة، وهي معروفة ويقال: عَلَّمت على الشيء علامة، والعَلَم: الراية والجمع أعلام، والعَلَم أيضاً: الجبل، وكل شيء يكون مَعْلماً. خلاف المَجْهَل[3]، قالت الخنساء

وان صخراً لتأتم الهُداة به كأنه علَمٌ في راسهِ نارُ[4]

والعلم أيضاً: «عَلمُ الثوب ورقمه ... والعَلَمُ: ما ينصب في الطريق ليكون علامة تُهتدى بها من شبهْ الميل والعَلَمُ: ما جعلتهُ علماً للشيء ويقرأ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ (الزخرف: ٦١) ويعني خروج عيسى (ﷺ). ومن قرأ (لعَلَمُ) يقول: يعلم

(١) ينظر معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣ / ٥٧٤.

(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٥٨٠.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٤/ ١٠٩.

(٤) ديوان الخنساء: ٧.

بخروجه اقتراب الساعة»[١] فالعلاّمة والعلم تعني الجبل... ورجل علامة أي عالم جداً[٢]، وقيل: «كان الخليل عَلاّمة البصرة ونقول أيضاً: هو من أعلام العلم الخافقة ومن أعلام الدين الشاهقة وهو مُعْلَمُ الخير ومن معالمه، وخَفيتْ معالم الطَريق: أي آثارها المُستدل بها وعليها»[٣]، والعَلَمُ «المنارُ، والعَلامة والعَلَمُ: شيء ينصب في الفَلواتِ تهتدي به الضَالة»[٤]، والعَلَمُ أيضا: «الفصل بين الأرضيين»[٥].

وردت لفظة - العلم - في موضعين من القرآن الكريم وبصيغة الجمع[٦]، في قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ (الشورى: ٣٢) وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ (الرحمن: ٢٤).

ويلاحظ أن كل هذه المعاني للعلم من المعنى الحسي وتكون بعد ذلك المعاني الخاصة أو الاصطلاحية في العلم[٧]، في قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ (الشورى: ٣٢) وقد ذهب الرازي إلى أن المفسرين اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال وكما قالت الخنساء مسبقاً في مرثية أخيها:

وإن صخراً لتأتم الهُداةُ به كأنه علمٌ في رأسه نارٌ

ونقل أن النبي (ﷺ) استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي إلى هذا البيت قال: (قاتلها الله ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً)[٨].

وقد أشار القرطبي أيضاً إلى أن من علامات الله سبحانه وتعالى الدالة على قدرته السفُن الجارية في البحر كأنها من عظمها أعلام، والأعلام الجبال وهذا أيضا

---

(١) العين: ٢ / ١٥٣.
(٢) الصحاح: ٥ / ١٩٩٠.
(٣) أساس البلاغة: ٤٣٤.
(٤) لسان العرب: ١٢ / ٤١٩ مادة (علم).
(٥) المعجم الوسيط: ٦٣٠.
(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٨٠.
(٧) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٤٨٠.
(٨) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧ / ١٧٦.

ما أشار إليه الرازي مسبقاً[١]، وكذا اللفظ في سورة الرحمن: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (آية: ٢٤) والأعلام هنا تعني الجبال أيضاً لأن التقدير حينئذ له السفن الجارية في البحر كالأعلام، فيكون أكثر بياناً للقدرة الإلهية[٢]، وهذا ما ذهب إليه حسنين محمد مخلوف مفسراً بقوله: «أي وله السُفن الجاريات في البحر، والمرفوعات القُلُوع كالجبال الشاهقة... والعَلَم هو الجبل الطويل»[٣]، ومما هو ملاحظ أن هذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة منها، وقد اجتمعا في العظم إلا أن الجبال أعظم «والفائدة من ذلك البيان عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون في الماء»[٤]. وقد بين السيوطي بأن الجامع بين الجوار والجبال (العِظم)، فتضمن الكلام نبأ عظيماً من الفخر وتعداد النعم[٥] ونلاحظ أن أثر كلمة (الأعلام) عند وصف السفن وسر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معان

تتداعى هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة، وكان ذكر الأعلام محضراً إلى النفس هذا المعنى، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، وكان آثاره هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً وفي كلمة (الأعلام) وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء[٦]، فالجو النفسي المسيطر في هذا التشبيه إنما هو الإشارة إلى قدرة الله جل وعلا من آياته لذلك اختار لفظ (الأعلام) دون (الجبال). لوجود معنى مشترك بينهما هو الشخوص والوضوح[٧].

نخلص من ذلك إلى أن السياق يشير إلى أن تعظيم الجبال في نظر الفرد،

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ٢٢.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٩ / ١٠٤.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٦٩٨.

(٤) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٨٥ و١٧٣.

(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٣ / ١٤٦.

(٦) ينظر: بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، فتحي أحمد عامر: ٣٢٠-٣٢١.

(٧) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن، عدنان مهيدي سلطان: ٤١.

مع عظمة السفن وهي تمخر البحار، تحيلنا إلى البارئ الذي أبدع هذه المعظمات لدينا، وأن سبب اختيار لفظ الأعلام دون الجبال لأنه يبعث في النفس الأنس، وهو ما يحتاج إليه السائر في البحر[١]، فالأعلام كانت بمثابة أداة هداية ودليل للباحث والضال وعلامة يستدل بها

١ - ٩: الأغلال

للجذر (غلّ) أصل صحيح يدل على تَخلل الشيء وثبات الشيء. كالشيء يُعرَز، من ذلك قول العرب: غَلَلْتُ الشيء في الشّيء إذا أثبتُّهُ فيه، كأنه عرَّزْتُه[٢]، قال امرؤ القيس:

وعَــيْن لهــا حَــذْرةٌ بــدرَةٌ   إلى حاجــبٍ غُــلّ فــيه الشُّفُرْ[٣]

والغُلُّ: «جامعة يُشَدُّ في العنق واليد»[٤] وفي قول لعمر بن الخطاب (ﷺ): «النساء ثلاثة: ثالثة امرأة غُل قمل يجعلها الله في عنق من يشاء ولا ينزعها غيره»[٥].

وقد كان العرب إذا أسَرُوا أسيراً غلّوهُ بالقِدِّ فربما قَمِلَ في عنقه[٦]، وقيل أيضاً «هو شيء من حديدٌ يعذب به الإنسان لاستخراج مال أو الإقرار بأمر»[٧]، ويقال: الغُلُّ: العطش وهو الغُلّة[٨].

وعلى هذا، فالغُـلُّ مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه وجمعه

---

(١) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها، فضل حسن عباس: ٨٩.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٣٧٥-٣٧٦.

(٣) وعند مراجعتنا لديوان امرئ القيس وجدنا البيت الشعري قد ورد على الشكل الآتي:

وعَــين لهــا حَــدْرةٌ بَــدرَةٌ   شُــقّتْ مآقــيها مــن آخــرْ

ينظر: ديوان امرئ القيس: ١٦٦.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٣٧٦.

(٥) مصنف بن أبي شيبة: ٣ / ٥٥٩.

(٦) ينظر: العين: ٤ / ٣٤٨.

(٧) المخصص: ٣ / ٩٤.

(٨) إصلاح المنطق: ٣٣-٣٤.

أغلال، وغلّ فلان: قُيِّدَ بالغُلّ[١].

وقيل أيضاً: الأغلال واحدها غُلّو ولا يكون إلاّ في العنق[٢].

وقد وردت لفظة (الأغلال) في ستة مواضع من القرآن العظيم[٣] بوصفها أداة قيد تمنع من الفعل وتقطع الحركة في قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(الرعد: ٥) .

فقد أشار الرازي إلى أن ذكر لفظة (الأغلال) في قوله تعالى فيها قولان: (القول الأول) المراد بالأغلال كفرهم وذلتهم وانقيادهم للأصنام، ونظيره قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا ﴾ (يس: ٨) (والقول الثاني) المراد أنه تعالى يجعل الأغلال في أعناقهم يوم القيامة والدليل على قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ۝ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ۝ [٤]﴾ (غافر: ٧١-٧٢) وفي هذا الصدد يشير القرطبي أيضاً إلى معنى الأغلال بقوله «الأغلال جمع غلّ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق، أي يُغلون يوم القيامة، وقيل أيضاً الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم»[٥]. وكل هذه الأغلال هي من شأن الكافرين في الآخرة، وقيل: هو تمثيل لحالهم في الدنيا، من حيث آباؤهم الإيمان وعدم التفاتهم إلى الحق بحال من في أعناقهم أغلال فلا يستطيعون معها التفاتاً[٦]. وقد لمح الشعراوي أيضاً إلى أن لفظة الأغلال التي تقيد من طرف كل يد ومن طرف آخر مُعلّقة في الرقبة لتُقلل من مساحة حركة اليدين، كل هذا الإظهار المزيد من الإذلال والخنوع[٧].

على حين ذهب سيد قطب إلى أن لفظة الأغلال هنا تعني: «أغلال العقل

---

(١) ينظر: المفردات: ٥٤٤.

(٢) ينظر: مجاز القرآن: ١ / ٣٢٢.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٠٤.

(٤) مفاتيح الغيب: ١٩ / ١٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ١٨٧.

(٦) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٣١٩.

(٧) ينظر: الشعراوي: ١٢ / ٧٢١٧.

والقلب فالجزاء هو الأغلال في الأعناق تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق، والجزاء هو النار خالدين فيها»[1].

وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) نلاحظ أن الرازي أعطى دلالة ثانية للفظة الأغلال هنا حين قال: «المراد بالأغلال هنا الشدائد التي كانت في عبادتهم - أي عبادة بني إسرائيل - منها قطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم وقد جعل الله كل هذا أغلالاً»[2]، وقيل إن إطلاق الأغلال هنا على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه التكاليف الدينية الشاقة التي كانت على بني إسرائيل بالأغلال[3]. إلا أن الرازي قال: «إن التحريم يمنع من الفعل، كما أن الغل يمنع عن الفعل، وقيل: كانت بنو إسرائيل إذا قامت إلى الصلاة لبسوا المسوح. وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعاً لله تعالى، فعلى هذا القول، الأغلال غير مستعارة علماً أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار لا تكون مشروعة لأن كل ما كان ضرراً كان إصراً وغلاً»[4].

وعلى هذا فإن لفظة الأغلال في المصطلح القرآني كانت أداة منع وتغييب للكفرة الطغاة سواء كانت في الأعناق أم في الأيدي أم في الأرجل، أو بالأفعال والتكاليف الدينية الثقيلة الشاقة التي كانت على بني إسرائيل.

١ - ١٠: الأقفال

للجذر (قفل) أصلان صحيحان أحدهما يدلُّ على أوبةٍ من سفر، والآخر على صَلاَبةٍ وشِدَّةٍ في شيء، فالأول القُفول، وهو الرجوع من السَّفَر، ولا يقال للذاهبين قافلةٌ حتى يرجعوا، وأما الأصل الآخر فالقَفِيل وهو الخشب اليابس، ومنه القُفْل، سمي بذلك لأنَّ منه شدًّا وشِدّة، يقال أقفلتُ البابَ فهو مُقْفَل، أو يقال

(١) في ظلال القرآن: ١٣ / ٧٤.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٥ / ٢٧.

(٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٦١٧.

(٤) مفاتيح الغيب: ١٥ / ٢٧-٢٨.

للبخيل: هو مُقْفَل اليدين[١]، «والقُفل معروف، والقَفْل بالفتح ما يبس من الشجر والقَفيل مثله... وهو معرب»[٢]، وقد أشار ابن سيدة بقوله «والقُفْلُ - ما يغلق به الباب... ومغلاق الباب وغَلَقُه - الحديدة التي يُغْلَق بها»[٣]، ومن المجاز «فلان مُقفِل ومستقفل: ممسك وقد استقلت يداه وإنه لقفْلُ: عَسر وإنها لقفلة للمرأة البخيلة، والخيل تعلُك الأقفال: حدائد اللجام»[٤]. وقيل القُفْل: «جهاز من الحديد ونحوه يقفل به الباب ويفتح بالمفتاح»[٥].

وردت لفظة القفل بصيغة الجمع (أقفال) في موضع واحد من القرآن الكريم[٦] في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤) فالأقفال هنا أراد بها «أقفالا مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد»[٧]، وقد أوضح القرطبي ذلك أيضاً بقوله: «الأقفال هنا إشارة إلى ارتجاج القلب وخلّوه من الإيمان أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر، لأن الله تعالى طبع على قلوبهم. وقال (على قُلُوب)، لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها»[٨] «وهذه الأقفال مُطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه»[٩]. وقد قال ابن عاشور إن ورود لفظة الأقفال هنا (استعارة مكنية)، إذا شبهت القلوب أي العقول في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة، والأقفال تخييل كالأظفار للمنية[١٠]. وهذا ما أنشده أبو ذؤيب الهذلي حين قال:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١١٢.

(٢) الصحاح: ٥ / ١٨٠٣.

(٣) المخصص: ٣ / ٢٦-٢٧.

(٤) أساس البلاغة: ٥١٨.

(٥) المعجم الوسيط: ٢ / ٧٥٨.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٤٩.

(٧) مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٦٦.

(٨) الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ١٦٣.

(٩) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٢٥.

(١٠) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦ / ١١٤.

وإذا المَنِـيةُ أنـشَبَتْ أظفارهـا ألفـيتَ كـلَّ تمـيمةٍ لا تَـنفع[١]

وهو من باب الاستعارة. وقال أيضاً: إن تنكير (قلوب) للتنويع أو التبعيض، أي على نوع من القلوب أقفال والمعنى «بل بعض القلوب عليها أقفال»[٢] أي أن هذه القلوب قاسية لا تقبل التدّبر والتفكُّر في الآيات! والاستفهام للتقدير[٣]وعلى هذا المنحى ذهب الرازي بقوله: «القلب إذا كان عارفاً كان معروفاً لأن القلب خلق للمعرفة، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا سبع، ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر»[٤].

وقد أشار البيضاوي إلى أن هذه الأقفال التي أضيفت إلى القلوب للدلالة على إقفال مناسبة لها مختصة بها لا تجانس الأقفال المعهودة[٥] ومما هو مبين أن هناك كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية، إذ شبهت قلوب الكافرين بالأبواب المقفلة فلا يدخل إليها شيء من معاني القرآن الكريم[٦] وبناءً على ما تقدم، فإن القفل المصنوع من معدن الحديد والمعروف في العرف الاجتماعي يتحول من المعنى الظاهري في المصطلح الإلهي إلى معنى ضمني وهو القسوة والعناد والشدة في التمسك بالكفر وعدم تقبل التدبر والتفكر في آيات القرآن المعجز المبين، وإصرارهم وإعراضهم عن معجزة الله ألا وهو (القرآن الكريم) وكأن قلوبهم مثل الأبواب المقفلة لا يدخل إليها شيء من معاني القرآن الكريم.

---

(١) ديوان الهذليين: ٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦ / ١١٤.

(٣) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٦٤٧.

(٤) مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٦٥-٦٦.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٥ / ١٩٥.

(٦) ينظر: الكناية في القرآن، أحمد فتحي: ٢٣٠.

١ - ١١: الأكواب

للجذر (كوب) كلمة واحدة وهي القَدح لا عروة له، والجمع أكواب[١]، وقيل: «إنه كوز لا عروة له»[٢]، والكوبة: «الطبل الصغير المُخَصَّرُ»[٣]، ونقول لا يزال معه كُوب الخمر وكوبه القمِرْ وهي الفرد أو الشطرنج[٤]، والكُوْب: «بضم فسكون، كوز مستدير الرأس لا عروة له»[٥]، والكوب: «معرب عن كُوب»[٦].

وقد وردت اللفظة بصيغة الجمع (أكواب) في أربعة مواضع من القرآن الكريم[٧] وقيل: «إن الأكواب المذكورة في القرآن الكريم كلها هي الأواني التي تقدم فيها الأشربة لأهل الجنة، هذا من قبيل التمثيل إذ أنه لا يعلم أحد غير الله تعالى حقيقة هذه الأكواب ولا حقيقة ما يشرب فيها»[٨]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ ﴾ (الإنسان: ١٥) ومعنى الآية يطاف على هؤلاء المؤمنين الذين وصفهم الله بآنية من الفضة وأكواب وهو إناء الشرب. وقيل: الأكواب الأقداح أو قيل: هي صغار القوارير وهي فضة ولذلك قال (كانت قوارير)[٩]، وقيل أيضاً: «هي أقداح موضوعة على حافات العيون معدّة لشربهم لا تحتاج إلى من يملأها»[١٠].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٤٥.

(٢) العين: ٥ / ٤١٧.

(٣) الصحاح: ١ / ٢١٥.

(٤) ينظر: أساس البلاغة: ٥٥٣.

(٥) الآلة والأداة، ص ٣٠٦.

(٦) الألفاظ الفارسية المعربة، السيد أدى شير: ١٣٩.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٢٢.

(٨) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٥٢٩.

(٩) ينظر: التبيان: ١ / ٤١٤.

(١٠) صفوة التفاسير: ٣ / ٥٥٣.

وكذلك اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾[١]، أي لهم في الجنة أطعمة وأشربه يطاف بها عليهم في صحاف من ذهب وأكواب... وقيل: الكوب هو المدور القصير العنق والقصير العروة.

وقيل أيضاً الكوب هنا هو «أصغر من الإبريق إلا أنه لا خرطوم له ولا عروة في الغالب وحذف وصف الأكواب لدلالة وصف صحاف عليه، أي وأكواب من ذهب وهذه الأكواب تكون للماء وتكون للخمر»[٢]. ومثيل اللفظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (الواقعة: ١٨) وقيل (من معين) هو وصفُ عامّ للأكواب، والأباريق والكأس باعتبار ما فيها، أي مملوءة من أنهر تجري في الجنة من ماء غير آسن وَلَبَن لم يتغير طعمُهُ، وخَمرٍ لذةٍ للشاربين، وعَسَلٍ مصَفًّى، وإذ كانت الكأسُ القَدَح المملوء خَمراً، فالأقداح إذاً والأباريق تبقى للماء واللَّبَن المصَفَّى[٣].

ويهذا يوحي السياق من ذكر لفظة (الأكواب) إلى دلالة واضحة لحالة التكريم والتشريف التي يحظى بها أهل الجنة، حينما تقدم لهم الأطعمة والأشربة بأدوات نفيسة ومن ضمن هذه الأدوات (الأكواب) التي لا مثيل لها، وفيها أنواع من الأشربة النفيسة أيضاً لذيذة للشاربين لا يعرف حقيقتها وحقيقة هذا الشراب اللذيذ غير الله... فكل هذا من قبيل التمثيل وجاءت اللفظة تقريباً إلى أذهاننا وتصويراً لعقولنا بأدوات مستخدمة في الدنيا، إلا أنها تختلف في حقيقتها لأنها من نصيب الكرماء من أهل الجنة لا يتشرف بها إلا من كان أهلاً لها.

١ - ١٢: الإمام

للجذر (أمّ) في اللغة أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب هي:

الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، وهذه الأربعة متقاربة وبعد ذلك

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ٧٤-٧٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٥ / ٢٥٥.

(٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٨ / ٤٤٩.

أصول ثلاث هي: القامة والحين والقصد[١]، وهي معان متقاربة والائتمام مصدر الأمة، وائتم بالإمام إمّة. وفلان أحق بأمة هذا المسجد، أي إمامته، ونقول الخليفة إمام الرعية والقرآن إمام المسلمين، والإمام الطريق[٢]، وتطلق أيضاً لفظة الإمام على خشبة البناء التي يسوى عليها البناء[٣]، وقد أشار ابن سيده إلى «أن كل من اقتدى به وقدم في الأمور فهو إمام»[٤]. ويقال «أم المكان يؤمه: قصده. وأمّ القوم: تقدمهم وكان إماما متقدماً لهم ومنه الإمامة بمعنى الرياسة، وسمي الكتاب إماما في هذا المعنى»[٥].

إذاً الإمام على ذلك هو «المؤتم به إنسانا كأن يقتدى بقوله أو فعله أو كتاباً أو غير ذلك مُحقاً كان أم مبطلاً»[٦].

وقد وردت اللفظة في أحد عشر موضعاً من القرآن الكريم إفرادا وجمعاً[٧]، وبدلالات مختلفة ومتنوعة أوحى تحليل اللفظة في القرآن الكريم بوجوده منها:

الوجه الأول: بمعنى قائد في الخير في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة: ١٢٤) .

الوجه الثاني: بمعنى كتاب أعمال بني آدم في قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ (الإسراء: ٧١) .

الوجه الثالث: بمعنى اللوح المحفوظ في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس: ١٢) .

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٢١، الكليات، الكفوي: ١ / ١٧٦.

(٢) ينظر: العين: ٨ / ٤٢٨- ٤٢٩.

(٣) ينظر: الصحاح: ٥ / ١٨٦٥.

(٤) المخصص: ١ / ١٣٤، السفر الثالث.

(٥) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٤٦.

(٦) المفردات: ٢٨.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٨٠.

الوجه الرابع: بمعنى التوراة في قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾(الأحقاف: ١٢) .

الوجه الخامس: بمعنى الطريق في قوله تعالى: ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ[١]﴾ (الحجر: ٧٩).

ونلاحظ أن لفظة إمام تحتمل أكثر من استخدام وظيفي، فوجوه الكلمة يمكن أن يكشف عنها السياق فبقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ (الإسراء: ٧١) قد استعير الإمام للفظ (الكتاب) الذي هو آلة حفظ العلم واحتوائه كالوعاء الذي يحفظ الطعام والشراب، وهذا ما ذهب إليه القرطبي بأن قوله تعالى: (بإمامهم) أي بكتابهم أي بكتاب كل إنسان منهم الذي فيه عمله، دليله ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾... بالكتاب المنزل عليهم، أي يُدعَى كل إنسان بكتابه الذي كان يتلوه، فيدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل القرآن بالقرآن،... وقيل أيضاً (بإمامهم) أي نبيهم، والإمام من يؤتم به فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم (ﷺ) وهاتوا متبعي موسى (ﷺ)، فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم[٢]، وقد أوضح سيد قطب بأن كل أمة تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الآخرة[٣]، «ثم يفصّل هذا الإجمال، فتتنادى كل جماعة بمن بلغّهم وهداهم ودلّهم ليعزى الناس بنقل الفضل العلمي في أنفسهم إلى غيرهم»[٤]، ومما يقوي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٧١) ويقويه أيضا قوله كما ذكرنا ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس: ١٢) فوصف الكتاب بإمام لكونه سبباً في نفع المتبعين لما تضمنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة[٥]، وعلى هذا كان بالإمكان عقد علاقات دلالية

---

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكبير، هارون بن موسى القارئ: ٦٣.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠ / ١٩٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ١٥ / ٣٤٧.

(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي: ١٤/ ٨٦٨٢.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢ / ٣٥٦ - ٣٥٧.

متفاعلة بين بعض وجوه (الإمام) التي ذكرناها وهي الطريق والكتاب والقائد.

(القدوة)، على الرغم من أنها دلالات مختلفة، فإن ثمة علاقة رابطة بينها وهي القصدُ. فالطريق هو قائد يقتدى به والكتاب هو قائد يقتدى به[١]. وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (الأحقاف: ١٢) ومن قبله - أي القرآن - «الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب التي قبله، وبخاصة كتاب موسى باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له، وأصل التشريع والعقيدة في التوراة، ومن ثم سمى كتاب موسى (إماماً) ووصفه بأنه رحمة، وكل رسالة من السماء رحمة للأرض ومن في الأرض بكل معاني الرحمة في الدنيا والآخرة»[٢].

هكذا نرى أن السياق القرآني يظهر الكلمة - إمام - في الآيات القرآنية المذكورة آنفاً بوصفها آلة وأداة تحفظ فيها أقوالنا وعلمنا ومعرفتنا من طرف، ومن طرف آخر تمثل القوى المطلقة التي تحكمنا جميعاً متمثلة بالكتب السماوية المنزلة من الله على أنبيائه المرسلين.

١ - ١٣: الآنية

للجذر (أنى) في اللغة أصول أربعة البُطء وما أشبهه من الحلم وغيره، وساعة من الزمان، وإدراك الشيء، وظرف من الظروف[٣].

«والإناء: معروف (وهو واحد الآنية) وآناء الله: ساعاته والإناء التأخير»[٤]، وقد أشار الراغب الأصفهاني بقوله: أي آن الشيء: «قرب أناه. وحميم آنٍ أي بلغ أناه من شدة الحر، ومنه قوله تعالى: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ ﴾[٥] (الغاشية: ٥) .

وقيل أيضا: الإناء هو «الوعاء للطعام والشراب (جمع) آنية وجمع الجمع

(١) ينظر: أسماء الأنبياء وصفاتهم في القرآن الكريم، صالح مطر اللويزي، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية التربية في جامعة الموصل: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١: ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٦ / ٤١٠ - ٤١١.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ١٤١، العين: ٨ / ٤٠٠ - ٤٠٢.

(٤) مجمل اللغة: ١ / ٢٠٩.

(٥) المفردات: ١ / ٣٥ وينظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٤٩.

[أوانٍ]»[١] ويقال: «أنى الشيء يأتي أنيا وأنىً وهو آنيٌ. أي حان وأدرك وجاء في التنزيل العزيز: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ﴾(الحديد: ١٦) وهو من أنى يأني»[٢].

وقد وردت اللفظة - آنية - في موضعين من القرآن الكريم[٣] وبدلالة مختلفة فاستعمالها في قوله تعالى: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ ﴾ (الغاشية: ٥) بمعنى «من عين حارة»[٤]. أما استعمالها في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ (الإنسان: ١٥) فالآنية هنا هي آنية الجنة يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها وشرف جوهرها[٥]. وهذا يعني أن الأبرار في الجنة يكرمون بأن يدور الخدم حولهم إذا أرادوا الشراب (بآنية من فضة) وقيل: إنه ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، أي ما في الجنة أشرف وأغلى وأنقى[٦].

ويشير السياق القرآني من وراء ذكر لفظة الآنية، إلى دلالة ضمنية بمعنى الزيادة في المتاع والجمال لأهل الجنة بحيث يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة لكنها شفة كالقوارير، مما لم تعهده الأرض وهي بأحجام مقدرة تقديراً يحقق السعادة ... وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه لا يفعل فيهم الزمن، ولا تدركهم السن[٧].

فالإناء بمعناه العام يكتسي صفة واحدة تتنوع أشكالها حسب المرادات البشرية، لكن الآنية في السياق القرآني تعد لفتة إلى حالة تكريمية من الله سبحانه وتعالى في إطعام وسقاية عباده المؤمنين وسقيهم بآنية لا يحلم بها إنسان من جمالها ووصفها، فهذه الآنية ستكون في متناول العبد المؤمن ساعة يشاء شريطة سلوكه الدنيوي الذي يجعله يحظى بهذا التكريم الإلهي.

---

(١) ينظر: الآلة والأداة: ١٩.

(٢) معجم الجاحظ، إبراهيم السامرائي (مطابع كويت تايمز، د / م: ١٩٨٢م): ٢٧-٢٨.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٩٥.

(٤) معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٦٥.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٠ / ٢٤٩.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ٩١.

(٧) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٢٩٩.

١ - ١٤: الأوتاد

الواو والتاء والدال «كلمة واحدة وهي الوَتد يقال: وَتَدهُ وتِد وتدَكَ ويقال وَتْد أيضا»[1]، والوَتِدُ «معروف، وجمعه أوتاد ونقول «تِدْ يافلان وَتْداً»[2]. وقيل: «وتد وَوَتَدٌ وَوَدٌّ والجمع أوتادٌ، وقيل وَتَدْت الوَتِد، وَتْداً وتِدَةً»، وكذلك قيل: «أوتَدْتُ ووَتَدَ هو وَتْداً وَتِدَةَ ووَتَّدَ - ثبت -»[3]، ومن المجاز: «وَتَدَ الله الأرض بالجبال واوتدها ووتدها، والجبال أوتاد الأرض»[4]، والوتدُ والوَدُّ: «ما رُزَّ في الحائط أو الأرض من الخشب والجمع أوتاد... والأوتاد في الشعر على ضربين: احدهما حرفان متحركان والثالث ساكن نحو (فعولن وهذا الذي يسميه العروضيون المقرون لأن الحركة قد قرنت الحرفين، والآخر ثلاثة أحرف متحرك ثم ساكن ثم متحرك، وأوتاد البلاد: رؤساؤها، وأوتاد الفم: أسنانه على التشبيه»[5]، والوتد أيضاً يطلق على قطعة من خشب أو حديد تثبت في الأرض، أو الجدار يشدُّ بها حبل هو زمام الدابة أو طُنُب الخيمة ونحو ذلك والجمع أوتاد[6].

وقد وردت اللفظة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وبصيغة الجمع[7]، منها قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ (ص: ١٢) وقد ذكر أن قوله تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ تعني أوتاداً كانت لفرعون يُعذّبُ بها الرجل فيمُدُّه بين أربعةٍ منها حتى الموت[8]. وقد ذهب سيد قطب في تفسيره للفظة الأوتاد في الآية الكريمة ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ بقوله: «إن هذه أمثلة ممن سبقوا قريشاً في التاريخ - قوم نوح (عليه السلام) وعاد وفرعون صاحب الأهرام التي تقوم

---

(١) مقاييس اللغة: ٦ / ٨٣.

(٢) العين: ٨ / ٥٥.

(٣) المخصص: ٣ / ١٩، (السفر الحادي عشر).

(٤) أساس البلاغة: ٦١٤.

(٥) لسان العرب: ٣/ ٤٤٤-٤٤٥، مادة (وتد).

(٦) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٨١٨.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٧٤١.

(٨) ينظر: تفسير غريب القرآن: ٣٧٧.

في الأرض كالأوتاد وثمود وقوم لوط (ﷺ) وقوم شعيب (ﷺ) أصحاب الأيكة - الغابة الملتفة - (أولئك الأحزاب)!! الذين كذبوا الرسل»[1]، وقيل أيضا: أي ذو البناء المحكم، ... والبنيان يسمى أوتادا، وقيل: إنه كانت له أوتاد وملاعب يلعب عليها. وقيل: كان يعذّب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت[2]وقد ذهب الصابوني أيضا إلى أن معنى فرعون ذو الأوتاد تعني، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه[3]، ومنهم من ذهب إلى أن ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾، قد تكون تلك إشارات إلى المباني أو الجنود كلها بمثابة الأوتاد التي تقوّي البيت وتثبته[4]، وقيل: «وقد كان للفراعنة اهتمام ببناء الأهرامات التي تشبه الجبال في ارتفاعها، وقد يكون التعبير كناية عن قوته وتمكُّنه في سلطانه، وجاء هنا ذكر (فرعون) دون ذكر قومه، إشارة إلى أنه استخف قَوْمَهُ فأطاعوه فكان هو كل قومه، فلا أمرَ إلا أفرَدَهُ ولا رأيَ إلا رأيُه»[5]، واللفظ أيضاً في (الفجر: الآية ١٠)، وكذلك فقد ورد اللفظ في موضع ثالث من القرآن الكريم في سورة النبأ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ ﴾ (٦-٧) أي جعلنا الجبال كالأوتاد للأرض شبهها أي شبه الجبال الأوتاد تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد[6]. فأداة الأوتاد كما بانت لنا من تحليل المفسرين أنها تشير إلى قوة وثبات أو قد تأتي إلى ما يُقوى به البنيان لكنها قد تتحول من هذا الدور الواهن إلى دور أكثر صلابة يحقق الموازنة، كما في الجبال التي جُعلت لتحقق الثبات للكرة الأرضية.

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٣ / ٩٠.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ١٠٢.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٥٥٧.

(٤) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٥٧٦.

(٥) معارج التفكر ودقائق التدبر: ١ / ٥٢٨.

(٦) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٥٠٧.

٢. حرف الباء

٢ - ١: الباب - الأبواب

للجذر (بوب) أصل واحد وهو قولك تبوبنا بواباً، أي اتخذت بَوّاباً. والباب أصل ألفه واو، فانقلبت ألفا[١]. «والباب معروف والفعل منه التبويب»[٢]. والباب أيضاً يعني «مدخل المكان والجمع أبواب»[٣]. وقد قال الجوهري «أبوبة للازدواج، وأبوبة مبوبة، كما يقال أصناف مصنفة، وهذا شيء من بابتك: أي يصلح لك»[٤].

فالباب على هذا هو مدخل البيت وما يُسدّ به المدخل من خشب ونحوه، ومن الكتاب يعني: القسم يجمع مسائل من جنس واحد يقال هذا من باب كذا: من قبيله (وجمعه) أبواب وبيبان[٥].

وتحليل الباب في القرآن الكريم على سبعة وجوه هي:

الـــوجه الأول: الباب بمعنى المنزل في قوله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ (الحجر: ٤٤).

الـــوجه الثاني: الباب بمعنى السكة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ (يوسف: ٦٧).

الـــوجه الـــثالث: الباب بعينه في قوله تعالى: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝ ﴾ (ص: ٥٠) مثلها في قوله تعالى: ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ (البقرة: ٥٨).

الوجه الرابع: الباب بمعنى الدرب في قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ (المائدة: ٢٣).

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٣١٤.

(٢) العين: ٨ / ٤١٥ وينظر: مجمل اللغة ١ / ٣٠١، لسان العرب: ١ / ٢٢٣-٢٢٤ مادة (بوب).

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ١ / ٨٣.

(٤) الصحاح ١ / ٩٠.

(٥) ينظر: المعجم الوسيط: ١ / ٧٥.

الــوجه الخــامس: الباب بمعنى مستفتح الأمر في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (المؤمنون: ٧٧) ومثلها في قوله تعالى: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ٤٤) .

الــوجه السادس: الباب بمعنى المدخل والمخرج في قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ (البقرة: ١٨٩) .

الــوجه السابع: الباب بمعنى الطريق في قوله تعالى: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأعراف: ٤٠) يعني طرق السماء ومثلها في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ [١]﴾ (الحجر: ١٤) وبهذا يظهر أن الباب يستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره كما ذكر، وأكثر ما ورد في القرآن بالمعنى الحقيقي[٢].

وقد وردت لفظة - الباب - في سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم وبصيغة المفرد والجمع[٣]، وبدلالات متنوعة في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ (يوسف: ٢٥) فذكر الباب هنا كان أداة إنقاذ وخلاص سيدنا يوسف (عليه السلام)، مما هو فيه وتصوير المشهد في محاولة هروب يوسف (عليه السلام) والخروج من الباب، والمرأة تعدو خلفه لتجذبه إلى نفسها، والاستباق طلب السبق إلى الشيء، ومعناه تبادرا إلى الباب يجتهد كل منهما أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف فتح الباب وخرج، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج، علماً أن يوسف (عليه السلام) سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه، فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدّته، أي قطعته طولاً»[٤]. ونتيجة جذبها لسيدنا يوسف (عليه السلام) لترده عن الباب عندئذ تقع المفاجأة بقوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ ﴾ (يوسف: ٢٥) .

---

(١) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٨ / ٢٨١.

(٢) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ١ / ١٣٩.١٤٠.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٣٩-١٤٠.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨ / ١٢٤.

«فهذا المشهد يستهل القرآن الكريم وقائعه بالفعل (استبق) مسنداً إلى المرأة وإلى يوسف (ﷺ) معاً فإذا كلاهما يتبادران ويتسابقان إلى الباب فيبدوان في صورة صراع مرير تتبين غاية كل واحد منهما في صورة بديلة لأزمة رسمتها عبارة (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ...) (يوسف: ٢٥) فتجسد لنا هذه الصورة يوسف (ﷺ) ينفر منها مسرعاً يريد الباب ليخرج وهي تعدو الخطا وراءه لتلحق به إصرارا على ارتكاب الجريمة»[١].

هكذا أوحى السياق القرآني للفظة بأن الباب هنا كان أداة مادية بالنسبة ليوسف (ﷺ) ومفتاح براءة فتح مغاليق الذي كان دائراً بينهما، فوضحت لفظة - الباب - بأنها أداة ثابتة أرادها يوسف (ﷺ) للهرب، وأرادتها زوج العزيز للطلب، ومثيل اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ ﴾ (يوسف: ٢٣) إذاً هذه كانت دعوة سافرة من لدن المرأة إلى الفعل الأخير وحركة تغليق الأبواب، كانت لغاية في نفس المرأة لتظهر شغف محبتها وتعلقها بيوسف (ﷺ)[٢].

وكذلك وردت اللفظة في قوله تعالى: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ (البقرة: ٥٨) وقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝ ﴾ (ص: ٥٠) على الرغم من دلالة الباب المادية الحسية، إلا أنه لم يكن هنا دليل براءة كما كان في سورة يوسف (ﷺ)، بل كان بمعنى الدخول والولوج من باب التمثيل، ففي قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ (البقرة: ١٨٩) يكشف لنا السياق القرآني للفظة معنىً بعيداً غير المعنى القريب للباب كونه مدخلاً للبيت، وذلك «أن أهل الجاهلية - إلا قريشاً ومن ولدته قريش من العرب - كان الرجل منهم إذا أحرم في غير أشهر الحج في بيت مدرٍ أو شعر أو خباء نقب في بيته نقباً من مؤخره فخرج منه ودخل ولم يخرج من الباب، وإن كان من أهل الأخبية والفساطيط خرج من مُؤخَّره ودخل منه»[٣]، نستشف دلالة اللفظة - الباب - من خلال سياقها في القرآن الكريم أن هذا

---

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل محمد البصير: ٣٧١.

(٢) ينظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن، أحمد فائز الحمصي: ٢ / ٢٢٤.

(٣) معاني القرآن: ١ / ١١٥-١١٦.

من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم كمثل من يترك باباً، ويدخل من ظهر البيت، فالباب هنا يعني وجوه الأمور في قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ (البقرة: ١٨٩) أي باشروا الأمور من جوهرها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا[١]. «وبهذا ربط الله تعالى القلوب بحقيقة إيمانية أصيلة هي التقوى، وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق في الدنيا والآخرة، وأبطل هذه العادة الجاهلية الفارغة من الرصيد الإيماني»[٢]. ومن خلال ما تقدم يظهر لنا تعدد دلالة لفظة - الباب - في القرآن الكريم كما ذكرنا آنفا لحكمة وغاية أرادها الله من وراء ذلك، فكان الباب أداة عالج بها قضايا وأموراً اقتضتها القدرة الإلهية، فضلاً عن وظيفته الرئيسة كونه مدخلاً للبيت.

٢ - ٢: البساط

للجذر (بسط) أصل واحد وهو امتداد الشيء في عرضه، فالبساط ما يبسط والبساط الأرض، وهي البسيطة يقال مكان بسيط وبساط[٣]. وقد أشار الفراهيدي إلى ذلك بقوله: «والبَسْط نقيض القبض والبسيطة في الأرض كالبساط في المتاع وجمعه بسط»[٤]، ومنه الانبساط: «ترك الاحتشام يقال: بسطت من فلان فانبسط... والبسط بكسر الباء: الناقة التي تخلى مع ولدها لا يمنع منها»[٥]، وقد ذهب الرصافي إلى أن البساط: «ضربٌ من الطنافس، طويل قليل العرض، جمعه بسط، والعامة اليوم تطلقه على كلمة نسيج من صوف يبسط على الأرض»[٦].

وتحليل لفظة (بسط) في التنزيل العزيز على ستة أوجه منها:

الوجه الأول: البسط الضرب في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟

---

(١) ينظر: مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، أحمد جمال العمري: ٣٠٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٢ / ٢٦٤.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٢٤٧.

(٤) العين: ٧ / ٢١٧-٢١٨.

(٥) الصحاح: ٣ / ١١١٦.

(٦) الآلة والأداة: ٣٤.

أَيْدِيهِمْ ﴾ (الأنعام: ٩٣) ضاربو أيديهم إلى أرواح الكفار، واللفظ بنفس المعنى في سورة الممتحنة الآية الثانية كذلك.

الوجه الثاني: البسط بمعنى السعة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ ﴾ (الشورى: ٢٧) أي وسع ومثلها في سورة الرعد الآية (٢٦) وسورة البقرة الآية (٢٤٥) وسورة العنكبوت الآية (٦٢).

الوجه الثالث: البسط بمعنى الفتح في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (الإسراء: ٢٩) أي لا تفتح يدك كل الفتح وكذلك في سورة المائدة الآية (١١).

الوجه الرابع: البسط بمعنى المهد والفرش في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ ﴾ (نوح: ١٩)أي فراشاً ومهداً[1].

وردت لفظة البساط في موضع واحد من القرآن الكريم[2] في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ ﴾ (نوح: ١٩) فقد قال الطوسي مفسراً للآية الكريمة: إن الأرض جُعِلتْ مبسوطة يمكنكم المشي عليها والاستقرار فيها وبين أنه إنما جعلها كذلك لتسلكوا فيها سبلاً مختلفة[3]. ويفهم من السياق القرآني للفظة بأن الله جعل الأرض فراشاً ومهداً، وقيل «وكل شيء في القرآن بساطاً» يعني فراشاً[4].

وكذلك يلاحظ من سياق الآية «أن نوحاً وجه قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم، وهذا ما نلمحه في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ ﴾ وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة ولا

---

(١) قاموس القرآن أو صلاح الوجوه والنظائر: ٦٩.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١١٩.

(٣) ينظر: التبيان: ١٠ / ١٣٨.

(٤) قاموس القرآن أو صلاح الوجوه والنظائر: ٦٩.

يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح (ﷺ) وإنذاره، فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروباً ومخارجاً، كما جعل في سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ويبتغون من فضل الله، ويتعايشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق»[١].

هكذا نلاحظ بأن لفظة - البساط - في العرف الاجتماعي تعني فراش يبسط على الأرض، ويتخذ وسيلة وأداة للراحة والاستقرار، فإن الله تعالى مثّل هذه أداة بإطلاقها على الأرض ليقربها إلى أذهان البشر وتصورهم بأنه جعل الأرض كالفراش الذي يبسط للارتياح، ودلّ بذلك على حالة السعي المتواصل لتحقيق المقاصد البشرية خدمة للجميع من جهة، ومن جهة أخرى فإن نوحاً (ﷺ) عرض حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السماوات والأرض[٢].

وبهذا يتبين أن الأرض جُعلت كالبساط الذي هو أداة للارتياح والانبساط والاستقرار، فهي مبسوطة ممهدة لجميع خلق الله، يعيشون عليها كما يريدون باستقرار وسلام لا اضطراب فيه.

---

(١) قصص الرحمن في ظلال القرآن: ١ / ٦٣٢.

(٢) ينظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن: ١ / ٦٣٣.

٣. حرف التاء

٣ - ١: التابوت

(تبت): التابوت: فيما بيننا معروف، ﴿ أن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٨) قيل: كان شيئاً منحوتاً من الخشب فيه حكمة، وقيل: عبارة عن القلب والسكينة، وبما فيه من العلم وسمي القلب: سفط العلم، وبيت الحكمة وتابوته، ووعاؤه وصندوقه، وعلى هذا قيل: اجعل سرك في وعاء غير سرب، وعلى تسميته بالتابوت قال عمر لابن مسعود (رضي الله عنهما) «كنيْفٌ ملئ علماً»[1]، وقيل أيضاً: «التابوت الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما، تشبيهاً بالصندوق الذي يحرزُ فيه المتاع أي أنه مكتوب موضوع في الصندوق»[2].

«وقولهم ما أودعت تابوتي شيئاً ففقدتُه، أي ما أودعت صدري علماً فعَدِمْتُه»[3]. وقيل أيضا: «التابوت والتابوه والتَّبوتُ لغة فيه صندوق من خشب معروف الأضلاع»[4]، ومنه تابوت الميت «للصندوق الذي تجعل فيه جثته»[5]، والتابوت أيضاً «من الناعورة: علبة من خشب أو حديد تَغْرف الماء من البئر جمعه توابيت (مصرية قديمة)[6]، وتحليل لفظة التابوت في القرآن الكريم على وجهين:

الوجه الأول: التابوت بمعنى الصندوق الذي وضع فيه موسى في قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (طه: ٣٩) .

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٩٥.

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٧ مادة (تبت).

(٣) أساس البلاغة: ٥٩.

(٤) معجم متن اللغة، أحمد رضا: ١ / ٣٨٤.

(٥) الآلة والأداة: ٤٧ وينظر: معجم ألفاظ القرآن: ١ / ١٥١.

(٦) معجم لغة العرب: ١ / ١٣٣.

الوجه الثاني: التابوت الذي فيه السكينة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[1](البقرة: ٢٤٨) وتفاصيل قصة التابوت طويلة في كتب التفاسير وقد اختلفت في هيئته أقوال العلماء، وقد وردت لفظة (التابوت) في موضعين من القرآن الكريم[2]، ففي قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ ﴾ (طه: ٣٩) «لما أخبر الله تعالى موسى بأنه قد أتاه ما طلبه وأعطاه سؤله عدد ما تقدم ذلك من نعمة ومننه لديه فقال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ (طه: ٣٧) والمن نعمة يقطع بها صاحبها عن غيره باختصاصها به، وقوله تعالى ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ﴾ (طه: ٣٨) أي كانت هذه النعمة عليك حين أوحينا إلى أمك ما يوحى، قال قوم: أراد أنه ألهمها ذلك»[3]، «فإن قلت: إن المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل، قلت ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى (عليه السلام) في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن...، وروي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم»[4]. وقد أشار سيد قطب واصفاً قوله تعالى بقوله: «نرى هذا المشهد الذي يتمثل بحركات كلها عنف وخشونة، قذف في التابوت بالطفل وقذف في اليم التابوت، وإلقاء التابوت على الساحل... ثم ماذا؟... وفي زحمة هذه المخاوف كلها... تبرز القدرة القادرة التي تجعل المحبة الهنيئة اللينة درعاً تتكسر عليه الضربات وتتحطم عليه الأمواج وتعجز قوى الشر والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء»[5].

والوجه الآخر في سياق الآية القرآنية: ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ

---

(١) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٨٥.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٤٩.

(٣) التبيان: ٧ /١٥٢-١٥٣.

(٤) الكشاف للزمخشري: ٣ / ٦٣.

(٥) في ظلال القرآن: ١٦ / ٤٧٢.

ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٤٨) وقيل في معنى الآية «أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ﴾ أي يردّ الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم، وهو كما قال الزمخشري: صندوق التوراة الذي كان موسى (ﷺ)، إذا قاتل قدّمه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٨) أي في التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى (ﷺ) وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة، قال ابن عباس (ﷺ): جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون... إن في نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر»[1]، إلا أن سيد قطب علق بقوله: «إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت إن كنتم حقاً مؤمنين، ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت فانتهى القوم منها إلى يقين»[2].

ومما هو معروف في عرفنا الاجتماعي أن (التابوت) يعد أداة تشير إلى الموت وعلاماته، ولكن الله جلا وعلا في كتابه العزيز جعله إحدى الأدوات المادية التي استخدمت في إنقاذ نبيه موسى (ﷺ) الذي بشر بالدعوة الإسلامية القادمة، وكذلك كانت أداة استخدمت في بذر الطمأنينة في نفوس أتباع النبيين، ففي الوقت الذي ينتج عن دلالته المادية معنى للموت يكون معنى لاستمرار الحياة في معناه الروحي.

٣ – ٢: التّنور

(تنر) «التنور عَمّت بكل لسان، وصاحبه تنار وجمعه تنانير»[3]، «والتنور

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير: ١ / ١٥٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٢ / ٣٩٢.

(٣) العين: ٨/ ١١٤.

معروف»[1]، وقد ذهب ابن دريد إلى أن التنور ليس بعربي صحيح ولم تعرف له العرب اسماً غير التنور، لذلك جاء في التنزيل (وفار التنور) لأنهم قد خوطبوا بما قد عرفوا[2]، وقيل أيضاً التنور: «الذي يخبز به وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ (المؤمنون: ٢٧) قال علي (ﷺ) هو وجه الأرض»[3]. والتنور أيضاً «ضرب من الكوانين يخبز به، وتتخذ غالباً أسطوانيا أجوف يضيق أعلاه عن أسفله؛ وجه الأرض كل مفجر الماء مَخفل الماء الوادي: أعلى الأرض وأشرفها»[4]. لقد وردت اللفظة - تنور - في موضعين من القرآن الكريم[5]، وبمعنى التمثيل لحضور العذاب، فكانت علامة من الله لنوح (ﷺ)، وبدءاً لنفاذ وبلوغ الأمر إلى أقصاه ومما يؤيد ذلك قوله تعالى في سياق الآية الكريمة: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ ﴾ (المؤمنون: ٢٧) فقد قال المفسرون «حيث جعل الله للنبي نوح (ﷺ) علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض ... وكما هو معروف أن التنور الموقد أو الفرن وانبجس منه الماء: فتلك هي العلامة ليسارع نوح فيحمل في السفينة بذور الحياة»[6]، إلا أن القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ (هود: ٤٠) أشار إلى أن المفسرين اختلفوا في التنور على سبعة وجوه:

الأول: إنه وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً، وقد قيل إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك.

الثاني: إنه تنور الخبز الذي يخبز فيه، وكان تنوراً من حجارة، وكان لحواء حتى صار لنوح فقيل له: إذا رأيت الماء يفور فاركب أنت وأصحابك وأنبع الله الماء

---

(١) مجمل اللغة: ١ / ٣٣٧.

(٢) ينظر: جمهرة اللغة، لابن دريد، تصحيح: ٢ / ٢١٤.

(٣) الصحاح: ٢ / ٦٠٢.

(٤) متن اللغة: ١ / ٤١٠-٤١١.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٥٦.

(٦) في ظلال القرآن: ١٨ / ٢٦.

من التنور فعلمت به امرأته فقالت: يا نوح فار الماء من التنور فقال: جاء وعد ربي حقاً.

الثالث: إنه موضع اجتماع الماء في السفينة

الرابع: إنه طلوع الفجر ونور الصبح، من قولهم نور الفجر تنويراً، قاله علي بن أبي طالب (ﷺ).

الخامس: إنه مسجد الكوفة، وقيل إن نوحاً اتخذ (ﷺ) السفينة في جوف المسجد وكان التنور على يمين الداخل مما يلي كنده، وكان فوران الماء منه علماً لنوح ودليلاً على هلاك قومه.

السادس: إنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة منها.

السابع: إنه العين التي بالجزيرة (عين الوردة). وقيل: إن هذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض قال: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ (القمر: ١١) فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة[١]، على الرغم من الوجوه السبعة التي تقدمت فإن ابن عاشور أكد هذه الوجوه في قوله: «إن المفسرين منهم من أبقى التنور على حقيقته فجعل الفوران خروج الماء من أحد التنانير وأنه علامة جعلها الله لنوح (ﷺ). إذا أفار الماء من تنوره علم أن ذلك مبدأ الطوفان فركب الفلك وأركب من معه، ومنهم من حمل التنور على المجاز المفرد ففسره بسطح الأرض، أي فار الماء من جميع الأرض حتى صار بسطح الأرض كفوهة التنور، ومنهم من حمل (فار) و(التنور) على الحقيقة، وأخرج الكلام مخرج التمثيل لاشتداد الحال. كما يقال: حمي الوطيس.. والذي يظهر لي أن قوله (وفار التنور) مثل لبلوغ الشيء إلى أقصى ما يتحمل مثله، كما يقال بلغ السيل الزُّبى»[٢]. وعلى الرغم من المعنى الاجتماعي الدارج لدينا - للتنور - الذي هو اسم لموقد النار للخبز، والذي يعد أداة فاعلة يمكن المعالجة بها. إلا أن السياق القرآني للفظة كان كناية واضحة عن دقة وعد الله سبحانه وتعالى

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ٢٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢ / ٧٠ - ٧١.

الذي لا يتوانى عن إهلاك الطغاة والمكذبين به وبرسله، ولأن الماء هو الذي يفور عندما صار فوران (التنور) ممزوجاً بقوة النار ودفق الماء دليلاً على تمثيل رهبة الموقف وشدة الحساب وعظمة الهلاك للطغاة المكذبين.

«ورغم كل ذلك فنحن لا نضرب في متاه في غير دليل، في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلا ما يقدمه لنا النص القرآني، وفي حدود مدلوله بلا زيادة، وأقصى ما نملك أن نقوله: إن فوران التنور - والتنور الموقد - قد يكون بعين فارت فيه أو بفورات بركانية، وإن هذا الفوران ربما كان علامة من الله لنوح (عليه السلام)، أو كان مصاحباً مجرد مصاحبة لمجيء الأمر، وبدءاً لنفاذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء وسح الوابل من السماء»[1].

(١) قصص الرحمن في ظلال القرآن: ١ / ٦٦٢.

٤. حرف الجيم

٤ - ١: الجارية - الجوارِ

للجذر (جرى) أصل واحد وهو انساح الشيء يقال جرى الماء يجري جَرْيةً وجَرْياً وجَرياناً. فأما السفينة فهي الجارية، وكذلك الشمس وهو القياس، والجارية من النساء من ذلك أيضاً، لأنها تُسْتَجْرى في الخدمة[١]، وقيل أيضاً الجري «المر السريع وأصله كمر الماء وما يجري يجريه»[٢]، وذكر أن الجارية مؤنث الجاري، والجارية تطلق على الصبية، والأمة، والشمس، والسفينة، والحية، والنعمة من الله، والجمع جاريات وجوار[٣].

وقد وردت اللفظة - الجارية - في ستة مواضع من القرآن الكريم إفراداً وجمعاً[٤] بدلالات مختلفة، تتحول ضمن السياق القرآني من موضع تدل على معنى الحركة في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ ﴾ (الغاشية: ١٢) أي بمعنى جري الماء إلى موضع آخر تدل فيه على معنى الكواكب السيارة في قوله تعالى: ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ ﴾ (التكوير: ١٦) «أي الكواكب التي تخنس، أي ترجع في دورتها الفلكية، وتجري وتختلف في كناسها وترجع من ناحية أخرى، وهذا إيحاء شعوري بالجمال في حركتها وفي اختفائها وفي ظهورها وتواريها»[٥]. وفي آيات أخرى تظهر بأنها - الجارية - آلة ووسيلة نقل تصارع موجات المياه لتحقيق النقل والتنقل وهي أجزاء من خشب هين بنظر الإنسان لكن فعله بقدرة البارئ عز وجل يشتد ليحقق معجزة الانتقال عبر المياه من مكان إلى مكان آخر متمثلاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ ﴾ (الرحمن: ٢٤) أي السفن في البحر

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٤٤٨.

(٢) المفردات: ١٢٩.

(٣) ينظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ١٠٦.

(٤) ينظر: معجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٦٨.

(٥) في ظلال القرآن: ٣٠/ ٤٨٢.

كالأعلام. الواحد جارية ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ ﴾ (الحاقة: ١١) يعني سفينة نوح (ﷺ) [١].

وقد ذهب سيد قطب إلى أن معنى الجوار في الآية تعني السفن التي تجري بقدرته ولا يحفظها في خضم البحر وثبج الموج إلا حفظه فهي له سبحانه، ولقد كانت وما تزال من أضخم النعم التي منَّ الله بها على العباد، والتي يسرت لهم أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ما هو جدير بأن يذكر ولا ينكر فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار[٢]. وقيل: «في جمع الجواري وتوحيد البحر وجمع الأعلام فائدة عظيمة، وهي أن ذلك إشارة إلى عظمة البحر، ولو قال في البحار لكانت كل جارية في بحر، فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال، وأما إذا كان البحر واحداً وفيه الجواري التي هي كالجبال يكون ذلك بحرا عظيما وساحله بعيدا فيكون الإنجاء بقدرة كاملة»[٣]، وعلى هذا أشار القرطبي إلى قوله تعالى ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ ﴾ (الرحمن: ٢٤) يعني السفن، وقيل: هي السفن التي رفع قلعها، قال: وإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشآت[٤]، «والإخبار عن الجواري بأنها له للتنبيه على أن إنشاء البحر للسفن لا يخرجها من ملك الله والجواري صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقا وهو قوله (في البحر) والتقدير: السفن الجواري إذ لا تجري في البحر غير السفن»[٥]. ومثيل اللفظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ ﴾ (الحاقة: ١١) وقد أشار البيضاوي في تفسيره لقوله ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ هي سفينة نوح (ﷺ) التي جعلت أداة في إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين

---

(١) القرآن الكريم وبهامشه كتاب نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، للإمام أبي بكر السجستاني: ٤٠٩.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٧ / ٦٨٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٩ / ١٠٥.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ١٠٧.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٥١.

وعبرة ودلالة على قدرة الصانع وحكمته وكمال قهره ورحمته في قوله تعالى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً [١]﴾ (الحاقة: ١٢) وهكذا يتصور لنا مشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغي وكلاهما يتناسق مع مشاهد الصورة وظلالها[٢].

وقد دل هذا الطغيان الذي يعني العلو على مبالغة في عظم الحال[٣].

وبعد كل هذا التصور للفظة - الجارية - التي هي آلة النقل والتنقل عبر البحار والمحيطات إلا أنها أصبحت في سياق الآيات القرآنية دالة على معجزة وقدرة الله تعالى في فعل سيرها وجريها السريع على الماء وحفظها لمن فيها من طغيان الماء وهيجانه وبهذا كانت أداة نجاة وإنقاذ.

٤ - ٢: الجذع - الجذوع

للجذر (جذع) ثلاثة أصول: أولها يدل على حدوث السن وطراوته، والأصل الثاني: جذع الشجر والثالث: الجَذْع: من قولك جَذَعت الشيء إذا دلكته... [٤]، «والجذع النخلة، وهو غصنها»[٥]، وجذع أيضاً: «اسم رجل»[٦]، وقد أشار الزمخشري في ذلك إلى أن جذع النخلة يعني ساقها، وبه سمّي سهم السقف جذعاً، ومن المجاز: فلان في هذا الأمر جَذَعٌ إذا أخذ فيه حديثاً[٧]، والجذع أيضاً «قبل الثني بسنة والأزلم الجذع الدهر»[٨].

وقد وردت لفظة - الجذع - في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم إفراداً

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله أبي عمر محمد البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفات (دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م): ٤ / ٣٧٩.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٢٥٢.

(٣) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٨٧.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٤٣٧.

(٥) العين: ١ / ٢٢١.

(٦) هو جذع بن سنان من الأنصار، وكان أعور. ينظر: الصحاح: ٣/١١٩٤.

(٧) ينظر: أساس البلاغة: ٨٦.

(٨) الفارابي اللغوي، د. أحمد مختار عمر: ٦٦.

وجمعاً[١]، ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ (مريم: ٢٣) فكان هذا الجذع أداة طلبتها (مريم) لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، فكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة[٢].

ويمضي السياق ليكمل القصة في قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ (مريم: ٢٥) وهكذا «وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقومات الحياة وعناصر استبقائها،... وكأنّه يريد أن يظهر لمريم آية أخرى من آياته، فأمرها أن تهزَّ جذع النخل اليابس الذي لا يستطيعَ هزّه الرجل القويّ. فما بالها وهي الضعيفة التي تعاني من الولادة ومشاقها؟ كما أن الحق سبحانه قادر على أن يُنزِل لها طعامها دون جهد منها ودون هَزها، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين: طلب الأسباب والاعتماد على المسبب والأخذ في الأسباب في هَز النخلة، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتثبت بها في وحدتها لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً. لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضعفها وعدم قدرتها، ثم تعتمد على المسبب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطَب مُستوياً ناضجاً، إنه مجرد إشارة إليه تدلّ على امتثال الأمر، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها»[٣].

إلا أن سيد قطب يذكر أن الله لم ينسَ مريم البتول ولم يتركها وجعل لها النخلة التي تستند إليها وطعاما حلواً مناسباً للنفساء وهو الرطب والتمر والذي كان لها اطمئناناً بأن الله تعالى لا يتركها لأن حجتها معها، الطفل الذي ينطق في المهد فيكشف عن الخارقة التي جاءت بها إليها[٤]، ويعلق سيد قطب أيضا على ذلك بقوله «مفاجأة عظمى تهزنا روعة وعجباً طفل ولد للحظة يناديها من تحتها ويمهد لها مصاعبها ويهيئ لها طعامها»[٥] وعلى هذا فالجذع أصبح لمريم

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٦٥.

(٢) ينظر: الكشاف: ٣ / ١١.

(٣) تفسير الشعراوي: ١٥ /٩٠٦٦، ٩٠٦٨.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ١٦ / ٤٣٣.

(٥) التصوير الفني في القرآن: ١٦٢.

أداة مساعدة وإنقاذ. إلا إنه يتحول في سياق آية أخرى إلى أداة من أدوات العذاب متمثلاً في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ (طه: ٧١) وإنما هو على جذوع النخل «شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل ﴿ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ وقول فرعون (لأصلبنكم في جذوع النخل ولم يقل (على) إشارة إلى طريقة مؤذية في ربط المؤمن بجذع الشجرة»[1] وكذلك قيل في ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أي: «ولاصلبنكم مثبتاً إياكم في جذوع النخل، والإيجاز هنا يَدْخُل فيما يُسمَّى بالتضمين»[2].

هكذا يوحي السياق القرآني للفظة الجذع - بأنها آية من آيات الله وأداة إنقاذ إلهية تمثلت في إعانة مريم العذراء ومساعدتها كما بُين في سياق السورة هذا في طرف، ومن طرف آخر يحولها السياق في آية أخرى كما وضح إلى أداة من أدوات التعذيب يتحمل مشاقها الإنسان المؤمن بغية الوصول إلى ما هو أقدس وأعظم من كل مباهج الدنيا.

٤ - ٣: الجفان

للجذر (جفن) أصل واحد وهو شيء يُطيف بشيء ويَحْويه، فالجَفْن جَفْن العين، والجَفْن جَفْن السيف. وجَفْن مكان وسمِّي الكرم جَفْناً لأنه يدور على ما يعلق به[3] «الجَفْنة التي للطعام وجمعها الجِفان، وجَفْنة أيضاً قبيلة من اليمن»[4] وقيل أيضاً «الجَفْنة كالقصعة والجمع الجِفان والجَفَنات بالتحريك، لأن ثاني فَعْلَةٍ يحرك في الجمع إذا كان اسماً إلا أن يكون ياءً أو واواً فيسكَّن حينئذٍ»[5] وقيل إن: «الجَفْنة تطلق على البئر الصغيرة»[6] «ومن المجاز: أنت الجَفْنة الغراء: للجواد

---

(١) الكشاف: ٣ / ٧٦.

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٨ / ٣٨٤.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٤٦٥.

(٤) العين: ٦ / ١٤٦.

(٥) الصحاح: ٥ / ٢٠٩٢.

(٦) مجمل اللغة: ١ / ٤٤٥.

المضياف»[١] وقد ذكر ابن منظور أن الجَفْنة تعني الخمرة[٢]وقيل أيضا: «إن أعظم آنية الطعام الجَفْنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المئكلة ثم الصحيفة»[٣] وقيل كذلك «كان لعبد الله بن جدعان جفنة يأكل منها القائم والراكب، وقد روى ذلك المدائني وذكر أنه وقع فيها صبي فغرق»[٤] ولعل هذا مبالغ فيه.

وقد وردت اللفظة - جِفَان - في موضع واحد من القرآن الكريم[٥] في قوله تعالى:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ (سبأ: ١٣)

والتشبيه الملحوظ في هذه الآية «تشبيه آلة الجِفَان وهي (القصاع التي يؤكل فيها) بالجوابي لسعتها وعمقها»[٦] لأن الجوابي تعني: «الحياض الكبار، وأن الماء يجبى فيها، أي: يجمع جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة»[٧] «وقديماً جرت عادة العرب وسار مألوفهم على تشبيه الجفان بالجوابي، وذلك للدلالة على كثرة الضيفان وكرم الوفادة ووفرة الخير للقاصد»[٨].

وقيل وصفاً للجفنة «بأنه كان يقعد على الجفنة ألف رجل وكانت ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها»[٩].

إذاً لتشبيه الجفان بالجوابي مدلولان:

وجفـنة كنَـضيح البئـر مـتأقة ... تـرى جوانـبها باللحم مفتوقاً[١٠]

<u>أولهما</u>: «السعة في الحجم والغزارة في المحتوى.

---

(١) أساس البلاغة: ٩٦.

(٢) ينظر: لسان العرب: ١٣ / ٩٠ مادة (جفن).

(٣) الآلة والأداة: ٦٩.

(٤) الجمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا البغدادي: ١٨٦.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٧٥.

(٦) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي: ٢٧٧.

(٧) الكشاف: ٣ / ٥٧٢.

(٨) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: ٢٧٧.

(٩) الكشاف: ٣ / ٥٧٣.

(١٠) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ١١ / ١٣٨.

وثانيهما: نفاسة المحتوى، وكونه أعز ما يتمناه البدوي (الدهن والشحم)، ولهذا وصفوا الجفنة بكونها غراء، وهي البيضاء لأنها مملوءة بالدهن الذي يلمع في الجفنة لمعان انعكاس صفحة الماء في الأحواض»[١]. وقد قال الرازي: «إن كلمة - الجفان - قدمت في الذكر على كلمة - القدور - مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل، والطبخ قبل الأكل، فنقول: لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط، الذي يمد في تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه. وأما القدور فلا تكون فيه، ولا تحضر هناك ولهذا قال (راسيات) أي غير منقولات، ثم لما بين حال الجفان العظيمة، كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان»[٢].

ونخلص من ذلك بأن السياق القرآني أشار إلى دلالة صريحة للفظة الجفان، بأنها ذكرت لتدل على عظمة السماط الذي يمد في تلك الدور تكريماً للأتقياء الكرماء الذين هم سادة الآخرة.

---

(١) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: ٢٧٧.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٥ / ٢٤٩ وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤ / ١٧٦.

٥. حرف الحاء

٥ - ١: الحُبْل - الحِبَال

للجذر (حبل) أصل واحد يدل على امتداد الشيء ثم يحمل عليه، ومَرجِع الفروع مرجع واحد، فالحبل هو الرَّسن المعروف، والجمع حبال، والحبل أيضا حبل العاتق، والحبل: قطعة من الرمل يستطيل، والمحمول عليه الحبل وهو العهد[١]. وقيل أيضاً: «الحبل موضع بالبصرة على شاطئ النّهر»[٢]، والحبل: «الأمان وأخذت بحبل من فلان أي عهداً وأمانا... وحبل الذراع معروف، وقيل إن الحبل موقف خيل الحَلْبة قبل أن تطلق... وبه سمي حبل البصرة وهو رأس ميدان زياد»[٣]، وكذلك فإن الحبل «يعني الرباط والجمع حبال، وحبل الله دينه وعهده وقرآنه»[٤]، وقد علق ابن سيده قائلاً: «ومن كلامهم جُعلت حُبُولهم على غواربهم»[٥]، وقيل: الحَبْل أيضاً الوصال، والحِبْل بالكسر الداهية وجَمعُها حُبُول[٦] «ومن المجاز: وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو على حبل ذراعك أي ممكن لك مستطاع، وكان بينهم حبال فقطعوها أي عهود ووَصلٌ، وإنه لواسع الحَبْل وضيق الحبل، يَعْنُون الخُلُق، وكل شيء صار في شيء فالصائر حبل للمصير فيه»[٧]. وأصل الحبل في كلام العرب «ينصرف على وجوه منها العهد وهو الأمان... ونقول فهذا حبل الجوار أي ما دام مجاوراً أرضه وهو من الإجارة والأمان والنصرة، ... والحبل في غير هذا المواصلة»[٨]، وقال امرؤ ألقيس:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ١٣٠-١٣١.

(٢) العين: ٣ / ٢٣٦.

(٣) جمهرة اللغة: ١ / ٢٢٨-٢٢٩.

(٤) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ /١٢٣.

(٥) المخصص: ٢ / ١٧٠، ١٧١ (السفر التاسع).

(٦) ينظر: إصلاح المنطق: ٥.

(٧) أساس البلاغة: ١١١.

(٨) لسان العرب: ١١/ ١٣٥، مادة (حبل).

إني بحبلك واصلٌ حَبْلي وبريش نَبْلِك رائش نَبْلي[١]

وهذان مثلان ضربهما للمودة والمواصلة. قال ابن منظور: «والعرب تشبه النور الممتد بالحَبْل والخَيط»[٢]، وقيل: «الحبل مصدر حبل وما فتل من ليف ونحوه ليربط به أو ليقاد به جمع حباله (على غير قياس)... »[٣]، واشتقاق (الحبال) إما من الحبل وهو العهد أو من الحبال المعروفة[٤].

وذُكر (الحبل) في القرآن الكريم على أربعة أوجه هي:

الأول: «الحبل يعني العهد[٥] في قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٢) .

الثاني: الحبل يعني القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣) قال ابن مسعود: حبل الله القرآن.

الثالث: الحبل الإسلام في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٢) وحبل الله في هذا الموضع الإسلام.

الرابع: الحبل الرَسَن في قوله تعالى: ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝ ﴾ (المسد: ٥) يعني رسناً من ليف»[٦].

وقد وردت لفظة (حبل) في سبعة مواضع من القرآن الكريم إفرادا وجمعاً[٧]، وبدلالات مختلفة في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣) وللرازي رأي في ذلك بقوله واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تنزلق رجله، فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق

---

(١) الديوان: ٣٣٩.

(٢) لسان العرب: ١١ / ١٣٧.

(٣) معجم لغة العرب: ١/ ٢٥٨.

(٤) ينظر: الاشتقاق، ابن دريد الازدي، : ١ / ٢٠٩.

(٥) حبل الله هو الإسلام كما في الوجه الثالث وحبل الناس هو العهد.

(٦) قاموس القرآن: ١١٥-١١٦.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٩٣.

أمن من الخوف، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق، وقد انزلق رجل الكثير من الخلق عنه، فمن اعتصم بدليل الله وبيناته فإنه يأمن من ذلك الخوف، فكان المراد من الحبل هاهنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين وهو أنواع كثيرة، فمنهم من قال: المراد بالحبل هاهنا العهد المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠) ... وإنما سمي العهد حبلاً لأنه يزيل عنه الخوف من الذهاب إلى أي موضع شاء، وكان كالحبل الذي من تمسك به زال عنه الخوف، وقيل إنه القرآن أيضاً ... وقيل أيضاً: إنه دين الله، وقيل: طاعة الله، وكل الأقوال متقاربة، والتحقيق ما ذكرنا أنه لما كان النازل في البئر يعتصم بحبل تحرزا من السقوط فيها، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته بجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه من السقوط في قعر جهنم جعل ذلك حبلاً لله، وأمروا بالاعتصام به[1].

عن أبي هريرة (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم ثلاثاً قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[2]. فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً[3].

إذاً الحبل يمثل هنا دين الله وكتابه، أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً، ولا تتفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلفت من قبلكم من اليهود والنصارى[4]، «وشبه استظهار العبد بالله ووثوقه بحمايته، والنجاة من المكاره باستمساك الواقع في

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٨ / ١٧٧-١٧٨.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ١٠٥. ورواية الحديث وردت بهذه الصيغة: أن الله تبارك وتعالى يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخطُ لكم قِيلَ وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال. ينظر: الموطأ، مالك بن أنس: ٨٤٢.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ١٠٥.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ١ / ٢١٩.

مهواة بحبل وثيق مدلى من مكان مرتفع يأمن انقطاعه»[١].

وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٢) «فالحبل هنا مستعار للعهد ... والمعنى لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد من الله، أي ذمة الإسلام، وإذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد»[٢]، ومثيل اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦) وهذا من المجاز، أما اللفظ في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه: ٦٦) أي «فألقوا فإذا تلك الحبال والعصيُّ التي ألقوها يتخيلها موسى (عليه السلام) ويظنها - من عظمة السحر - أنها حيات تتحرك وتسعى على بطونها، والتعبير يوحي بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب»[٣]. هكذا نرى أن السياق القرآني يفاجئنا بما فوجئ به موسى (عليه السلام) بحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى، والتعبير يشير بعظمة ذلك السحر حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى (عليه السلام)، وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه أن معه القوة الكبرى، فيبقى في ظل الطمأنينة والثبات للحق[٤]، ومثيل اللفظ في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الشعراء: ٤٤) أي فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي وقالوا عند الإلقاء نقسم بعظمة فرعون وسلطانه إنا نحن لغالبون لموسى[٥]، ولفظة (الحبال) في الآيتين السابقتين جمع للحبل الذي يشد به.

هكذا نرى أن موسى (عليه السلام) خُيل له أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى، وبهذا تتبين قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتطاول، ولكنها تدفع الباطل

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي: ٣ / ١٥٥-١٥٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٤/ ٥٦.

(٣) صفوة التفاسير: ٢ / ٢٣٩.

(٤) ينظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن: ٣ / ١١٨.

(٥) ينظر: صفوة التفاسير: ٢ / ٣٧٩.

في النهاية، فإذا هو زاهق فتلقفه فتطويه فإذا هو يتوارى[١].

نخلص من ذلك أن آلية أداة الحبل لا تكمن في سر استخدامه الظاهر وحسب وإنما في مغزاه الذي يتعدى ظاهره المادي للعيان، فهو عند الله القوة التي تجمع الناس على أساسيات التقوى حيناً وهو نفسه الأداة التي تدعم النبي موسى وتبطل سحر الكفرة.

وقد وردت لفظة (الحبل) أيضاً في التنزيل العزيز كأداة تعذيب وبطش في الآخرة وضُرِبَت زوجة أبي لهب مثلاً للتعذيب بهذه الأداة لما في الحبل من قدرة التطويق والخنق بوساطة عقده أو لفه كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝ ﴾ (المسد: ٤-٥) وقيل «حبل من ليف تشد هي به في النار، أو هو الحبل الذي تشد به الحطب، على المعنى الحقيقي إن كان المراد به هو الشوك، أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعي بالأذى والوقيعة»[٢].

وقد اختلف أهل التأويل في وصف (الحبل) وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: «هو حبل جمع من أنواع مختلفة من ليف وحديد ولحاء وجعل في عنقها طوقا كالقلادة من ودع»[٣]، ومهما اختلف أهل التأويل، فما يرى الناس (أبا لهب) إلا ويتمثل لهم على الصورة التي صوره القرآن بها، ولا يرونه على تلك الصورة إلا وامرأته تسعى بين يديه أو من خلفه.. موقرة بأحمال من حطب ثقيلة مرهقة، تستعين على حملها بهذا الحبل المشدود إلى عنقها، وقد أحنت له ظهرها وانكشف منها ما كان من حقه أن يستر عن الناس، فأي شيء يسوء العربي ويخزيه أكثر من هذا السوء والخزي... شأنها شأن العبيد والإماء[٤].

وللدكتور صبحي الصالح رأي آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١٦/ ٤٨٣.
(٢) في ظلال القرآن: ٣٠ / ٦٩٩.
(٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن: ٣ / ٤١٧.
(٤) ينظر: إعجاز القرآن في دراسة كاشفة في خصائص البلاغة، عبد الكريم الخطيب: ٢٩.

ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ (المسد: ٤-٥)، فقال: «إنه تستخدم الكناية في القرآن لاختصار مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير...، فقوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ فهي تسعى بالنميمة ومصيرها أن تكون حطباً لجهنم وأن تكون مغلولة اليد، وأوضح أن الكناية هنا لخصت في ومضة واحدة المصير الذي يراد تصويره»[1].

فلهذا التصوير لزوجة أبي لهب معان ثانية غير المعاني الأولى الظاهرة، وهذا ما ذهب إليه الدكتور فتحي أحمد عامر، فهو يذكر أن من هذه المعاني أن «للظلم نهاية من أبشع النهايات على وجه التحقيق كما صورت لنا هذه النهاية في قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ وهناك أيضاً معنى آخر يتجلى بوضوح في تقابل بين أنموذجين: أنموذج هو في مرتبة الإجلال والسيادة على النفس ويتمثل في النبي (ﷺ) وأصحابه المؤمنين (ﭫ)، وأنموذج هو في مرتبة التحقير والانحطاط والعبودية للنفس ويتمثل في أبي لهب وزوجته ومن على شاكلته من المشركين»[2].

كل تلك المعاني صورها القرآن وأوحى بها السياق وأنت تتصور منظر زوجة أبي لهب وهي تحمل الحطب على ظهرها مستعينة بالحبل الذي لفته على عنقها والذي كان طوقاً يجرها ذليلة سحيقة وهي من بيت العز والشرف حالها حال الحطابات... فأي ذل وخنوع هذا؟

٥ - ٢: الحديد

للجذر (حَد) أصلان الأول المنع والثاني طرف الشيء، فالحد الحاجز بين الشيئين... ويقال للبّواب حَدّاد لمنعه الناس من الدخول[3]، قال الأعشى يمدح

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ٣٣١.

(٢) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، د. فتحي أحمد عامر: ٢٨٥.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٣.

سلام الحميري:

فقمـــنا ولمـــا يَــصِحْ ديكُـــنا إلى جَــــوْنةٍ عـــند حَــــدَّادِها

والجونة سوداء يقصد خابية الخمر لأنها كانت تطلى بالقار لتسد مسامها فلا ترشح حدادِها صاحبها الذي يحد الناس أي يذودهم عنها لنفاستها[١]. أما الأصل الآخر فقولهم: «حد السيف هو حَزفه، وحَدُّ السكين وحَدُّ الشراب: صلابته، وحد الرجل: بأسه وهو تشبيه»[٢]. ويقال أيضاً «حددت السكين وغيره أحده حداً وأحَدّها يحدها أحداداً وسكين حديد وحُداد، إذا مسحت بحجر أو مبرد... وبه سمي السجان حداداً لمنعه كأنه يمنع من الحركة، وسمّى الأعشى الخمار -حداداً- لأنه يحبس الخمر عنده»[٣]. قال الفراهيدي: «والحديد معروف وصاحبه الحداد»[٤]. إلا أن ابن سيده قال: «والحديد جنس لا يثنى ولا يجمع، وقيل الحديد واحدته حديدة... وحديدٌ ليس بفعيل في معنى فاعل لأنه لا فعل له، فأما قولهم حددت عليه أحد فليس منه على أن هذا المثال فعْل له ولكن الحديد يشتق منه أفعال كقولهم حذدتُه أُحُدُّه حَدا واحَددته وحَدذتُ أحِدُ وحكي... حديدة وحدائد وحدائدات جمع الجمع»[٥] وقال الزمخشري إن «من المجاز: احتد عليه: غضب، وفيه حِدة، وهو حديدٌ وهو من أحداء الرجال، ولفلان جَدٌّ وحَدٌّ أي بأس»[٦]، «والحديد عنصر فلزي كثير الانتشار في باطن الأرض وظاهرها»[٧].

وتحليل لفظ (حدد) في التنزيل الكريم على أربعة أوجه:

الوجه الأول: الحديد يعني الحاد في قوله تعالى: ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢) يعني حاداً.

---

(١) ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس: ٨.

(٢) مقاييس اللغة: ٢ / ٤-٥ وينظر: مجمل اللغة: ١ / ٥ – ٦.

(٣) جمهرة اللغة: ١ / ٥٧.

(٤) العين: ٣ / ١٩-٢٠.

(٥) المخصص: ٣ / ٢٦.

(٦) أساس البلاغة: ١١٦.

(٧) معجم لغة العرب: ١ / ٢٧.

الوجه الثاني: الحديد بعينه في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (الحديد: ٢٥).

الوجه الثالث: الحديد الخلاف في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (المجادلة: ٥) أي يخالفون.

الوجه الرابع: حدود الله يعني أحكامه في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾(البقرة: ١٨٧) يعني أحكام الله ومثلها في (في سورة الطلاق: ٧) و(سورة النساء الآية: ١٣)[1].

وردت لفظة -- حديد - في خمسة مواضع من القرآن الكريم[2]، وبوصفها الآلة والأداة التي تنفع وتخدم الآخرين لصلابتها وقوتها في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد: ٢٥) ففي هذه الآية إشارة إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث فهي منزلة بقدره وتقديره، أنزل الله الحديد (فيه بأس شديد) وهو قوة في الحرب والسلم[3]. وللزمخشري تفسير لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ قيل: «نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد: السندان، الكلبتان الميقعة، المطرقة: الإبرة، وروي معه المرو المسحاة، فيها (بأس شديد)، وهو القتال به (ومنافع للناس) أي في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها، أو ما يعمل بالحديد»[4].

وقد ذكر الرازي أيضاً في تفسيره للآية ذاتها: «إن مصالح العالم إما أصول وإما فروع، فالأصول أربعة: الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة إلا بهذه الحِرف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجة، إلى الحديد وذلك في

(١) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه: ١٢٠-١٢١.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٩٥.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٧ / ٧٣٩.

(٤) الكشاف: ٤ / ٤٨٠، ٤٨١.

كرب الأرض وحفرها، ثم عند تكوّن الحبوب وتولدها لا بُدّ من خبزها وتنقيتها، وكذلك فإن الحبوب لا بُدّ من طحنها وذلك لا يتم إلا بأداة الحديد، وكذلك الفواكه فلا بُدّ من تنظيفها عن قشورها وقطعها على الوجوه الموافقة للأكل ولا يتم ذلك إلا بالحديد، والحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد ثم يحتاج إلى قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد»[1].

وكذلك نرى استخدام (الحديد) في ظل سياق آية قرآنية أخرى والتي تبدو خارقة ليس من مألوف البشر في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (سبأ: ١٠) وقد بين لنا سيد قطب أنه: «لم يكن الأمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلاً للطرق، وإنما كان - والله أعلم - معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة، هكذا نلاحظ جواً من معجزات وظلال خوارق خارجة عن المألوف، وروي أن الله تعالى ألهم داود (ﷺ) أن يصنع (سابغات) أي الدروع، فكانت تصلب الجسم وتثقله، وصناعتها من رقائق متداخلة، متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم، وأمر بتضييق مداخل هذه الرقائق لتكون محكمة لا تنفذ منها الرماح وهذا التقدير في السرد، والأمر كله إلهام وتعليم من الله»[2] هكذا نرى أن الحديد في سياق هذه الآية استخدم أداة وآلة نفعية شكلّت قوة بقدرة الله تعالى مع مادة الطين اللزجة المرنة، فمطاوعته لرغبات سيدنا داود (ﷺ)، إنما هو آية تستحث العقول التي دعاها للإيمان أن تفكر بسر هذه القدرة التي تغالب صلة الحديد الذي لا يكون بتصور المخلوقين إلا دليلاً على القوة والمتانة، تلك القوة التي تخضع بتأييد الله لإرادة الأنبياء المصطفين، فتصير لهم آية ترقق مشاعر الذين يدعوهم الأنبياء فيؤمنوا بهم، وهذا ما أشار إليه الزمخشري بقوله: «إن الحديد بهذا الاستعمال صار لغزاً للقوة التي تخضع إلى الأقوى، حينما ألان الله الحديد بيد سيدنا داود (ﷺ) يصرفه

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٢٤٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٢ / ٦٣٥.

كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة»[١].

وعلق الرازي بقوله: «وعلمه صنعة اللبوس وهي الدروع، وإنما اختار له الله ذلك لأنه وقاية للروح التي هي: من أمره وسعى في حفظ الآدمي المكرم عند الله من القتل»[٢].

ونخلص من هذا كله أن في قوله تعالى إخبار المولى بما أنعم على عبده ورسوله داود (ﷺ) حتى كان الحديد بين يديه كالعجين، يصنع منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحروب[٣].

أما قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (ق: ٢٢) فقد استعملت لفظة - حديد - هنا ليس بدلالة الآلة والأداة، وإنما خرجت إلى معنى بعيد وهو يعني «أي علمك ومعرفتك بها قوية، من قولهم بَصرٌ بكذا أي علم، وليس المراد رؤية العين»[٤].

وهكذا نرى أن البصر شبه بالحديد، وذلك لصفة الصلابة والقوة المتمثلة في (الحديد) أي يجب أن يكون علمك ودرايتك بالأمور ومعرفتك بالأسباب والمسببات قوية صلبة كقوة أداة الحديد وبأسه.

---

(١) الكشاف: ٣ / ٥٧١.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٥ / ٢٤٧، وكذا في (سورة الحج الآية: ٢١)، (الكهف الآية: ١٨).

(٣) ينظر: روائع البيان في تفسير آيات من القرآن: ٢٧٧.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: ٣ / ٩٦.

٦. حرف الخاء

٦ - ١: الخزائن

للجذر (خزن) أصل يدل على صيانة الشيء يقال خزنت الدّرهم وغيره خَزناً وخَزَنت السر[١]. قال امرؤ القيس:

إذا المــرء لم يخْــزُن علــيه لِسانَهُ فلــيس علــى شــيءٍ سِواهُ بخَزّانِ

هنا كنى باللسان عن السر الذي يحفظه ويذيعه[٢]. وقيل: «خزانتي قلبي وخازني لساني قال لقمان لابنه: إذا كان خازنك حفيظاً وخزانتك أمينة سُدت في دنياك وآخرتك. يعني اللسان والقلب. والخزانة الموضع الذي يخزن فيه الشيء»[٣] وذكر الجوهري: «والخزانة بالكسر: واحدة الخزائن»[٤]. وقيل الخَزنة: «صندوق مربع توضع فيه النقود. وقيل أيضاً خزنة: القسم الأعلى من الآلة الموسيقية المسماة كمنجة. وخَزْنة الكتب: مكتبة. والخزانة تعني: صوان، تخت، دولاب وخيمة وكذلك تعني الخزانة: مخزن الأمتعة، وخزان السلاح، ترسانة»[٥].

وتحليل لفظة - خزائن - في القرآن الكريم يأتي على أربعة أوجه:

الأول: الخزائن يعني المفاتيح في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ ﴾ (الإسراء: ١٠٠) يعني مفاتيح الرزق، ومثلها في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (الحجر: ٢٢) يعني بفاتحين.

الثاني: الخزائن يعني النبوة والكتاب في قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝ ﴾ (ص: ٩) يعني النبوة والكتاب.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ١٧٨.

(٢) ديوان امرؤ القيس: ٩٠.

(٣) العين: ٤ / ٢٠٩.

(٤) الصحاح: ٥ / ٢١٠٨.

(٥) تكملة المعاجم العربية، رينهارت دوزي ٣/ ٨٦-٨٧.

الثالث: الخزائن المطر والنبات كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (المنافقون: ٧) يعني المطر والنبات.

الرابع: خزائن الخراج في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٥) يعني على خراج أرض مصر[١].

وردت لفظة خزائن في سبعة مواضع من القرآن الكريم[٢]، وبدلالات متعددة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ (يوسف: ٥٥) وقد فسر الطوسي قوله تعالى: «يعني أرضك، وأراد بذلك أديم الأرض التي هي ملكه ويجمع منها ماله وطعامه، طلب إليه ذلك ليحفظ ذلك عمن لا يستحقه، ويوصله إلى الوجوه التي يجب صرف الأموال لها، فلذلك رغب إلى الملك فيه، لأن الأنبياء لا يجوز أن يرغبوا في جمع أموال الدنيا إلا لما قلناه»[٣]، أما قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام: ٥٠) ولسيد قطب رأي في ذلك بأن محمداً (ﷺ) يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشراً مجرداً من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة، وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء.. ولا ثراء ولا ادعاء.. إنها عقيدة يحملها الرسول (ﷺ)، لا يملك إلا هداية الله، تنير له الطريق.. وإنه لا يقعد على خزائن الله ليغدق منها على من يتبعه، أنه يؤمر أن يقدم عقيدة خالية من كل زخرف ويعرف من يفيئون إلى ظلها أنهم لا يفيئون إلى خزائن قال، ولا إلى وجاهة دنيا، ولا إلى تميز على الناس بغير التقوى، إنما يفيئون إلى هداية الله وهي أكرم وأغنى[٤] وبهذا يتبين أن الخزائن في هذه الآية هي إشارة إلى النبي نوح (ﷺ) حيث يقول: لا أدعي الاستغناء المطلق هذا أولا وثانيها: أني لا أملك العلم التام وإليه الإشارة بقوله (ولا أعلم الغيب) ولا أدعي أيضاً القدرة التامة الكاملة، فالمقصود من ذكر هذه الأمور الثلاثة بيان أن ما حصل

---

(١) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ١٥٥.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٣١.

(٣) التبيان: ٦/ ١٥٧.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٧ / ٢٢٦.

عند النبي من هذه المراتب الثلاثة إلا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الإنسانية فأما الكمال المطلق فأنا لا أدعيه، وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن قوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ...﴾ (الأنعام: ٥٠) يدل على أنهم أكمل من البشر، وأيضا يمكن جعل هذا الكلام جواباً عما ذكروا من الشبهة فإنهم طعنوا في اتباعه الفقر فقال: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ (هود: ٣١) حتى أجعلهم أغنياء[١]، وبذلك فقد دلت كلمة خزائن على المال الوافر الكثير فقد قال الرسول (ﷺ) لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي[٢]، وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ (الطور: ٣٧) قيل: إن خزائن هنا تعني المطر والرزق، وقيل أيضاً تعني مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا، وضرب المثل بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر؛ ومقدرات الرب كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها[٣]، «ف (أم) هنا بمعنى (بل) الدالة على الإضراب، منضماً إليه معنى الاستفهام فيصير المعنى: بل عندهم...؟ أي: بل، أعندهم خزائن رحمة ربك تفويضا من قبله فهم يتصرفون بها على ما يشاءون، حتى يعطوا منها أو يمسكوا بحسب أهوائهم، وهو الله عظم سلطانه الغلاب الذي لا يحتاج في كونه إلا أوصياء على خزائن رحمته بحسب حكمته، لا بحسب أهواء عباده»[٤] وقد أشار صبحي الصالح بقوله: «وهذا ما حرص عليه القرآن بالرمز والإيحاء أن يكني عن الحقائق الدينية الكبرى المتعلقة بذات الله وصفاته بأسلوب تزيده المبالغة حسناً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ (الحجر: ٢١) فنرى جمال الكناية عن أزلية الأرزاق والمقدرات بالخزائن كما في الآية السابقة» هكذا نرى أن القرآن يجعلنا نرسم في خيالنا صورة ناطقة لا تقف عند الرمز الكنائي وإنما تتجاوز إلى

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٧ / ٢٢٥.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ٢ / ١٣.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٥٠.

(٤) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣ / ٥٠٢.

التعريض أي تذكر اللفظ وتلوح به إلى ما ليس من معناه لا حقيقة ولا مجازاً[١].

وكما هو معروف، أن الخزانة بمعناها العام هي أداة لحفظ وصيانة وخزن كل أنواع الذخائر، لكن السياق القرآني يتجلى بوضوح بذلك العطاء غير المنقطع من لدن البارئ عز وجل متمثلاً بلفظة - خزائن - التي يفيض علينا منها بالخير الوافر لمن يشاء من عباده لأنه المتحكم المطلق.

٦ - ٢: الخيام

للجذر (خيم) أصل واحد يدل على الإقامة والثبات، فالخيمة معروفة؛ والخَيْم عيدان تُبنى عليها الخيمة، ويقال خيم بالمكان أقام به، ولذلك سميت الخَيمة. والخِيم: السِجّية بكسر الخاء لأن الإنسان يبنى عليها، ويكون مرجعه أبداً إليها[٢]، وقال ابن دريد: وقالوا خيام وخِيمَ وخِيم الإنسان خليقته، يقال رجل حسن الخيم، وخام عن الشيء يخيم خيما إذا أحاد عنه[٣].

ويقال «خَيّم بمكان كذا، وتَخيّم... وضربوا الخيام والخَيْم والخيَم وهو كريم الخيم وخام عن الحرب ومن المجاز: خيمت البقر: أقامت في مرابضها لا تبرح، وتخيمت الريح في الثوب والبيت بقيت فيه»[٤]، وقيل خيم: الخَيْمة: «بيت من بيوت الأعراب مستدير يبنيه الأعراب من عيدان الشجر... وقيل هي ثلاثة أعواد وأربعة يلقى عليها الثَمام ويستظل بها في الحر والجمع خيمات وخيام وخِيَم وخَيْمٌ، وقيل الخَيمْ ما يبنى من الشجر والسّعف يستظل به الرجل إذا أورد إبله الماء، والخيمة عند العرب: البيت والمنزل وسميت خيمة لأن صاحبها يتخذها كالمنزل الأصلي، والخيام أيضاً الهوادج على التشبيه»[٥]، والخَيمْ: «تعريب خيم أي الطبيعة»[٦]، والخيمة أيضاً تعني «خباء ومظلة وقد جمعت في معجم فوك على

(١) مباحث في علوم القرآن: ٣٣١ – ٣٣٢.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٢٣٦.

(٣) ينظر: الجمهرة: ٢ / ٣٤٣-٣٤٤.

(٤) أساس البلاغة: ١٨٠.

(٥) لسان العرب: ١٢ / ١٩٣، مادة (خيم).

(٦) الألفاظ الفارسية المعربة، السيد أدى شير (المطبعة الكاثوليكية، بيروت: ١٩٠٨م): ٥٩.

خوائم، وجمعت في معجم بوشر على خيم: والخيمة أيضاً تعني أبا العشيرة، أصل العشيرة»[١].

وقد وردت لفظة - الخيام - في موضع واحد من القرآن الكريم[٢]، في قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝ ﴾ (الرحمن: ٧٢) «أي بيوت من لؤلؤ شبيهة بالخيام»[٣] لكن الرازي ذهب إلى أن الخيام هي «إشارة إلى عظمتهن فإنهن ما قصرن حجراً عليهن وإنما ذلك إشارة إلى ضرب الخيام لهن وإدلاء الستر عليهن،

والخيمة مبيت الرجل كالبيت من الخشب، حتى إن العرب تسمي البيت من الشعر خيمة لأنه معد للإقامة، إذا ثبت هذا، فنقول قوله «مقصورات في الخيام» إشارة إلى معنى في غاية اللطف، وهو أن المؤمن في الجنة لا يحتاج إلى التحرك لشيء وإنما الأشياء تتحرك إليه، فالمأكول والمشروب يصل إليه من غير حركة منه، ويطاف عليهم بما يشتهون، فالحور يكنَّ في البيوت عند الانتقال إلى المؤمنين في وقت إرادتهم تسير بهن للارتحال إلى المؤمنين خيام وللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام إلى القصور»[٤].

وفي الحديث «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون»[٥].

وقد ذهب سيد قطب إلى أن: «الخيمة تمثل ظل البداوة، ونعيم بدوي أو ما يمثل مطالب أهل البداوة»[٦]، فالخيمة وما هو معروف في العرف الاجتماعي أداة ووسيلة لاستقرار الناس وحمايتهم من تغيرات الطبيعة حراً وبرداً أما في المعنى التفسيري فكانت إشارة ودلالة إلى الحياء الذي وصفن به النساء، وكذلك فهي تحتجز في داخلها حصة المؤمنين من نعيم الآخرة المادي هذا الستر أي (الخيمة)

---

(١) تكملة المعاجم العربية: ٤ / ٢٦٤.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٥٢.

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ١ / ١٨٠.

(٤) مفاتيح الغيب: ٢٩ / ١٣٦.

(٥) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٤٩.

(٦) في ظلال القرآن: ٢٧ / ٦٨٩.

كان امتحاناً للمؤمن حتى يلقى مكافأته بذلك الجمال الإلهي عند كشفه، فهذه (الخيمة) تمثل الثبات والبقاء لنعيم الآخرة لدى المؤمنين الذين خصهم الله بنعيمه الإلهي.

٦ - ٣: الخيط - الخياط

للجذر (خيط) أصل واحد يدل على امتداد الشيء في دقة ثم يحمل عليه فيقال في بعض ما يكون منتصباً فالخيط معروف، ويقال لما يسيل من لعاب الشمس خيط باطل

«فأما الخِيْط بالكسر، فالجماعة من النعام، وهو قياس الباب لأن المجتمع يكون كالذي خيط بعضه إلى بعض»[1]. قال الزمخشري: «ومن المجاز أخذ الليل في طي الرَبَطْ، وتبين الخيط من الخيط، وهو أدق من خيط باطل وهو الهباء المنبث في الشمس وقيل لعاب الشمس وقيل الخيط الخارج من فم العنكبوت الذي يقال له مخاط الشيطان»[2]، والخيط أيضاً: «السلك يخاط به جمع خيوط»[3]، وكذلك قيل «خيط: هو حبل رفيع يربط بمغلاق الباب يرفع إذا أريد فتحها، وخيط: شريط نظمت فيه خرز قلادة من اللؤلؤ أو من الجمان، وخيط أيضاً: مسبحة أيضاً. وخيط البناء: الإمام وهو الخيط الذي يمد على البناء فيبنى عليه ويسوى عليه ساق البناء»[4].

وقد وردت لفظة (الخيط) في موضع واحد من القرآن الكريم[5] في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) فالخيط هنا «كناية عن بياض الصبح وسواد الليل، فقد روي أنه لما

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤.
(٢) أساس البلاغة: ١٧٩.
(٣) لسان العرب: ٧ / ٢٧٨ مادة (خيط).
(٤) تكملة المعاجم العربية: ٤ / ٢٥٧-٢٥٩.
(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٥١.

نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم [*] أخذت عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي، وكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلم يتبين لي الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت إلى الرسول (ﷺ) فأخبرته فضحك. وقال (ﷺ) «إنك لعريض القفا» إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل وبذلك يستدل به على بلاهة الرجل، ونقول: يدل قطعاً على أنه تعالى كنى عن بياض أول النهار وسواد آخر الليل»[١].

وهذا ما أشار إليه الصابوني مؤكداً قول الرازي عندما قال: «إن هذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل والخيطان هاهنا مجاز وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً، ويكون سواد الليل منقضيا موليا، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استمراراً»[٢]، وهنالك من قال بأن الخيط في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) «أريد به الفجر الكاذب لا الليل»[٣] وثمة رأي يقول: «إن الخيط يعني اللون»[٤].

هكذا يوحي السياق القرآني بأن لفظة (الخيط) خرجت من معناها الظاهر إلى معنى أبعد من كونه خيطاً هيناً بل كانت إشارة إلى بيان شرط من أحكام الله لركن من أركان الإسلام ألا وهو الصيام.

ومن (خيط) الخياط: الإبرة، (والخَياط الفاعل)[٥] «وكل شيء خطت به فهو مخِيَط وكل شيء خطته فهو مَخيط»[٦] وقد ذكر الراغب الأصبهاني قائلاً: يقال

(*) هو عدي بن حاتم بن سعد الطائي،، أمير وصحابي وكان رئيس طي في زمن قبل الإسلام، كان إسلامه سنة ٩هـ وشارك في حروب الردة توفي في الكوفة سنة ٦٨هـ . ينظر : سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق : شعيب الأرنؤوط (مؤسسة الرسالة، بيروت : د / ت): ٣ /١٦٢-١٦٥.

(١) مفاتيح الغيب: ٥ / ١١٨.

(٢) صفوة التفاسير: ١ / ١٢٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٣ / ٣٢١.

(٤) مجاز القرآن: ١ / ٦٨.

(٥) ينظر: العين: ٤ / ٢٩٣.

(٦) جمهرة اللغة: ٢ / ٢٣٣.

قد خطت الثوب أخيطه خياطة... والخياط: الإبرة التي يخاط بها[١]، والخِياط والمخِيطُ: «ما خِيط به وهما أيضاً الإبرة. وقيل: المِخْيَط ونظيره مما يعتمل به مكسور الأول، كانت فيه الهاء أو لم تكن»[٢] وقيل أيضاً الخياط: «آلة الخياطة كالإبرة ونحوها»[٣] وذكر أن الخِياط بوزن فِعال من أوزان الآلة والأداة، ولعلَّ هذا من الأبنية القديمة مثل أن يكون للآلة أبنية قياسية هي (فِعل ومِفعَله ومِفْعال)[٤].

وقد وردت لفظة (الخياط) في موضع واحد من القرآن الكريم[٥]، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾(الأعراف: ٤٠) وكما هو معلوم أن الخياط هو أداة الخياطة وهي (الإبرة) فقد فسر سيد قطب قوله تعالى بقوله: «فقد مثل مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة، فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير فأنتظر حينئذٍ - وحينئذٍ فقط - تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين، فيقبل دعاؤهم أو توبتهم، وقد فات الأوان، وأن يدخلوا إلى جنة النعيم! أما الآن والى أن يلج الجمل في سَمِ الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا، وتلاوموا فيها وتلاعنوا، وطلب بعضهم لبعضهم سوء الجزاء ونالوا جميعا ما طلبه الأولياء للأولياء»[٦].

إلا أن الرازي أشار إلى أن الجمل خص بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبر الحيوانات جسماً عند العرب، فجسم الجمل أعظم الأجسام، وثقب الإبرة أضيق المنافذ وكان ولوج الجمل في تلك الثقبة الضيقة محالاً[٧]، ومعنى القول أنهم لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة

---

(١) ينظر: المفردات: ٢٣٢.

(٢) لسان العرب: ٧ / ٢٩٨ مادة (خيط).

(٣) معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٣٨٩.

(٤) ينظر: من بديع لغة التنزيل: الدكتور إبراهيم السامرائي، ط٢ (مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م): ٩٦ – ٩٧.

(٥) ينظر: المجمع المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٥١.

(٦) في ظلال القرآن: ٨ / ٥١٦.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٤ / ٨١.

على دقته مبالغة في التصوير[١]. هكذا أظهر السياق القرآني لفظة (الخياط) بأنها أداة تمثيل وتخيل على استحالة دخول الكفار الطواغيت إلى جنة الله تبارك وتعالى، وبهذا صارت برهاناً على عقاب العصاة والمارقين من بني آدم لِقاء المعاندة والمكابرة التي تخلقوا بها وتحدوا قدرة الله ومشيئته.

(١) ينظر: صفوة التفاسير: ١/ ٤٤٦.

٧. حرف الدال

٧ - ١: الدسر

للجذر (دسر) أصل واحد يدل على الدّفع. يقال دَسرت الشيء دَسْراً إذا دفَعْته دفعاً شديداً. ومما شذ عن الباب وهو صحيح: الدِّسارُ: خيط من ليف تشَدّ به ألواح السفينة والجمع دُسُرٌ[١]، ويقال: «جَمَل دَوْسَرٌ ودَوْسَريّ ودَوْسَرانيّ: ضخم الهامةِ والمِنكب»[٢] ويقال: «واركبوا في ذات الألواح ومن المجاز، دَسَر المرأة: بضعها»[٣]. قال تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ ﴾ (القمر: ١٣) والدُّسُر: «تعني المسامير»[٤]، فهي إذاً مسامير تُشَدُّ بها ألواح السفينة[٥]، وقال ابن منظور: «كل شيء يكون نحو السَّمِر وإدخال شيء في شيء بقوة، فهو الدَّسْرِ، يقال دَسَرت المسمار أدْسُرُه، أدسره دِسْراً»[٦]، وقيل إن المسمار «إن كان من خشب فهو دِسار»[٧]، وقد ذكر الرصافي أن الدسار: الشرط التي تسد بها السفينة، والدِسار يضم به كل من اللوحين إلى الآخر بانتشاب طرفيه فيهما جميعاً، ومنه قول علي (ﷺ) (رفعها بغير عمدٍ يدعمها ولا دسار ينتظمها)... [٨]، والدسار: «مُعرب دُوسر واصل معناه ذو رأسين»[٩].

وقد وردت لفظة (الدُسُر) في موضع واحد من القرآن الكريم وبصيغة

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٢٧٨.

(٢) العين: ٧ / ٢٢٦.

(٣) أساس البلاغة، ص ١٨٧.

(٤) المخصص: ٣ / ٢٥.

(٥) ينظر: القرآن الكريم وبهامشه كلمات القرآن، حسنين محمد مخلوف: ٥٢٩.

(٦) لسان العرب: ٤ / ٢٨٥.

(٧) المدخل إلى تقويم اللسان، حاتم الضامن: ٢٠٧.

(٨) ينظر: الآلة والأداة، : ٩٩.

(٩) الألفاظ الفارسية المعربة: ٦٤.

الجمع[١]، في قوله تعالى ﴿ وَحَمَلْنَهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر: ١٣)، وقد بين الرازي أن الألواح في قوله تعالى: (ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) كانت إشارة إلى أنها كانت مركبة موثوقة بدسر بدليل حذف الموصوف وأقامة الصفة مقامه، وكان انفكاكها في غاية السهولة ولم يقع فهو بفضل الله»[٢]، وقد ذكر الصابوني أن المقصود من ذلك «حملنا نوحاً على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير، ويفهم من هذا الوصف أنها (السفينة)، فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ونحوه، وهذا من فصيح الكلام وبديعه»[٣]، إذ ذكر الدسر كان كناية عن السفينة التي حملت نوح (ﷺ) ومن معه من المؤمنين ... وهذا هو المعنى الذي يلائم سياق الطوفان الصعب الذي أحاط خطره وأحدق بكل حي[٤].

وعلى الرغم من أن - الدُسُر - تعد أداة عيانية تشد وتقوي ألواح خشب السفينة وترصها جنباً إلى جنب إلا أنها في غاية السهولة بحيث تنفصل عن بعضها في أية لحظة، لكن القدرة الإلهية بفضل الله سبحانه وتعالى تمنع ذلك لتنقل الإيمان والمؤمنين إلى حيث النجاة، والظاهر من سياق اللفظة «أنه أريد بها وصف فخامة وقيمة السفينة التي حملت المؤمنين من قوم نوح (ﷺ) وتعظيم أمرها فهي توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها»[٥]، ولسيد قطب إشارة أخرى في تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر: ١٣) بأنها ذكرت لتصوير مدى القوة التي يملك رصيدها من يُغلب في سبيل الله... وأن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته والله من ورائها بجبروته وقدرته»[٦].

---

(١) ينظر: معجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٥٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٩ / ٣٩.

(٣) صفوة التفاسير: ٣ / ٢٨٥ – ٢٨٦.

(٤) ينظر: الكناية في القرآن الكريم: ٣٢١.

(٥) قصص الرحمن في ظلال القرآن: ١/ ٦٦٥.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٧ / ٦٥٠.

٧ - ٢: الدلو

للجذر (دلى) أصل يدلُّ على مقاربة الشيء ومداناته بسهولة ورفق، يقال: أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر، فإذا نزعت فقد دلوت، والدلو أيضاً ضربٌ من السّير سهل[١]، «والدلو معروفة مؤنثة وقد ذكرت في الشعر على معنى الغَرْب والسَّجل»[٢]، قال الجوهري: «إن الدلو واحدة الدلاء التي يستقى بها وكذلك الدلا بالفتح، الواحدة دلاةٌ، وجمع الدلو في أقل العدد أدل... والكثير دلاءٌ ودُلِيّ... والدلو: برج من بروج السماء، والدلو: سمة الإبل. وقولهم جاء فلان بالدلو: أي الداهية»[٣]. قال تعالى: ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ (يوسف: ١٩) يلاحظ أن استعارة الدلو كان للتوصل إلى الشيء[٤]، ومنه التدلّي: الدنو والاسترسال كما في قوله تعالى: ﴿ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ[٥]﴾ (البقرة: ١٨٨) وكذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (النجم: ٨) وقد ذكر الزمخشري النواعير تعني الدوالي بدليل القول «وسقى أرضه بالدالية وبالدوالي وهي النواعير... ودلّى رجليه من السرير، ودلاه بحبل من سطح أو جبل... ومن المجاز: دلا فلان ركابه دلْوا إذا رفق بسوقها... ودلوت حاجتي: طلبتها... ودلوت بفلان إلى فلان: مَتَتُّ به وتشفعتُ به إليه... وأدلى بحقه وحجته: أحضرها»[٦]، والدلو أيضاً «الوعاء الذي يُخرج به الماء من البئر وغيرها»[٧].

وقد وردت لفظة (الدلو) في موضع واحد من القرآن الكريم[٨] ففي قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ (يوسف: ١٩) قال الطوسي

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٢٩٣.

(٢) جمهرة اللغة: : ٢ / ٣٠٠.

(٣) الصحاح: ٦ / ٢٣٣٨ -٢٣٣٩.

(٤) ينظر: المفردات: ٢٤٧.

(٥) ينظر: المفردات: ٢٤٧.

(٦) أساس البلاغة: ١٩٤.

(٧) معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٤١٨.

(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٦١.

والمعنى: «يعني أرسل دلوه ليملأ، يقال أدليت الدلو إذ أرسلتها لتملأ، ودلوتها إذ أخرجتها مملأة، وقيل أنه لما أرسل الدلو تعلق بها يوسف (ﷺ)، فقال المدلي: (يا بشراي) هذا غلام»[1]، هكذا ظهر يوسف (ﷺ) قال المفسرون: «لما أدلى الوارد دلوه كان يوسف (ﷺ) في ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد إليه ورأى حسنه نادى فقال: يا بشرى»[2]، وقد أوضح ابن عاشور أن نداء البشرى في قوله تعالى (يا بشراي) مجاز: لأن البشرى لا تنادى، ولكنها شبهت بالعاقل الغائب الذي احتيج فينادى كأنه يقال له: آن حضورك، والمعنى: أنه فرح وابتهج بالعثور على الغلام[3]، وعند خروج يوسف (ﷺ) من البئر بواسطة الدلو ظهرت صورته كالقمر ليلة البدر بدليل قول رسولنا محمد (ﷺ) في حديث الإسراء: (فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أُعْطِي شَطْرُ الحُسنِ)[4].

نلاحظ أن الدلو على الرغم من وظيفته المادية التي بواسطته تنقل الأشياء من مكان إلى مكان إلا أن السياق القرآني أشار إلى معنى أبعد من كونه وعاء يخرج به الماء من البئر وغيرها، فقد أصبح برهاناً حققت نبُوة يعقوب (ﷺ) الذي أنبأه الله تعالى قبل وقوعها أولاً، وكذلك صار هذا الوعاء - الدلو - أداة إنقاذ تقدمت على تحقيق المعجزة بشكلها العام حسبما وصفها القرآن الكريم. وكل هذا صورها القرآن بحركة مرهفة لحامل الدلو إلى عمق البئر.

---

(١) التبيان: ٦ / ١١٣.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٨ / ١٠٨.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٤١.

(٤) صحيح مسلم: ١/١٤٦.

٨ . حرف الذال

٨ - ١: الذراع

للجذر (ذرع) أصل واحد يدل على امتداد وتحرُّك إلى قدم ثم ترجع الذرع إلى الأصل فالذّراع ذراع الإنسان معروفة، والذّرع مصدر ذَرَعْت الثوّب والحائط وغيره[١]. وقال الفراهيدي «الذراع من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى، والذّراع أيضاً الساعد كله وهو الاسم. والذراع من النجوم»[٢]، ومنه قوله «ضاق ذرعي عن كذا وكذا، إذا لم أطقه وضقت ذرعاً وذراعاً كذلك»[٣]. وقد ذهب الجوهري إلى أن ذِراعَ اليد يذكرّ ويؤنث والذراع: ما يذرع به[٤]، وقال الزمخشري: «ذرعتُ الثوبَ بذراعي وهي من طرف المرفق إلى طرف الوسطى ثم سمي بها العود المقيس بها، وذَرعَ في سيره وباع فيه، إذا أمَّد ذراعه وباعه... وفرس ذريع: واسع الخطو... وامرأة ذارع وذَراعٌ: سريعة اليدين بالغزل... ومن المجاز: ضاق الأمر ذرعاً وذراعاً إذا لم يطقه، وأبطرت ناقتك ذرعها كلفتها ما لم تطق، واقصد بذرعك وأربع على ظلعك: ارفق بنفسك، وما لك عليه ذراع أي طاقة... وقد أذرع في كلامه وهو يذرع فيه إذراعاً وهو الإكثار وفلان ذريعتي إلى فلان، وقد تذرعت به أي توسّلت إليه »[٥]، وقال ابن منظور الذِّراع: «اسم جامع لكل ما يسمى يداً في الروحانيين ذوي الأبدان»[٦]، ومن ثم صار الذراع مقياساً يقدر به، وهو «ست قبضات معتدلات»[٧]، وبهذا يطلق الذراع على «ما يذرع به حديداً كان أو قضيباً، وهي مأخوذة من ذراع الحيوان مؤنثة»[٨]، وقيل أيضا أن الخشبة التي يذرع بها

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٣٥٠.

(٢) العين: ٢ / ٩٦، ٩٨.

(٣) جمهرة اللغة: ٢ / ٣٠٨.

(٤) ينظر: الصحاح: ٣ / ١٢٠٩.

(٥) أساس البلاغة: ٢٠٤.

(٦) لسان العرب: ٨ / ٩٣ مادة (ذرع).

(٧) معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٤٣٥.

(٨) الآلة والأداة: ١٠٧.

تسمى الذراع مجازاً[١]. أما الذراع في المساحة عند العرب ثلاثة: «الشرعية وهي ذراع اليد وتقدر بأربعة وعشرين إصبعا أي ٤٨ عشيراً (سنتيماً) والحديد السوداء وهي ٢٧ إصبعا أي ٥٤ عشيراً، والهاشمية وهي ٣٢ إصبعا أي ٦٤ عشيراً»[٢].

وقد وردت لفظة - ذراع - في موضع واحد من القرآن الكريم[٣]، في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة: ٣٢) وقوله تعالى ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ فيه قولان: (أحدهما) إنه ليس الغرض التقدير بهذا المقدار بل الوصف بالطول كما قال إن تستغفر لهم سبعين مرة، يريد مرات كثيرة (والثاني) إنه مقدر بهذا المقدار ثم قالوا لكل ذراع سبعون باعاً، وكل باع أبعد مما بين مكة والكوفة[٤].

وقد قال القرطبي: «سبعون ذراعاً بذراع الملك وأن حلقة من السلسلة التي قالها الله تعالى ذرعها سبعون ذراعاً، وأن حلقة منها، مثل جميع حديد الدنيا فاسلكوه»[٥]. وعلى هذا فالذراع في سياق الآية القرآنية يوحي إلى التطويل والتهويل الذي يستشف من وراء لفظ (السبعين) وصورتها ولعل هذا الإيحاء هو المقصود[٦]. وذكر محمد مبارك أنه قد يأتي العدد في القرآن، وفي كلام العرب دون أن يراد منه مفهومه الدقيق، وإنما يراد مجرد الكثرة[٧].

فاستخدام آلة القياس (الذراع) ضمن السياق القرآني يصور لنا صورة رهيبة مخيفة لمستحقي العقاب ومشاهد تبعث الرعب لفاعل الشر عندما يؤخذ ويقيد بالأغلال ثم يلقى في نار الجحيم ويلف بسلسلة طولها (سبعون ذراعاً).

---

(١) ينظر: المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي: ١٧٤.

(٢) متن اللغة: ٢ / ٤٩٤ وينظر: المكاييل والأوزان الإسلامية، فالتر هنتس: ٨٣ – ٩٣.

(٣) ينظر: المصطلحات العسكرية: ١ / ٢٧٠.

(٤) مفاتيح الغيب: ٣٠ / ١١٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ١٧٦.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٢٥٨.

(٧) ينظر: دراسة أدبية لنصوص من القرآن الكريم: ٢٦.

٨ - ٢: الذنُوب

للجذر (ذنب) أصول ثلاثة: أحدها الجُرم، والآخر مؤخر الشيء والثالث كالحظ والنصيب[١]، (والذَنَبُ): معروف أذنب يذنب أذناباً، وذنب الدابة معروف... والذنوب الدلو... وقيل: إن الذنوب في التنزيل هو النصيب والله أعلم[٢]. والذنوب: «الفَرَسُ الواسع هُلب الذَنب، والذنوب: ملّء دلو من ماءٍ، ويكون النصيب من كل شيء»[٣]، والذنوب أيضاً «لحم أسفل المتن، وقيل: فيها ماء قريب من المِلءْ تؤنث وتُذكر، ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب، والجمع في أدنى العدد أذْنِبة، والكثير ذنائِب»[٤]، ويقال: «إن الفرق بين الدلو والذنوب، إن الدلو تكون فارغة وملأى، والذنوب لا تكون إلا ملأى ولهذا سمي النصيب ذنوبا»[٥]، والذنوب في كلام العرب على وجوه منها كما ذكرنا تعني الدلو العظيمة، وقد ذهب العرب به إلى معنى النصيب والحظ وبذلك فُسر قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٩). أي حظاً من العذاب كما نزل بمن قبلهم[٦]، وهكذا جعل الذنوب مكان (الحظ والنصيب) على الاستعارة[٧]، ويقال أيضاً: (يوم ذنوب) أي طويل الشر لا ينقضي[٨].

وقد وردت اللفظة - ذنوب - في موضع واحد من القرآن الكريم[٩]، في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وللرازي قول في ذلك: في أن الذنوب «العذاب مصبوب عليهم، كأنه قال

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٣٦١.

(٢) ينظر: جمهرة اللغة: ٣ / ١٢٧.

(٣) العين: ٨ / ١٩٠.

(٤) الصحاح: ١ / ١٢٨-١٢٩.

(٥) الفروق في اللغة: أبو هلال العسكري: ٣٠٩.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٣ / ٣٩٢، مادة (ذنب).

(٧) ينظر: تفسير غريب القرآن: ٤٢٣.

(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٣٩.

(٩) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٧٦.

تعالى نصب من فوق رؤوسهم ذنوباً كذنوب صبت فوق رؤوس أولئك، ووجه آخر، وهو أن العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوباً فذنوباً وذلك وقت عيشهم الطيب، فكأنه تعالى قال ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ من الدنيا وطيباتها (ذنوباً) أي ملاء، ولا يكون لهم في الآخرة من نصيب كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذنوباً وتركوها، وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك وإنما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية»[١]، وقد لمح الصابوني أن ذكر الذنوب من باب التشبيه المرسل المجمل، فقد حذف فيه وجه الشبه وهو مجمل[٢]، ومما هو ملاحظ أن لفظة - ذنوب - ضمن السياق القرآني جاءت على سبيل الاستعارة بدليل أن هذه الآية تفريع على جملة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾ (الذاريات: ٥٦) باعتباره أن المقصود في سياقه إبطال عبادتهم غير الله، أي فإذا لم يفردني المشركون بالعبادة فإن لهم ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم، وهو يلمح إلى ما تقدم من ذكر ما عوقبت به الأمم السالفة من قوله ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ ﴾ (الذاريات: ٣٢) إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (الذاريات: ٤٦) والمعنى: فإذا ماثلهم الذين ظلموا فإن لهم نصيباً عظيماً من العذاب مثل نصيب أولئك... والكلام تمثيل لهيئة تساوي حظ الذين ظلموا من العرب بحظوظ الذين ظلموا من الأمم السالفة بهيئة الذين يستقون من قلب [البئر] واحد إذ يتساوون من أنصبائهم من الماء، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس. وهذا التمثيل قابل للتوزيع بأن يشبه المشركون بجماعة وردت على الماء وتشبه الأمم الماضية بجماعة سبقتهم للماء، ويشبه نصيب كل جماعة بالدلو التي يأخذونها من الماء[٣].

فالذنوب الأداة التي يستقى بها، تفصح ضمن السياق القرآني عن نصيب

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٢٣٨.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٢٦٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧ / ٣٠-٣١.

كل إنسان في الآخرة، وأية مخالفة توقفه يوم القيامة على نصيبه من العقاب حسبما درجة إثمه وعصيانه، فإذا كان نصيب الكفار هذا العذاب الشديد، فإن للمؤمنين نصيباً يترقى عليه في القيمة، فالذنوب إذاً إشارة إلى تخويف من مصير مؤذٍ يصيب في أجساد المعاندين ونفوسهم فهو معيار على كيفية بدون شرح أوزانها وطرقها وحجومها التي تشتد في كل يوم من أيام الآخرة.

٩. حرف الراء

٩ - ١: الرباط

للجذر (ربط) أصل واحد يدل على شد وثبات، من ذلك: ربطَت الشيء أربطه ربطاً. والذي يشدُّ به رباط، ومن الباب الرّباط: وهو ملازمه ثغر العدو، ورجل رباط الجأش - أي شديد القلب والنفس - ... ويقال أيضاً الرباط من الخيل الخَمس من الدوابّ فما فوقها[١]، وقد ذكر الفراهيدي في هذا الصدد: «المربطات: الخيول التي ربطت، وفي الدعاء "اللهم انصر جيوش المسلمين وسَراياهم ومرابطاتهم" يريد: خيلهم المرابطة... ويقال: هو المواظبة على الصلوات الخمس في مواقيتها. والرّباط: المداومة على الشيء»[٢]، ويذكر ابن دريد «ورَبطَتُ الشيء أربِطه وأربُطه ربطاً إذا شددته والفرس الربيط المربوط الذي لا يردد... والرباط الحبل الذي يربط به والرباط المقام في الثغور وهي المرابطة. وذكر بعض أهل العلم أن قوله عز وجل (ورابِطُوا) أي اصبروا على الطاعة والله أعلم، ومربط الفرس موضعه الذي يربط فيه بكسر الباء»[٣]، والرباط «هو ما تُشدُّ به القربة والدابة وغيرها والجمع رُبُط»[٤].

وربما سميت الخيلُ أنفُسها رِباطاً... وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: ألا أدُلكم على ما يَمحو الله بهِ الخَطايا ويَرْفع بهِ الدرجاتِ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغُ الوضوءِ على المكاره، وكَثْرةُ الخطى إلى المساجِدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاة فَذَلكم الرِّباطُ[٥].

وقد أشار ابن منظور إلى أن الرّباط في الأصل: «الإقامة على جِهادِ العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها فشّبه ما ذكر من الأفعال الصالحة به، وقيل:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٤٧٨.

(٢) العين: ٧ / ٤٢٣.

(٣) الجمهرة: ١ / ٢٦٢.

(٤) الصحاح: ٣ / ١٢٢٧.

(٥) سنن الترمذي: ١ / ٧٢ – ٧٣.

أصل المرابطة أن يربطَ الفريقانِ خيولهما في ثَغْرٍ كُلّ منهما مُعِدّ لصاحبه، فسمي المُقامُ في الثغور رِباطاً؛ ومنه قوله فذلكم الرِّباطُ أي إن المواظبة على الطهارة والصلاة كالجهاد في سبيل الله، فيكون الرّباطُ مصدرَ رابطت أي لازمت، وقيل: هو هاهنا اسم لما يُربطَ به الشيء أي يشدُّ، يعني أن هذه الخِلال تَرْبط صاحبها عن المعاصي وتكفهُ عن المحارم»[1].

وقد وردت لفظة (الرباط) في موضع واحد من القرآن الكريم[2]، في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠) وقد أشار سيد قطب إلى أن «ظاهر النص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ويخص (رباط الخيل) لأنه الأداة التي كانت بارزة عند الذين يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة، ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين، مما سيجد مع الزمن لخطابهم بمجهولات محيرة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - المهم هو عموم التوجيه، لأنه لا بُدّ للإسلام من قوة ينطلق بها في (الأرض) لتحرير الإنسان»[3]، وبهذا فإن الله تعالى يوجه المسلمين أن يعدوا للكفرة بربهم قوة، متمثلة بالآلات من السلاح والخيل، فتكون عندئذ هذه العدة قوة لكم على الكفرة فقيل (ومن رباط الخيل) قيل الإناث[4].

وقد ذهب الرازي أيضاً في تفسيره للفظة -رباط-: إلى أن الرباط هو «المرابطة أو جمع ربيط، ولا شك أن ربط الخيل من أقوى آلات الجهاد، فمعنى الرباط هاهنا - الخيل المربوطة في سبيل الله وفسر بالإناث لأنها أولى ما يربط بتناسلها ونمائها بالولادة، فربطها أولى من ربط الفحول، وقول آخر يقول: بل حمل هذا اللفظ على الفحول لأن المقصود من رباط الخيل المحاربة عليها، ولا شك أن الفحول أقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة عليها أسهل فوجب تخصيص هذا اللفظ بها، ولما وقع التعارض بين هذين الوجهين حمل اللفظ على

---

(١) لسان العرب: ٧ / ٣٠٢ -٣٠٣ مادة (ربط).

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٠٠.

(٣) في ظلال القرآن: ١٠ / ٤٨.

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٠ / ٣٦-٣٧.

مفهومه الأصلي، وهو كونه خيلاً مربوطاً سواء كان من الفحول أو من الإناث»[١].

وهذا ما ذهب إليه البيضاوي في تفسيره اللفظة فقال: هي «اسم للخيل التي تربط في سبيل الله فقال بمعنى مفعول أو مصدر سمي به فيقال: ربط رباطاً ورابط مرابطة ورباطاً، أو جمع ربيط»[٢]. إلا أننا نرى الدلالة المعنوية للفظة (الرباط) في سياق الآية الكريمة تكمن من وراء اللفظة معنى يبين قيمة (الرباط) في لغة الخطاب إلى الجماعة المؤمنة أن تتحد وتتآزر وتتفاعل لتشكل قوة تحطم كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، وهذا ما أشار إليه سيد قطب في ظلاله حين قال: «بأن معنى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾ (الانفال: ٦٠) هو يعني تشكيل قوة لا يضاهيها قوة على الأرض، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة، تحرير الإنسان وهذه القوة تُذهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على (دار الإسلام) التي تحميها هذه القوة»[٣].

وكما هو معروف أن دلالة (الرباط) في العرف الاجتماعي المعاصر هو ما تشد به القربة والدابة وغيرها، أما في السياق القرآني للفظة فإن القرآن يشير إلى أداة جهادية متمثلة بالسلاح والخيل لتشكل قوة لتحرير الإنسان من براثن الكفر.

٩ - ٢: الرَحْل - الرِحَال

للجذر (رحل) أصل واحد يدل على مُضيّ في سفر يقال: رَحل يَرْحَل رِحْلَة ... والرِّحلة: الارتحال، فأما الرَّحل في قولك هذا رَحْلُ الرّجل، يطلق على منزله ومأواه، فهو من هذا لأن ذلك إنما يقال في السَّفر لأسبابه التي إذا سافر كانت معه، يرتحل بها وإليها عند النزول هذا هو الأصل[٤]، «والرَحل: معروف رحل البعير

(١) مفاتيح الغيب: ١٥ / ١٩١-١٩٢.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٣ / ١١٨.

(٣) في ظلال القرآن: ١٠ / ٤٩.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٤٩٧.

والجمع رحال وأدنى العدد أرحل»[١]. والرحل أيضاً «مسكن الرجل وما يستصحبه من الأثاث، أما الرحال فهي الطنافس الحِيرِيَّة والراحِلَةُ الناقة التي تصلح لأن تَرْحَل. وكذلك الرُحولُ. ويقال أيضاً الرَاحِلَة: المَركَبُ من الإبل، ذكراً كانت أو أنثى»[٢].

بينما ذكر الأصفهاني أن الرحل: «يطلق تارة على ما يوضع على البعير وتارة البعير نفسه، وتارة أخرى مما يجلس عليه في المنزل وجمعه رحال»[٣]، والرِحال: «الأوعية التي يضع فيها المسافر زاده ومتاعه وغيرها على ظهر الدواب وهي مثل السرجُ»[٤]، ومن المجاز: «رَحلتُ الَرجل رحلاً، وارتحلته ارتحالاً: ركبته وعن النبي محمد (ﷺ) حين ركبه الحسين فأبطأ في سجوده " إن ابني ارتحلني " ...»[٥]، ويقال أيضاً «لأرْحَلنّك بسيفي، ورَحَله بسيفه: إذ أعلاه به ... ويقال استرحل الناس نفسَهُ: أذلها لهم فهم يركبونها بالأذى... ومشت رواحله إذا شاب وضعف وحطَّ فلان رحله، وألقى رحله: أقام»[٦]، فالرحل إذاً «كل شيء للرحيل من وعاء للمتاع وغيره»[٧].

وقد وردت اللفظة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[٨]، في قوله تعالى: ﴿ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ ﴾ (يوسف: ٦٢) وقد ذهب الطوسي إلى أن «الرحال هنا جمع وهو الشيء المعد للرحيل من وعاء المتاع أو مركب من مراكب الجمال، وجمعه في القليل أرحل وفي الكثير رحال، وإنما جعل بضاعتهم في رحالهم ليقوي دواعيهم في الرجوع إليه إذ رأوا إكرامه إياه، ورد بضاعتهم إليهم مع جدوب الزمان

---

(١) الجمهرة: ٣ / ١٤٢.

(٢) الصحاح: ٤ / ١٧٠٦-١٧٠٧.

(٣) المفردات: ٢٧٨.

(٤) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢١٥.

(٥) سنن النسائي: ٢/ ٢٢٩، رقم الحديث (١١٤١)، سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا (مكتب دار الباز، مكة المكرمة: ١٩٩٤م): ٢ / ٢٦٣ وينظر: أساس البلاغة: ٢٢٥.

(٦) أساس البلاغة: ٢٢٥.

(٧) متن اللغة: ٢ / ٥٦٣.

(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٠٤.

وشدته»[١]، ومثيل اللفظ في قوله تعالى ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ (يوسف: ٧٠) فالرحل هنا آلة السفر من وعاء أو مركب. ففي الآية الكريمة قصد بها وعاء أخي يوسف (ﷺ) الذي يحمل فيه طعامه[٢]، وتكتمل القصة في سياق قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ (يوسف: ٧٥) فقد أوضح الرازي ذلك في قوله «لقد كان الناس في ذاك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا، والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد في رحله فهو جزاؤه»[٣].

وكان هدف يوسف (ﷺ) من كل ذلك أن يستبقي أخاه معه، وهو قد علم من قبل هذا الحكم، وهكذا تركهم يوسف (ﷺ) يحكمون بأنفسهم الحكم الذي يصبو إليه، وهو بقاء أخيه معه[٤].

فالرحل يعد أداة السفر سواء أكان لخزن الأشياء أم حملها تحول ضمن السياق القرآني إلى أداة برهان لتحقيق معجزة قادمة وصفتها لنا سورة يوسف (ﷺ) بثوابت تحقيق نبوءة يوسف (ﷺ) ونجاته من تآمر إخوته عليه هذا من طرف ومن طرف آخر، كانت هذه الأداة ذريعة تقرب بها يوسف إلى إخوته من دون أن يشعروا.

٩ - ٣: الرق

للجذر (رق) أصلان أحدهما صفة تكون مخالفة للجفاء، والثاني اضطراب شيء مائع، فالأول: الرقّة يقال: رقّ يرِق رقّة فهو رقيق، ومنه الرُّقَاق وهي الأرض اللينة.

والرِّق: الذي يكتب فيه، معروف. ومما شذ عن البابين (الرُّقّ): ذكر

(١) تفسير التبيان: ٦ / ١٦٢.

(٢) ينظر: التبيان: ٦ / ١٦٩.

(٣) مفاتيح الغيب: ١٨ / ١٨٤.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي: ١١ / ٧٠٢٦.

السَّلاحِف إن كان صحيحاً[١]. و(الرَّقُ): «الصحيفة البيضاء، والرَّقُ من دواب الماء يشبه التمساح»[٢]، وقد يكسر ويقال (الرِقُ) وأصله من اللمعان[٣]، ومن المجاز: «في حاله رِقَّة، وعجبت من قِلّة ماله ورِقة حاله، وهو رقيق الدّين ورقيق الحال... ورقَّ له قلبي... ورقق كلامه... ورفق مشيه إذا مشى مشياً سهلاً»[٤]، كما تطرق دوزي إلى أنه عند قولنا: «رَقُ غزال يعني جلد غزال رقيق يكتب فيه، وهو جلد مدبوغ لصغار المعز والغنم ولدت ميتة»[٥]. والرَقُ أيضاً: «هو ما يكتب فيه من ألواح وغيرها وأصله الجلد الرقيق يكتب فيه»[٦]، وكذلك قيل الرَّقُ: «الصحائف التي تخرج إلى بني آدم، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله»[٧]، إلا أن ابن السكيت قال: «أما الرَّقُ من المِلك ويقال عبد مرقوق»[٨].

فقد وردت لفظة (الرَّقُ) في موضع واحد من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ ﴾ (الطور: ٢-٣) وذكر القرطبي أن معنى الرَقّ هنا هو: «الصحائف وتعني القرآن مكتوب يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ ﴾ (الواقعة: ٧٧-٧٨) وقيل: إنه كان كل كتاب في رَقّ ينشره أهله لقراءته، وأيضاً فسر بأنه هو ما كتب الله لموسى (ﷺ) بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم وقيل أيضاً صحائف الأعمال... فالرق ما رُقّق من الجلد ليكتب فيه... هكذا تعددت الأقاويل والتفاسير في قوله تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ ﴾ (الطور: ٢-٣) لكن المعنى المراد، ما قاله الفراء والله أعلم: وكل صحيفة فهي

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٣٧٦ – ٣٧٧.

(٢) العين: ٥ / ٢٤.

(٣) ينظر: متن اللغة: ٢ / ٦٣٢-٦٣٣.

(٤) أساس البلاغة: ٢٤٦.

(٥) تكملة المعاجم العربية: ٥ / ١٨٠-١٨١.

(٦) لسان العرب: ١٠ / ١٢١-١٢٣ مادة (رقق).

(٧) معاني القرآن، الفراء: ٣ / ٩١.

(٨) إصلاح المنطق: ٤.

رقٌّ لرقة حواشيها»[١].

وهذا ما أشار إليه الصابوني أيضاً حين قال «أي في أديم من الجلد الرقيق (منشور) أي مبسوط غير مطوي وغير مختوم عليه»[٢].

والفائدة في قوله تعالى: ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ هو «الإشارة إلى الوضوح وذلك لأن الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه في (رق منشور) وليس كالكتب المطوية وعلى هذا المراد اللوح المحفوظ فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته، وإن قلنا بأن المراد كتاب أعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه وفي رق منشور لبيان وصفه، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ (الإسراء: ١٣) وذلك لأن غير المعروف إذا وصف كان إلى المعرفة أقرب شبهاً»[٣].

هكذا يظهر لنا السياق القرآني عمق محتوى ظاهر لفظة - الرّقّ - بصورة فنية رائعة تكشف لنا بأن ما نزل الله من أحكام وشرائع ومعارف مدون في هذه الأداة الهينة الشكل، ألا وهي الرق الجلد الرقيق الذي صار محتوى لدستور الله ومن ثم يصبح دستور الحياة فيا لعظمة الخالق وحكمته في ذلك.

٩ – ٤: الرقيم

للجذر (رقم) أصل واحد يدل على خط وكتابة، وما أشبه ذلك، فَالرَّقَم: الخَطّ، والرَقِيم: الكتاب[٤]، وقد ذهب ابن دريد إلى أن كل نقش هو رقم وبه سمي الأرقم في الحيات للنقش في ظهره، والرقم أيضاً الخط في الكتابة وبه سمي الكتاب رقيماً ومرقوماً[٥].

وقد ذهب ابن منظور إلى أن الرّقم والترقيم: تعجيم الكتاب ورقم الكتاب يرقمه رقماً: أعجمه وبينه... والرقيم يعني اللوح وبه فسر قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٤٠-٤١.

(٢) صفوة التفاسير: ٣ / ٢٦٢.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٢٤٠-٢٤١.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٤٢٥.

(٥) ينظر: جمهرة اللغة: ٢ / ٤٠٥.

أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ (الكهف: ٩) وقيل: إن الرقيم لوح من الرصاص كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصصهم[١].

وهذا ما أشار إليه ابن قتيبة بأن الرقيم: «يعني لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف، ونصب على باب الكهف»[٢]، أو «اسم وادٍ دون فلسطين قريب من ابلة والكهف في ذلك الوادي»[٣]، وقد فسر المفسرون لفظة - الرقيم - بعدة دلالات مختلفة واختلفوا في معناها، فقال قوم: «هو اسم قرية، وفي رواية أخرى أنه وادٍ بين غضبان وابلة دون فلسطين، وقيل هو كتاب تبيانهم، وقيل هو لوح من حجارة كتب فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف، وقيل جعل ذلك اللوح في خزائن الملوك لأنه من عجائب الأمور»[٤].

وهذا أيضاً ما أشار إليه الرازي بأن في الرقيم أقوالاً كثيرة منها أنه «اسم القرية التي خرجوا منها، وكذلك يعني لوحاً من حجارة وقيل من رصاص كتبت فيه أسماؤهم وقصتهم، وشدّ ذلك اللوح على باب الكهف، وهذا قول جميع أهل المعاني والعربية قالوا الرقيم الكتاب»[٥]، وهناك رواية أخرى عن أنس بن مالك قال: «الرقيم يعني الكلب»[٦]. غير أن القرطبي أشار إلى أن «الفتية فقدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك، فقال: ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحاً من رصاص فكتب فيه أسماءهم، وجعله في خزانته فذلك اللوح هو الرقيم»[٧]. وهذا أيضاً ما ذهب إليه الشعراوي حيث قال: «الرقيم الشيء المرقوم أي: المكتوب عليه كحجر أو نحوه، ولعله حجر كان على باب الكهف رقم عليه أسماء هؤلاء الفتية»[٨]. وعلى الرغم من تعدد معنى اللفظ - الرقيم - واختلافه إلا أن

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٢ / ٢٤٨، مادة (رقم).

(٢) تفسير غريب القرآن: ٢٦٣.

(٣) معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٥١٣.

(٤) التبيان: ٧ / ١٠.

(٥) مفاتيح الغيب: ٢١ / ٨٣.

(٦) الإتقان في علوم القرآن: ٤ / ٧٦- ٧٧.

(٧) الجامع لأحكام القرآن: ١٠ / ٢٣٢.

(٨) تفسير الشعراوي: ١٤ / ٨٨٤٧.

السياق القرآني جسد معنى هذه اللفظة في كونها وسيلة وأداة تجسد حياة قوم مؤمنين وجعلها دليلاً وبرهاناً على عظمة الله وقدرته ومعجزته الإلهية التي صارت حديث الناس خالف عن سالف.

٩ - ٥: الرماح

للجذر (رمح) أصل واحد ثم يَصرف منه، فالكلمة الرُّمْح وهو معروف، والجمع رماح، وأرماح[١]، وقال الفراهيدي: «والرمح واحد الرّماح... أخذت البهيمة رِماحَها إذا امتنعت عن المراعي»[٢] وقد ذهب الجوهري إلى أن «الرُمْحُ جمعه رِماح وأرماح ورَمحه فهو رامح طعنه بالرُمحْ. ورجل رامحٌ، أي ذو رُمْح؛ ولا فعل له»[٣]. ومن المجاز: «طلع السِّماك الرامح. وركض الجُندَبُ ورَمَح. ضرب الحصى برجله، وأخذت الإبلُ رِماحها: منعت بحسنها أن تُنحر.. وأصابته رماح الجن: الطاعون. وكسروا بينهم رمحاً: وقع بينهم شرّ، ومُنينا بيوم كظل الرّمح: طويل وضيق»[٤] وقد عرف ابن منظور الرمح بقوله: «والرُمح من السلاح معروف واحد الرماح»[٥]، والرُمح أيضاً: «عود طويل في رأسه حربة للطعن به»[٦]، والرُمحْ من السلاح: «قناة يركب فيها سنان يطعن به»[٧]، وقيل أيضاً: إن الرمح من المحراث الخشبة التي يمسك بها الحّراث وهم على فلان رَمحٌ واحدٌ: مُتّحِدون[٨].

وقد وردت اللفظة - الرماح - في موضع واحد من القرآن الكريم[٩]، وبصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٤٣٧.

(٢) العين: ٣/ ٢٢٦.

(٣) الصحاح: ١/ ٣٦٦.

(٤) أساس البلاغة: ٢٥١.

(٥) لسان العرب: ٢ / ٤٥٢، مادة (رمح).

(٦) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٣١.

(٧) معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٥١٧.

(٨) ينظر: المعجم الوسيط: ١ / ٣٧٢.

(٩) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٤٢.

﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ (المائدة: ٩٤) وقد فسر القرطبي قوله تعالى بأن في الآية بياناً «لحكم صغار الصيد وكباره، ... لأن الأيدي تنال الفراخ والبيض ما لا يستطيع أن يَفِرّ، والرماح تنال كبار الصيد، وقيل أيضاً في تفسير هذه الآية بأنه كل شيء يناله الإنسان بيده أو برمحه أو بشيء من سلاحه فقتله فهو صيد كما قال تعالى ... وخص الرِّماح بالذكر لأنها عُظْم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه»[1] وعلق الصابوني أيضاً حول تفسير الآية ذاتها بقوله: «أي ليختبركم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد صغاره الأيدي وكباره الرماح»[2].

إذاً السياق القرآني يصور لنا المشهد حيث يتخيل لك منظر الوحوش والطيور تغشى المكان ويقدر كل إنسان أن يتناولها بيده، ويصيدها بالرماح لقربها منه، وقد نهانا الله عنها ابتلاء منه، فنرى أن استخدام اللفظة ظاهرياً بوصفها آلة للصيد لكننا نستشف معنى ينطوي وراء ظاهر اللفظة أرادهُ الله، وهو الامتحان لصبر العباد وثباتهم وخوفهم من الله في كونهم أنهم يمتلكون القدرة على الصيد بالرماح والأيدي لقُرب الوحوش والطيور من رماحهم إلا أنهم لا ينالونها خوفاً وخشيةً من الله.

إلا أن الرازي أشار إلى معنى الخوف والخشية من الله حين أوضح تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ (المائدة: ٩٤) فقال: وفيه مسائل:

المسألة الأولى: «إن هذا مجاز لأنه تعالى عالم لم يزل ولا يزال، واختلفوا في معناه فقيل: نعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم، وقيل: ليظهر المعلوم وهو خوف الخائف وقيل: هذا على حذف المضاف والتقدير: ليعلم أولياء الله من يخافه للغيب.

المسألة الثانية: قوله بالغيب فيه وجهان: الأول: من يخافه حال إيمانه بالغيب... والثاني: من يخاف بالغيب أي يخافه بإخلاص وتحقيق ولا يختلف الحال بسبب حضور أحد أو غيبته، كما في حق المنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ١٩٤.

(٢) صفوة التفاسير: ١ / ٣٦٤.

المسألة الثالثة: الباء في قوله بالغيب في محل النصب بالحال والمعنى من يخافه حال كونه غائباً عن رؤيته»[١].

نخلص من ذلك أن الرمح آلة للصيد ووسيلة للدفاع والهجوم، ولكن عند اجتماع قوة الرمح مع روح الدعوة التي تؤمن بها يمكن أن يكون لهذه اللفظة الحكم النهائي في فصل المواقف.

(١) مفاتيح الغيب: ١٢ / ٩١-٩٢.

١٠. حرف الزاي

١٠ - ١: الزُبر

للجذر (زبر) أصلان أحدهما يدل على أحكام الشيء وتوثيقة، والآخر: يدل على قراءةٍ وكتابة وما أشبه ذلك ... ويقال زَبَرْت الكتاب، إذا كتبت ومنه الزَّبور وربما قالوا: زَبرته إذا قرأته[١]، وقيل الزُّبرُ هي الكتب واحدها: زبور ويقال: زبرتُ وذبرتُ أي كتبت[٢].

والزَّبور أيضاً: «طي البئر، تقول زَبَرْتها أي طويتها، والزبور الكتاب، وهو اسم الكتاب الذي أنزل على داود (ﷺ)... أما الزُّبرة: قطعة من الحديد ضخمة، والزَّبر: الشديد»[٣]، وقيل: «وقد نطقت به الزُّبرُ أي الكتب، ورأيت في يده زِبْراً وزبوراً، وأنا أعرف بزِبْرتي أي بكتبتي... ومن المجاز ماله زَبْر: عقل وتماسك»[٤].

ويقال أيضاً: «الزُّبْر: هو وضع البنيان بعضه على بعض، ... والمِزْبَر (بالكسر): القلم»[٥]، ووردت لفظة (زبر) وما اشتق منها في التنزيل العزيز على خمسة وجوه منها:

الوجـــه الأول: الزُّبر تعني حديث الأمم لمن أمرهم في الكتب فذلك قوله في آل عمران ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ (١٨٤)، يعني الآيات التي كانت تجيء بها الأنبياء إلى قومهم، ما كان فيها من المواعظ وكذلك في سورة فاطر الآية (٢٥).

الوجه الثاني: الزُّبر يعني الكتب في قوله تعالى في الشعراء ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ﴾ (الشعراء: ١٩٦) يعني: نعت محمد (ﷺ) لفي كتب الأولين وقوله في الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) يعني في الكتب كلها.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٤٤-٤٥.

(٢) ينظر: مجاز القرآن: ١ / ٣٥٩.

(٣) العين: ٧ / ٣٦٢، ٣٦٣ وينظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٣٨.

(٤) أساس البلاغة: ص ٢٦٦.

(٥) لسان العرب: ٤ / ٣١٥، مادة (زبر).

الوجه الثالث: الزّبر يعني اللوح المحفوظ، في قوله (اقتربت) أي في سورة القمر: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ (القمر: ٥٢) يعني في اللوح المحفوظ.

الوجه الرابع: الزبر يعني القطع، فذلك قوله في الكهف: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ (الكهف: ٩٦) يعني قطع الحديد، وقوله في قد أفلح: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ (المؤمنون: ٥٣) يعني قطعاً.

الوجه الخامس: زبور داود (ﷺ)، فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (النساء: ١٦٣) يعني كتاب داود (ﷺ) نظيرها في بني إسرائيل، يعني سورة الإسراء[١]. وقد قال أبو هلال العسكري: «والفرق بين الزبر والكتب أن الزبر الكتابة في الحجر نقراً ثم كثر ذلك حتى سمي كل كتابة زبراً، وقال أبو بكر: أكثر ما يقال وأعرفه الكتابة في الحجر... وأصل الكلمة الفخامة والغلظ وفيه سميت القطعة من الحديد زبرة... ويجوز أن يقال الزبور كتاب يتضمن الزجر عن خلاف الحق من قولك زَبَره إذا زجره وسمي زبور داود لكثرة مزاجره»[٢].

وردت لفظة (الزُّبر) وما اشتق منها في تسعة مواضع من القرآن الكريم[٣]، وقد ذكرت وجوه اللفظة آنفا، إلا أن ما يعنينا من ورود لفظة (الزبر) بوصفها أداة يمكن الانتفاع منها، في قوله تعالى: ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ (فاطر: ٢٥) وقد فسر الزمخشري معنى قوله تعالى «بالبينات وبالشواهد على صحة النبوة وهي المعجزات (وبالزُّبر) وبالصحف (وبالكتاب المنير) نحو التوراة والإنجيل والزبور، لما كانت هذه الأشياء من جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقاً»[٤].

وقد ذهب الرازي أيضاً إلى أن الزّبر تعني الكتاب بقوله: «يعني أنت جئتهم

---

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، هارون بن موسى: ٢٠٠.

(٢) الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري: ٢٨٦.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٣٢٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري: ٣ / ٦٠٩.

بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضاً آتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمداً (ﷺ) ﴿ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (فاطر: ٢٥) والكل آتيناها محمداً»[١]، ويعني ذلك «أنهم كذبوا الرسل مع أن رسل ربهم قد جاءوهم بما يكفي لإقناعهم بأن ما دعوهم إليه هو الحق من ربهم، الذي لا شك فيه، ولا ريب يخدشه... فدلت هذه العبارة على أن بعض الرسل آتاهم الله عز وجل زبراً، وأن بعضهم آتاهم الله كتاباً منيراً، والجمع في لفظ زبر دون لفظ (الكتاب المنير) يشعر بأن أكثر الرسل كان ينزل الله على الواحد منهم (زبوراً) وأن الأقل من الرسل كان ينزل الله عليه (كتاباً منيراً) مثل التوراة والإنجيل والقرآن المجيد»[٢]، وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (آل عمران: ١٨٤) فقد أوضح الصابوني قوله تعالى بأن: «الملأ كذبوا الرسل مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة (والزبر والكتاب المنير) أي بالكتب السماوية المملوءة بالحكم والمواعظ والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل»[٣]، غير أن سعيد حوى قال: «والملاحظ أن الزبر والكتاب بمعنى واحد، فما الفارق بينهما؟ قال النسفي، قيل: هما واحد في الأصل وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين فالزبور كتاب فيه حكم زاجرة، والكتاب المنير هو الكتاب الهادي»[٤].

فالسياق القرآني يظهر جلياً دلالة لفظ - الزبر - بأنها أداة وحجة تدين المعاندين والمارقين والمكذبين بالكتب الإلهية فالزبور هي للهداية والتقويم والإرشاد الروحي، ولا بُدّ من الاقتداء بها مثل الإمام والطريق، فإن هذه الأداة العلمية تحدد المسارات البشرية المستقيمة بما ابتنيت عليه من تعاليم أكثر استقامة.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٦ / ١٨-١٩.

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٧ / ٤٤١.

(٣) صفوة التفاسير: ١ / ٢٤٩.

(٤) الأساس في التفسير: ٢ / ٩٥٢.

١٠ - ٢: الزجاجة

للجذر (زج) أصل يدل على رقة في شيء، من ذلك زج الرمّح والسهم: وجمعه زجاج بكسر الزاء يقال زَجْجتُه جعلت له زُجاً فإذا نزعت زُجّه قلت: أزججتُه[١].

ويقال «للقدح زُجَاجة وزَجَاجة... وصانعه الزَّجَاج وحِرفته الزُّجاجة»[٢]، وفي المجاز: «اتكأ على زُجّيْ مرفقيه واتكاؤا على زِجاج مرافقهم ... وعضّه الفحل بزجاجه: بأنيابه، وزَجّ بالشيء: رمى به عن نفسه»[٣]. والزجاج: «جسم شفاف سهل الكسر يصنع من الرمل والقلي والقطعة منه زجاجة»[٤]، والزُّجاجَة أيضاً القطعة من الزجاجة - والقارورة والقنديل. وزُجاجة ساعة: في (علم الطبيعة): قطعة مستديرة مقعرة يوزن بها أو يوضع بها بعض المواد الكيماوية»[٥]. ويقال: «للقَدَحِ زُجاجَةٌ مضمومة الأول، وإن شئت فمكسوَرةٌ، وإن شئت فمفتوحةٌ، وكذلك جَمعها زُجاجٌ»[٦].

وقد وردت لفظة (الزجاجة) في موضع واحد من القرآن الكريم[٧]، في قوله تعالـــى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ (النور: ٣٥) وقد أشار الطوسي إلى أن الله منور السماوات بالشمس والقمر والنجوم فأراد الله تعالى في هذه الآية أن يوجه ضرب المثل لنوره الذي هو هدايته في قلوب المؤمنين بالمشكاة فيها، ويكون المصباح في زجاجة وتكون الزجاجة مثل الكوكب الدري - فمن ضم الدال - منسوب إلى الدر في صفائه ونوره، ومن

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٧.

(٢) المخصص: ٣ / ٨٦.

(٣) أساس البلاغة: ٢٦٧.

(٤) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٣٩.

(٥) المعجم الوسيط: ١ / ٣٩٠.

(٦) إصلاح المنطق: ١٠٦.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٣٠.

كسر الدال شبهها بالكوكب في سرعة تدفقه بالانقضاض(١)، وقد ذهب الرازي في شرح كيفية التمثيل إلى مسائل عديدة منها: «أن المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإن الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى بعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور، والذي يحقق ذلك، أن شعاع الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء، فإن انعكست تلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر كثرت الأنوار والأضواء وبلغت النهاية الممكنة»(٢)، وقد ذكر القرطبي أن سبب قوله تعالى (في زجاجة) -والله أعلم- لأنه جسم شفاف والمصباح فيها أنور منه في غير الزجاج(٣).

وقد أشار الزركشي إلى أن الله أراد تشبيه نوره الذي يلقيه في قلب المؤمن، ثم مثله بمصباح؛ ثم لم يقنع بكل مصباح؛ بل بمصباح اجتمعت فيه أسباب الإضاءة، بوضعه في مشكاة؛ وهي الطاقة غير النافذة؛ وكونها لا تنفذ؛ لتكون أجمع للتبصر، وقد جعل فيها مصباح في داخل زجاجة، فيه الكوكب الدري في صفائها، ودهن المصباح من أصفى الأدهان وأقواها وقوداً، لأنه من زيت شجر في أوسط الزجاج، وهذا مثل ضربه الله للمؤمن(٤)، وقد علق سيد قطب أيضاً مفسراً قوله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ يبين أهمية الزجاجة بكونها أداة تقي المصباح من الريح وتصفي نوره فيتألق ويزداد ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾، فهي بذاتها شفافة رائعة مثيرة وصولاً بين المثل والحقيقة بين الأنموذج والأصل، حين يرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير كي لا ينحصر التأمل في الأنموذج الصغير الذي جعل لتقريب الأصل الكبير(٥).

ومما هو ملاحظ أن تشبيه الزجاجة بالكوكب هو زيادة في صفة نور

---

(١) ينظر: التبيان: ٧ / ٣٨٧.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٣ / ٢٣٣.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٢ / ١٧١.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٤٢٣.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ١٨ / ١٠٥.

المصباح وأضاءته ومبالغة في نعت إشراقه وتألقه[١]. فالسياق القرآني هنا يظهر لنا هذا التدرج في العرض الصوري لأوصاف نور الله والكيفية المقربة للنور الذي عم السماوات والأرض بأدوات بسيطة قريبة إلى أذهان البشر وإدراكهم ومنها الزجاجة التي هي أداة تقي المصباح من الريح حتى لا ينطفئ نوره وتنقيه فيتألق ويزداد، ومن شفافيتها وصفائها وهي منيرة، وشبه نقاءها وصفاءها بالكوكب الدري.

١٠ - ٣: الزرابي

الجذر (زرب) يدل على بعض المأوى فالزّرب زرب الغنم وهي حظيرتها[٢] والزرابي: «بساط طوله أكبر من عرضه»[٣]. والزرابي أيضا «جمع زَرْب: وهو ضرب من الثياب محبر منسوب إلى موضع»[٤].

والزرابي تعني أيضاً «كل ما بُسط واتكئ عليه، وقيل هي الطنافس، والواحد من كل ذلك زربية بفتح الزاء وسكون الراء»[٥]، وقيل هي «الوسائد الفاخرة يجلس عليها ومفردها زربية»[٦] والزرابي «تعريب (زَرْاب) ومعناها ماء الذهب أو الماء الأصفر، ويطلق على كل ما صُبغ بالصفرة»[٧].

إذاً الزرابي: «النمارق، والوسائد أو البسط، والطنافس لها خمل رقيق، ولهذا خصصها مجمع مصر، وأطلق الطنافس والسجادات إطلاقا عاماً»[٨].

ومما هو واضح من ظاهر لفظة - الزرابي - بأنها أداة للراحة نتداولها في حياتنا العامة ووسيلة للاتكاء في ارتياح، فقد استخدمها القرآن الكريم عن طريق التشبيه والاستعارة في موضع واحد. في قوله تعالى: ﴿ وَزَرَابِيُّ

(١) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن: ١٦٦.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٥١.

(٣) المخصص: ١ / ٧٤.

(٤) المفردات: ص ٣١١.

(٥) لسان العرب: ١ / ٤٤٧.

(٦) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٤٠.

(٧) الألفاظ الفارسية المعربة: ٧٧.

(٨) معجم متن اللغة: ١٠ / ٢٤.

مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (الغاشية: ١٦) .

وقد أشار الطوسي إلى تفسير اللفظة في الآية الكريمة بأنها تعني «البسط الفاخرة»[١]. وكذلك فسرها ابن الجوزي بأنها: «.. (الطنافس) التي لها خمل رقيق، وقال: قال المفسرون: لما نعت الله سبحانه وتعالى ما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر، فذكر صنعه»[٢]. أما القرطبي فقد أشار إلى اختلاف المفسرين في وصف شكل هذه الأداة إذ قال:

«منهم من قال أنها مصفوفة بعضها فوق بعض، ومنهم من قال أنها كثيرة وغيرهم قالوا أنها متفرقة في المجالس، والأصوب أنها كثيرة ومتفرقة»[٣].

ومهما كان شكلها لا يعنينا بقدر ما توحيه إلينا هذه الأداة، من أنها وجدت للارتياح وطلب النعيم للمقربين عند الله وللذين قسم لهم الله هذا النعيم الأبدي جزاء أعمالهم الطيبة والخيرة وشكرهم لنعمه الفضيلة عليهم، وهذا ما أشار إليه سيد قطب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (الغاشية: ١٦) إذ قال: «مبثوثة هنا وهناك للزينة والراحة سواء! وهي من مناعم مما يشهد له أشباها في الأرض، وتذكر لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض، أما طبيعتها وطبيعة النعيم بها فهي موكولة إلى المذاق هنا للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق ومن اللغو الدخول في طبيعة النعيم - أو طبيعة العذاب - في الآخرة فإدراك طبيعة شيء ما متوقف على نوع هذا الإدراك وأهل الأرض يدركون بحس مقيد بظروف هذه الأرض وطبيعة الحياة فيها»[٤].

---

(١) التبيان: ١٠ / ٣٣٦.

(٢) زاد المسير في علم التفسير: ٩ / ٩٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٢٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٣٠ / ٥٦٢-٥٦٣.

١١- حرف السين

١١ - ١: السبب - الأسباب

للجذر (سَب) حَدّهُ بعض أهل اللغة وظنه ابن دريد فقال: إن أصل هذا الباب القَطع، ثم اشتق منه الشَّتم وهذا الذي قاله صحيح، وأكثر الباب موضوع عليه، ومن ذلك السِّبَ: الخِمار، لأنه مقطوع من منِسَجه «وأما الحبل فالسّبب، ممكن أن يكون شاذًا عن الأصل الذي ذكرناه، ويمكن أن يقال: إنّه أصلٌ آخر يدل على طول وامتداد، ومن ذلك السَّبَب»[١]، ومنه السِبُّ بلغة هذيل وفي قول أبي ذؤيب الهذلي:

تَـدلّى علـيها بـين سِبَّ وخَيْطةٍ ... بجرداءَ مِثْلِ الوَكفِ يَكبُ غُرابُها[٢]

ويقال السِبُّ: «شُقَّة كتانٍ رفيقة، والسَبيبة مِثْلُه، والسبب الحبل والسَّبَب أيضاً: كل شيء يتوصل به إلى غيره، والسبب اعتلاق قَرَابةٍ»[٣] أسباب السماء: نواحيها في قول الأعشى

لَـئِنْ كُـنتَ في جُـبّ ثمانينَ قامةً ... وَرُقِّـيت اسـبابَ السماءِ بِسُلَّمِ[٤]

وجمع السبب أسباب وقيل الأسباب: «تعني المودة، وقيل أيضاً الأسباب: تعني المنازل قال الشاعر: وتَقَطعتْ أسبابها ورِماحُها. فيه الوجهان معاً: المودة والمنازل، والله عز وجل مُسَبب الأسباب، وأسباب السماء: مَراميها ... وقيل: أسباب السماء نواحيها»[٥].

وقال الزمخشري: «وإياك والمَسبة والمَسابُ... وانقطع السّبب أي الحبل، ومالي إليه سبب طريق، ومن المجاز: خيل مُسَببة، يقال لها: قاتلها الله أو أخزاها إذا استجيدت... وامرأة طويلة السبائب وهي الذوائب وعليه سبائب الدم: طرائقه..

---

(١) ينظر: مقاييس الغة: ٣ / ٦٣ _ ٦٤.

(٢) ديوان الهذليين: ٧٩.

(٣) الصحاح: ١ / ١٤٥.

(٤) ديوان الأعشى الأكبر ميمون بن قيس: ١٧٦.

(٥) لسان العرب: ١ / ٤٥٨.

وانقطع بينهم السَّبب والأسباب: الوصُل... وسبب الله لك سبَبَ خير»[١].

وقيل أيضاً إن السبب «هو ما يكون طريقاً ومفضياً إلى الشيء مطلقاً، وهذا يشمل الصلة والسبب. وفي الشريعة: عبارة عما يكون طريقاً للوصول للحكم غير مؤثر فيه، وقيل: ما يكون طريقاً إلى الشيء من غير أن يضاف إليه وجود أو لا وجود، ثم ما يضاف عليه اسم السبب سواء إن كان بطريقة الحقيقة أم المجاز أربعة أقسام:

سبب حقيقي ويسمى سبباً مهيناً نحو ما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم من غير أن يضاف إليه وجوب الحكم أو وجوده، وسبب هو في معنى العلة: كقطع حبل القنديل المعلق: وسبب مجازي: كاليمين بالله فإنها سميت سبباً للكفارة باعتبار الصورة وتعليق الطلاق والعتاق. والسبب أيضاً: ما يكون وجود الشيء موقوفاً عليه كالوقت للصلاة[٢]، والسبب عند (العروضيين): «حرفان: متحرك فساكن أو متحركان، فالأول يسمى السبب الخفيف والثاني يسمى الثقيل ... وأسباب الحكم في (القضاء): ما تسوقه المحكمة من أدلة واقعية وحجج قانونية لحكمها»[٣].

فقد وردت لفظة (السبب) في ثمانية مواضع من القرآن الكريم[٤] إفرادا وجمعاً وبمعان ودلالات متنوعة في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج: ١٥) .

ذهب الرازي أن في لفظ السبب قولين (أحدهما) أنه الحبل وقد اختلفوا في السماء فمنهم من قال هو سماء البيت، ومنهم من قال هو السماء في الحقيقة، فقالوا المعنى: من كان يظن أنه لن ينصره الله، ثم يغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلاً إلى سماء بيته فاختنق. فلينظر أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه، وقال آخرون: المراد منه نفس السماء فإنه يمكن حمل الكلام على السماء فهو أولى

---

(١) أساس البلاغة: ٢٨١-٢٨٢.

(٢) ينظر: الكليات، الكفوي: ٢ / ٥٠٣-٥٠٤.

(٣) المعجم الوسيط: ١ / ٤١٣.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٣٨.

من حمله على سماء البيت لأنه أولى بأن يكون هو المراد ومعلوم أن مد الحبل إلى سماء الدنيا والاختناق به أبعد من الإمكان مده إلى سقف البيت

أما الذين قالوا: السبب ليس هو الحبل، فقد ذكروا وجهين (الأول) كأنه قال فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع بذلك السبب المسافة ثم لينظر فإنه يعلم أن معه تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كأنه لم يفعل شيئاً، (والثاني) كأنه قال: فليطلب سبباً يصل به إلى السماء فليقطع نصر الله لنبيه، ولينظر هل يتهيأ الوصول إلى السماء بحيلة، وهل يتهيأ له بذلك أن يقطع نصر الله عن رسوله (ﷺ)، فإن كان ذلك ممتنعاً لأن غيظه عديم الفائدة، والمقصد على كل هذه الوجوه معلوم، فإنه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه[١].

وهذا ما أشار إليه الفراء بقوله «أي من كان منكم يظن أن الله لن ينصر محمداً بالغلبة حتى يُظهر دين الله فليجعل في سماء بيته حبلاً ثم ليختنق به فذلك قولهم (ثُمَّ ليقطعَ) اختناقاً»[٢]. وتأكيداً لقول الفراء فقد ذكر سيد قطب في تفسيره للآية القرآنية بقوله: «أي فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق، ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق...، ثم ينظر هل ينقذه تدبيره ذلك مّما يغيظه»[٣].

هكذا يوضح السياق أن استخدام لفظة (السبب) التي وردت في هذه الآية بمعنى الحبل بدليل أردفه بـ (ليقطع)، وكما هو معلوم فإن الحبل أداة ووسيلة يستعان بها للتوصل إلى شيء غير قريب عنا بالتعلق به، فجاءت اللفظة على سبيل الاستعارة، وهذا يعني أن سبيل الفرج لا يأتي إلا بالتوجه إلى الله، واحتمال الأذى لا سبيل إليه إلا بالرجاء في نصر الله، وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب ومضاعفة الشعور به، والعجز عن دفعه بغير عون الله ... فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التي تنعم عليه من روح الله[٤].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٣ / ١٧.

(٢) معاني القرآن، الفراء: ٢ / ٢١٨.

(٣) في ظلال القرآن: ١٧ / ٥٨٧.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ١٧ / ٥٨٧.

فالسبب هنا جمع بين وظيفة الاستخدام (بوصفه الحبل) وحالة الإعجاز التي تعجز عن المساس بمناعتها الطاقات البشرية كافة، وأما استخدامه في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ (الكهف: ٨٩-٩٠) وهنا جاءت لفظة سبب بمعنى «طريق ومسلك وسبيل، ولما حكى الله تعالى ما قاله ذو القرنين أن من ظلم نعذبه وأن له عند الله عذاباً نكراً، أخبر أن من صدق بالله وحده وعمل الصالحات التي أمر الله بها: ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ الكهف: ٨٨) أي قولا جميلا ثم قال: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ ﴾ (الكهف: ٨٩) حتى ﴿ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي الموضع الذي تطلع منه مما ليس وراءه أحد من الناس فوجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل من دونها سترا، أي أنه لم يكن بتلك الأرض جبل ولا شجر ولا بناء لأن أرضهم لم يكن يبنى عليها بناء. فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم يغورون في المياه والأسراب وإذا غربت تصرفوا في أمورهم وقوله ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ ﴾ يعني طريقاً ومسلكاً لجهاد الكفار، فالسبب هنا «يعني الطريق أو السبيل»[(١)] ومثيل اللفظ وبالدلالة نفسها في الآيات (٨٤، ٨٥، ٨٩، ٩٢) من السورة نفسها أي بمعنى «الطريق الذي به يتوصل إلى تحقيق النبوة، والذين أنكروا كونه نبياً قالوا: المراد به وأتيناه من كل شيء يحتاج إليه في إصلاح ملكه سبباً»[(٢)]، وقد ذكر الشعراوي قائلاً: «أي لا يذهب بالغاية إلا بالوسيلة التي جعلها الله له، فقد مكن الحق لذي القرنين في الأرض، وأعطاه من كل شيء سببا، ومع ذلك لم يكن لذي القرنين إلا ما أعطى، فلم يتقاعس، ولم يكسل، بل أخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب»[(٣)].

وقد وردت اللفظة (الأسباب) بمعان أخرى منها: النواحي والفضل والدين وكذلك الأبواب في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ (ص: ١٠) فقد جاءت اللفظة بكل المعاني السابقة الذكر، أي في أبواب السماء إن كانوا صادقين قال زهير

---

(١) التبيان: ٧ / ٧٨ والكشاف: ٢ / ٧٤٣.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢١: ١٦٦ وينظر: قصص الرحمن: ٤ / ١٣٠-١٣١.

(٣) الشعراوي: ٤ / ٨٩٨٢.

في معلقته:

وَمَــنْ هــابَ أســبابَ المَنايَا يَنَلنَهُ ولــو رَامَ أســبابَ الــسّماءِ بِسُلَمِ

أي من تعرض للرماح نالته، ورام: معناه حاول، والأسباب: النواحي، وإنما عَنى بها كراهة أن تناله، لأن المنايا تنال من يهابها[1].

وكذلك اللفظ في سورة غافر ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (غافر: ٣٦) وقوله أيضاً: ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ (غافر: ٣٧) فقد ذهب الرازي في قوله بأن الأسباب في كلتي الآيتين تعني «المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا إليه ويدبروا أمر العالم ... علماً أن حكام الإسلام استدلوا في قوله تعالى ﴿ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ (ص: ١٠) على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب بالحوادث في العالم السفلي لأن الله تعالى سمي الفلكيات أسبابا»[2]، وهذا ما أشار إليه محمد مخلوف عندما فسر قوله تعالى: (أبلغ الأسباب)، وقوله (أسباب السماوات) أي: «طرقها وأبوابها، وهو كل ما يتوصل به إلى الشيء»[3].

هكـذا يتبين أن لفظـة (الـسبب) تـتعدد دلالاتهـا حـسب الـسياق القرآنـي، فالسبب الذي يهون على البشر عندما يكون حبلاً، يستحيل عليهم حينما يتحول إلى طرق في السماء.

١١ - ٢: السَّجل

للجذر (سجل) أصل واحد يدل على انصباب شيء بعد امتلائه من ذلك السَّجْل: وهو الدلْو العظيمة، ويقال سَجَلت الماء فانسجَلَ، وذلك إذا صببته... فأما السِّجِل فمن السَّجْل والمُساجلة، وذلك أنه كتابٌ يجمع كتباً ومعاني... ومن ذلك

(١) ينظر: شرح القصائد العشر: ٢٣٦.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٦ / ١٨٠.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٥٩٩.

قوله: الحرب سِجَالٌ: أي مباراة مرةً كذا ومرةً كذا[1]، فقد قال ابن دريد: «تساجل الرجلان إذا تفاخرا وأصله من تساجلهما في الاستقاء وهي المساجلة... والدَلو السَّجيل الواسعة، وناقة سجلاء عظيمة الضرع، أسجل فلان إذا كثر خيره وعطاؤه فهو مسجل، والسِجّل الكتاب وزعم قوم أنه فارسي معرب فقالوا سكَّل (يعني سه كل) أي ثلاثة ختوم»[2]، والسِّجل: «كتاب العُهْدةِ ويجمع سِجلاّت»[3]، أما السِجِلُّ فهو «الصَكُّ وقد سَجَّلَ الحاكم تسجيلاً»[4]، كما في قوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ ﴾ (الفيل: ٤) وقيل السجل: «حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلاً»[5]، والسجل أيضاً «الصحيفة وهو القرطاس الذي يدون فيه ما يراد حفظه أو هو الكاتب»[6]، في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) وقد ذهب السجستاني إلى أن السجل يعني الكتاب أي الصحيفة فيها الكتاب،أو قد يعني كاتباً كان للنبي (ﷺ) وتمام الكلام للكتب[7]، وقد أشار ابن منظور أيضا بقوله: «وقيل السّجِلُّ بلغة الحبش الرَّجُل وفي حديث يعني الحساب يوم القيامة. فتوضع السِّجِلاَّت في كِفه وهو جمع سِجِلٍّ بالكسر والتشديد وهو الكتاب الكبير»[8] وقد قال المطرزي: إنّ «السِّجل مُعَرّب دخيل»[9] والسِجِل «بكسرتين، وفي لغة سُجُل بضمتين كتاب العهد ونحوه وهو في الأصل الصك أي كتاب الإقرار ونحوه ثم سمي كتاب الحكم للتشبيه، والسجل عند الفقهاء كتاب يكتب به القاضي صورة الدعاوي والحكم فيها وصكوك المبايعات ونحوها لتبقى

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ١٣٦.

(٢) الجمهرة: ٢ / ٩٤.

(٣) العين: ٦ / ٥٤.

(٤) الصحاح: ٥ / ١٧٢٥.

(٥) المفردات، ص ٣٢٩.

(٦) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٨٥.

(٧) ينظر: غريب القرآن: ١٨٧.

(٨) لسان العرب: ١١ / ٣٢٦، مادة (سجل).

(٩) المُغرب في ترتيب المعرب: ٢١٨.

محفوظة عنده»[١].

ونلاحظ أن لفظة (السِّجِل) قد وردت في موضع واحد من القرآن الكريم[٢]، ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) وقد ذهب الطوسي في تفسيره الآية إلى أن «الله تعالى شبه طي السماء يوم القيامة بطي الكتاب، وقد ذكر للسجل معنى مغاير لما قبله وهو ملك يكتب أعمال العباد»[٣].

وقد قال الرازي أيضا: «إن في السجل قولين: أحدهما: إنه اسم للطومار الذي يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب، ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، فيكون معنى طي السجل للكتاب كون السجل سائراً لتلك الكتابة ومخفياً لها لأن الطي ضد النشر الذي يكشف والمعنى نطوي السماء كما يطوى الطومار الذي يكتب فيه.

(والقول الثاني) إنه ليس اسماً للطومار بل إن السجل اسم ملك يطوي كتب بني آدم»[٤]، وهذا ما ذهب إليه القرطبي أيضاً في تفسيره إذ قال «أي كطي الصحيفة على ما فيها فاللام بمعنى (على)، وقيل أيضاً إن (السّجل) ملك، هو الذي يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، ويقال: إنه في السماء الثالثة، ترفع إليه أعمال العباد يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق في كل خميس واثنين»[٥] لكن الشعراوي ذهب إلى أن السجل هو «القرطاس والورق الذي نكتب فيه يسمى سجلاً، ولذلك الناس يقولون: السجل كذا، أي: نكتبه في ورقة حتى يكون محفوظاً، والكتاب هو المكتوب»[٦].

هكذا يظهر السياق من خلال تشبيه الله تعالى طي السماء على ما فيها بطي الصحيفة على ما فيها من الكتابة، فالسجل هنا أداة تنبيه لأذهان المخلوقين جميعاً على أن الأفعال والأقوال مسجلة في صحفنا الخاصة بنا نثاب عليها ونعاقب بها،

(١) الآلة والأداة: ١٣٦.
(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٤٥.
(٣) التبيان: ٧ / ٣٥١.
(٤) مفاتيح الغيب: ٢١ / ٢٢٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ٢٣٠.
(٦) الشعراوي: ١٦ / ٩٦٦٣.

ولكن كل شيء محفوظ لا ينسى ولا يمحى.

١١ - ٣: السرابيل

«القميص»[١]، وقد ذهب الجوهري بقوله: «وسَرْبَلْتُه فتسربل، أي ألبسته السربال»[٢] وأشار ابن دريد إلى أن السِّربال يعني القميص ويطلق كذلك على الدرع كما في قوله: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾[٣] (النحل: ٨١) والسربال أيضا: كل ما لبس فهو سربال وقد تسربل به وسربله إياه وفي حديث عثمان (ﷺ): «لا أخلع سِرْبالاً سَرْبَلنيه الله تعالى»[٤]، وقد ذكر ابن منظور أن السربال يعني القميص وكنى به عن الخلافة ويجمع على سرابيل... وقد تطلق السرابيل على الدروع[٥]، ومنه قول كعب بن زهير:

شُمُّ العرانين أبطال لبوسُهُمُ ... من نسْجِ داود في الهيجا سرابيل[٦]

والسربال «لباس وهو معروف معرب»[٧]، وقد وردت لفظة (سربال) في القرآن الكريم على وجهين: فوجه منها: «السرابيل تعني الدروع في قوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ والوجه الثاني: السرابيل: القمص في قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ (إبراهيم: ٥٠) يعني قمصهم من قطران، وهي نار سوداء ويقال (من قطران) من صُفْرٍ حارّ قد انتهى حره أي نحاس... »[٨].

وهكذا نرى استعراضاً لبعض نعم الله المادية على الناس وهي بجانب تلك الأسرار وفي جوها نعم السكن والهدوء والاستظلال... والسرابيل التي تقي الحر

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ١٦٢.

(٢) الصحاح: ٥ / ١٧٢٩.

(٣) ينظر: الجمهرة: ٣ / ٣٠٥.

(٤) المعجم الكبير، للطبراني: ١ / ٨٢.

(٥) ينظر: لسان العرب: ١١ / ٣٣٥.

(٦) ديوان كعب بن زهير: ٢٣.

(٧) الألفاظ الفارسية المعربة: ٨٨.

(٨) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٣٤.

من الأردية والأغطية، وكذلك السرابيل التي تقي البأس من الدروع وغيرها هي وقاية وحماية للخلق[١]، فالسياق القرآني يوحي أن استخدام اللفظة بوصفها أداة تولت مهمة الدفاع عن الجسد البشري في الحروب والقتال، وكذلك حمايته من عوامل الطبيعة المناخية. وبما أن السرابيل تمنعكم من الحر وخص الحر بالذكر مع قابلية السرابيل في البرد أكثر لأمرين أحدهما: إن الذين خوطبوا في ذلك أهل حر في بلادهم فحاجتهم إلى ما يقي الحر أشد، والثاني: إنه ترك ذلك لأنه معلوم، فكنى عن الشيء لم يذكره لأنه مدلول عليه. وأردف بقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ (النحل: ٨١) أي كما أنعم عليكم بهذه النعم ينعم عليكم بجميع ما تحتاجون إليه وهو إتمام نعمه في الدنيا وبين أنه فعل ذلك لتسلموا بتلك الدروع من الجارحات[٢]. أما اللفظ في قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ﴾ (إبراهيم: ٥٠) فقد قال الرازي: «السرابيل جمع سربال وهو القميص، والقطران هو شيء يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ويطلى به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته، وقد تصل حرارته إلى الجوف ومن شأنه يتسارع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلي كالسرابيل، وهي القمص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقه، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح، وأيضاً التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين، والبدن جار مجرى السربال والقميص له. وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم فإنما يحصل بسبب هذا البدن، فلهذا البدن لذع وحرقة في جوهر النفس ... فتشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران»[٣].

وقد تكلم البيضاوي أيضاً في دلالة قوله تعالى ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ فقال: «قمصانهم: يحتمل أن يكون تمثيلاً لما يحيط بجوهر النفس من الملكات

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١٤ / ٢٦٦.

(٢) ينظر: التبيان: ٦ / ٤١٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ١٩/ ١٥١-١٥٢.

الرديئة والهيئات الوحشية فيجلب إليها أنواعاً من الغموم والآلام»[١].

وهكذا نرى أن لفظة (السربال) على وصفها في السياق القرآني يظهر بأن (السرابيل) هي نوع من الثياب سواء أكانت قمصاً أم دروعاً فعلاقتها في الجسم هي الإحاطة بالجسد لكون الثوب وسيلة وأداة لحماية الجسد من الحر والبرد ومن البأس إذ كان يعني الدرع... ويوحي السياق أن هذه الأداة قد صارت وبالاً عليهم بدلاً من توفير الحماية لهم وكانت بياناً لعجز المجرمين وذلتهم في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝ ﴾ (إبراهيم: ٤٩-٥٠) ومن هنا ندرك أن الله تعالى يجزي كل إنسان ما يستحقه بعمله وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفر والمعصية كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور

١١- ٤: السِراج

للجذر (سرج) أصل صحيح يدل على الحسن والزينة والجمال من ذلك السِّراج، سمي لضيائه وحُسنه، ومنه السرج للدّابة، وهو زينته ويقال سَرَّج وجهه، أي حسّنه كأنه جعله له كالسراج، ومما يشذُّ عن هذا قولهم للطريقة سُرْجُونَة[٢].

والسِّراج «الزاهِرُ الذي يَزهَرُ بالليل والفِعْلُ منه: أسْرَجْتُ السراج إسراجاً»[٣] والسِّراج أيضاً: «الزاهر بفتيلة ودهن - ويعبر به عن كل مضيء»[٤]، وقد قال الزمخشري: من المجاز أن نقول سرج الله تعالى وجهه، أي: حسّنه وبهّجه ونقول أيضا وجهٌ مُسرَّج، والشمس سراج النهار، والهدى سراج المؤمنين، ومحمد رسول الله (ﷺ) السّراج الوهّاج[٥]، وفي الحديث: «عمر سِرَاجُ أهل الجنة»[٦].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٣/ ٣٥٨.

(٢) ينظر: مقياس اللغة: ٣ / ١٥٦.

(٣) العين: ٦ / ٥٣.

(٤) المفردات: ٣٣٦.

(٥) ينظر: أساس البلاغة: ٢٩٢.

(٦) الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي الهمذاني: ٣ / ٥٥.

وقد أوضح ابن منظور معنى الحديث بقوله «قيل: أراد أن الأربعين الذين تَمُّوا بعُمَر كلهم من أهل الجنة، وعمر فيما بينهم كالسراج، لأنهم اشتدوا بإسلامه وظهروا للناس، وأظهروا إسلامهم بعد أن كانوا مختفين خائفين، كما أنه بضوء السراج يهتدي الماشي»[١]، ومن السراج (المِسْرجَةَ): «ما توضع فيه الفتيلة والدُّهن للإضاءة جمع مَسارِجُ... »[٢]، وقد كان ورود اللفظة في التنزيل العزيز على وجهين:

فوجه منها: السراج الشمس في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان: ٦١) يعني الشمس وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ (النبأ: ١٣) .

الثاني: السراج يعني محمداً (ﷺ) في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ [٣]﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦) .

وردت لفظة (السراج) في أربعة مواضع من القرآن الكريم[٤]، وبدلالات مختلفة، إلا أنها مهما تنوعت دلالاتها فهي تنطوي على معنى الهداية وإضاءة طرق الحياة كما يضيء السراج بنوره للأنظار ويبدد الظلام سواء أقصد بالسراج النبي محمد (ﷺ) أم قصد به الآلة التي يستضاء بها، فالنور الذي يبعث من السراج، والفعل منه الحُسن والإضاءة التي تبدد الظلام وتهدي إلى الطريق الصحيح، كما كان الرسول (ﷺ) هادياً للناس كأنه السراج، وهذا ما يوحي به السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ (نوح: ١٦) وعلى ذلك فقد بين الطوسي أن «فالسراج هو جسم يركبه النور للاستصباح به فلما كانت الشمس قد جعل فيها النور للاستضاءة به كانت سراجاً وهي سراج العالم كما أن

---

(١) لسان العرب: ٢ / ٢٩٧، مادة (سرج).

(٢) المعجم الوسيط: ١ / ٤٢٧.

(٣) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر، ٢٣٤.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٤٨.

المصباح سراج هذا الإنسان»[١]. وقد أشار القرطبي أيضاً إلى أن: «الشمس جُعِلَت مصباحاً لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم»[٢]، ولسيد قطب توجيه آخر فهو يرى إنما وجه نوح (ﷺ) قومه إلى السماء وأخبرهم - كما علمه الله - أن السماء سبع طبقات فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج، وهذا هو الفضاء ذو اللون الأزرق، أما ما هو؟ فلم يكن مطلوباً منهم... وهذا التوجه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة، وهذا هو المقصود من ذلك التوجه[٣].

أما استعمالها في بقية الآيات فكان استعمالاً خاصاً على وجه الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ ﴾ وقيل إن السراج هنا «صفة للنبي (ﷺ)، أي: هو هادياً كأنه سراج يهتدى به في الظُلَمِ»[٤].

وعلى هذا فإن تسمية الله تعالى لرسوله الأمين (سراجاً منيراً) مقصود به أنه يبلغ رسالة هدى تهدى إلى طريق الحق، كما يهدى الضوء إلى سلوك الطريق، وأن هذه الرسالة منزلة عليه غير مُفتَراة منه وهو يبلغها، تشبيهاً بالضوء الذي يقع على الأجسام غير المضيئة ثم ينعكس من سطوحها ولا يكون ناشئاً منها، ولم يسم الله رسوله سراجاً مضيئاً أو وهاجاً، لئلا يفهم منه، بحسب تخصيصه معنى الضياء، أن رسوله يبلغ رسالة من ذاته واختراعه غير مبلغة إليه لأنه لا يطابق الواقع[٥].

أما قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ ﴾ (النبأ: ١٣) فقد قال حسنين محمد مخلوف في تفسير الآية: «أي أنشأنا في السماء مصباحاً زاهرا مُضيئاً وهو الشمس (وَهّاجاً) بالغاً في الحرارة، من الوهج وهو الحرارة من بعيد.. والشمس جامعةً بين الإضاءة التي أشير إليها بالتعبير عنها بالسِّراج. وبين الحرارة التي أشير

---

(١) التبيان: ١٠ / ١٣٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ١٩٧.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٣٠٢.

(٤) في ظلال القرآن: ٣ / ٤٢١.

(٥) ينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، حنفي أحمد: ١٤٨.

إليها بوصفه بالوّهاج. امتنّ الله على الخلق بإبداعها مضيئة حارةٍ، لما في ذلك من المنافع العظمى التي لا يحيط بها الوصف، والتي تتوقف عليها الحياة على سطح الأرض»[١]، ومثيل اللفظ وبنفس الدلالة في سورة (الفرقان: الآية١٦) .

فالسراج في العرف الاجتماعي آلة يستضاء بها، فإذا كان فعل الإنارة هو الذي ينبعث من السراج، فإن حكمة سوقه من البارئ عز وجل ينطوي على دلالة أعمق تؤشر عمق الرسالة المحمدية الهادية التي بددت الظلام وأضاءت طرق الخلق وأقرت دستور الحياة.

١١ - ٥: السُرُر

«السين والراء يجمع فروعَه إخفاءُ الشيء، وما كان من خالصه ومستقرّه لا يخرج شيءٌ منه عن هذا... أما الذي ذكرناه من الاستقرار فالسّرير وجمعه سُرُرُ وأسِرَّة»[٢]. والسرير: «مُستَقرُّ العيش الذي اطمأنّ عليه خَفْضُه ودَعته»[٣]، والسرير أيضاً «مستقر الرأس في العُنُقِ، وقد يُعَبر بالسرير عن المُلْك والنعمة»[٤]، وقد ذكر الراغب الأصفهاني أن السرير يطلق أيضا على سرير الميت تشبيهاً به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصه من سجنه المشار إليه بقوله (ﷺ). «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٥]. وقد ذكر الرصافي أن السرير يطلق أيضاً على «النَّعش قبل أن يحمل عليه الميت، ويعني أيضاً التخت، ويغلب على تخت الملك، يقال: زال من سريره، أي ذهب عزه ونعمته وسَمي به لأنه من جلس عليه من أهل الرفعة والجاه يكون مسروراً»[٦].

---

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٧٧٦.

(٢) مقاييس اللغة: ٣ / ٦٧، ٦٩.

(٣) العين: ٧ / ١٨٩.

(٤) الصحاح: ٢ / ٦٨٢.

(٥) صحيح مسلم: ٤ / ٢٢٧٢ وينظر: المفردات: ٢٣٥.

(٦) الآلة والأداة: ١٤٠.

وقد وردت لفظة (سرير) في ستة مواضع من القرآن الكريم وبصيغة الجمع[١]، واستخدامها في جميع المواضع بنفس الدلالة يجعلها أداة للراحة والاستقرار والدعة والسرور الذي يناله أهل الجنة الذين هم أهل النعيم وهو مجلسهم الرفيع الذي وعدهم به الله عز وجل بوصفه لمحاسن أهل الجنة ومنها أثاث قصورها في قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ (الحجر: ٤٧) وقال الطوسي: إن سُرُر هي: جمع سرير وهو المجلس الرفيع موطأ للسرور، ويقال في جمعه أسرة أيضاً وهو مأخوذ من السرور[٢]. وكذلك فقد أشار القرطبي إلى علو وارتفاع هذه السُرر، ورُوي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين السماء والأرض، ليرى ولي الله ملكه حوله[٣]. وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (الغاشية: ١٣) فقد فسر ابن الجوزي واصفاً تلك السُرر بقوله: «إن ألواح السُرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدّر والياقوت مرتفعة ما لم يجئ أهلها. فإذا أراد أن يجلس عليها صاحبها، تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترفع إلى موضعها»[٤]. وبهذا توصف مكانة السعداء في جنات النعيم بوصف للفظة (السُرر) المرفوعة وهذا الارتفاع يوحي بالنظافة. كما يوحي بالطهارة.. وهي من مناعم مما يشهده له أشباها في الأرض. وتذكر هذه الأشياء لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض. أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها، فهي موكولة إلى المذاق هنالك للسعداء الذين يقسم لهم هذا المذاق[٥].

وهذا الوصف (للسررُ) بأنها (مرفوعة) جاء لتصوير حُسنها[٦]. هكذا يوحي السياق القرآني بأن لفظة (السرير) بوصفها أداة للراحة تميل إلى الارتقاء والامتياز في الجلسة. فليس الجميع يجلسون على الأسرة. فالناس كما هو معروف، لهم منازلهم في الدنيا ودرجاتهم في الآخرة، فاستخدام السُرر في القرآن الكريم

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٤٩.

(٢) ينظر: التبيان: ٦ / ٣٣٩.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٢٤.

(٤) زاد المسير في علم التفسير: ٩ / ٩٨.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٣٠ / ٥٦٢-٥٦٣.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٠٢.

استخدام معنوي يكشف عن معنى التكريم فلا يجلس على الأسرة سوى أولئك الذين كانوا أهلا لها - وهم أهل الجنة - وعلى هذا فالسياق العام للآية يعطي صورة مبتكرة للأسرة والتي بدورها عبرت عن الجلوس المترف الفاخر لأهل الجنة[١]. وبهذا يظهر لنا أن هنالك مظاهر تكريمية أوسع من مداركنا لذلك فإن المراد من وصف السُرر في السياق القرآني، إثارة الاشتياق إلى نعيم الجنة والتسابق للوصول إلى مراتبها العالية للحصول على عظيم قدر المؤمنين.

١١ - ٦: السفينة

للجذر (سفن) أصل واحد يدل على تنحية الشيء عن وجه الشيء، كالقَشْرة... واصل الباب السَّفن، وهو القشر[٢]، والسَّفن «الجلد الذي يجعل على قوائم السيوف وإنما سمي سفناً لخشونته، ومنه اشتقاق السفينة لأنها تسفِن الماء كأنها تقشره»[٣]، «والسفينة معروفة والسَفَّانُ صاحبها وسفانة بنت حاتم طيء وبها يكنَى، والسَفِين: جمع سفينة»[٤]، وقد قيل «سُفون... أما سفائن فعلى القياس وأما سُفن فدَاخل عليه»[٥]، كذلك قيل: إن السَّفَنْ: «الحديدة التي يسفن بها وباعتبار السَّفن سميت السفينة»[٦]، ويقال إن السفينة «المركب في البحر، والجمع سُفُنْ»[٧].

وردت اللفظة في أربعة مواضع من الذكر الحكيم[٨]، وبدلالة واحدة بوصفها آلة للتنقل عبر المياه والبحار ووسيلة من وسائل الإنقاذ، وقد أوضح الرازي أن موسى (عليه السلام) طلب تواضعاً من الخضر تعليمه بعض ما علمه الله، وهذا اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم من رجل ذي مناصب رفيعة ودرجات عالية شريفة، وهذا

---

(١) ينظر: القيم الجمالية في السور المكية، ورقاء يحيى المعاضدي، : ٥٨.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٧٨، ٧٩.

(٣) الجمهرة: ٣ / ٣٩.

(٤) الصحاح: ٥ / ٢١٣٦.

(٥) المخصص: ٣ / ٢٣ السفر العاشر.

(٦) المفردات: ٣٤٣.

(٧) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٦٩.

(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٥٢.

دال على كون موسى (عليه السلام) آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة وهذا هو اللائق به...»، فعندئذ تشارطا على أن يصبر ولا يسأل عن الأمور إلا في حينها، عندئذ انتهيا إلى موضع احتاجا فيه إلى ركوب السفينة، فركباها وأقدم ذلك العالم على خرق السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب لحكمة أرادها الله، تبينت فيما بعد لموسى (عليه السلام)[١]، في قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ (الكهف: ٧١) مشهد يتصور أمامك سفينة يحملها الماء وتحمل معها ركاباً وهم في وسط اللجة، ثم يجيء العبد الصالح - الخضر (عليه السلام) - فيخرق السفينة، أن سِر بالتجلي فهذا العيب كان سبباً لنجاة السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصباً، وكان الضرر الصغير الذي أصابها إبقاء للضرر الكبير الذي يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها[٢] وهذا أيضا ما ذهب إليه الشعراوي بقوله: «وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يُعلّمنا أن الكلام النظري شيء والعمل الواقعي شيء آخر... ونلحظ أن موسى (عليه السلام) لم يكتفِ بالاستفهام (أخرقتها لتغرق أهلها) بل تعدى إلى اتهامه بأنه أتى أمرا منكراً فظيعاً، لأن كلام موسى النظري شيء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شيء آخر، لأن موسى (عليه السلام) استحضر بالحكم الشرعي إتلاف مال الغير، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً هذا لأن موسى (عليه السلام) يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر»[٣]. ومما هو ملاحظ أن هذه الآلة تعد وسيلة للتنقل مثلها مثل باقي الوسائط فهي ابتكار بشري طوعها، فصارت تحت خدمته لزوماً فهي تنقله حيناً وفي أحيان أخرى تتحول إلى معجزة بفعل الخالق المقتدر لتحفظ الأنواع البشرية والحيوانية، كما حصل في قصة سيدنا نوح (عليه السلام) ضمن سياق الآية القرآنية: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (العنكبوت: ١٥) وقد ذهب الرازي في تفسيره للآية بقوله: «من الراجع في قوله (جعلناها) وجهان:

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢١ / ١٥٢، ١٥٥.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ١٥ / ٢٣٩٧.

(٣) الشعراوي: ١٤ / ٨٩٦٠.

الـوجه الأول: أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه (أحدها) أنها اتخذت قبل ظهور الماء، ولولا إعلام الله لنوح (ﷺ) وأنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة. و(ثانيها): أن نوحاً (ﷺ) أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه، ثم إن الماء غيض قبل نفاذ الزاد، ولولا ذلك لما حصلت النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة. و(ثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ولولا ذلك لما حصلت النجاة.

والثاني: أنها راجعة إلى الواقعة أو إلى النجاة أي جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين»[١]. وهذا أيضاً ما أشار إليه القرطبي مفسراً قوله تعالى: (جعلناها) بأنها: إما تعني السفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة، ثلاثة أقوال[٢] فالسياق القرآني يظهر لنا نوح (ﷺ) قد طوفت به سفينة في مجاهل هذا الطوفان المرّوع العاتي الذي أتى على كل شيء... وكانت السفينة فيه أشبه بالريشة في مهب ريح عاصف... وقد عاش نوح (ﷺ) ومن معه في وسط هذا الإعصار العنيف بنفوس تصطدم بهذه القوة العاتية حتى إذا أذن الله لهذه النعمة أن تنجلي، وأخذت السفينة تحتها إلى شاطئ الأمن والسلام... واستمع إلى سفينة نوح وهي تنتصب وتتكفأ إلى مطمئن الأرض (قيل يا نوح اهبط بسلام منا)، هكذا تجد أن وراء الكلمات حدثاً تتصارع فيه قوتان متماسكتان، تحاول إحداهما أن تفلت إلى مهرب لها بينما تجذبها الأخرى إليها وتمسك بها، ولكن يد مسترخية تلين شيئاً فشيئاً حتى تنفصل القوتان، وتصير كل منهما إلى وجهتها من السكون والاستقرار[٣].

وهكذا تحيلنا لفظة السفينة في الاصطلاح القرآني إلى دلالة النجاة بفضل الله للمؤمنين الصابرين، وكذلك فهي كانت إعلام يقين لنبي من أنبيائه لحكمة أرادها الله أن تنكشف أمامه بعد معاينته للأمر لأنه ظنّ شيئاً ولقي شيئاً.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٥ / ٤٣-٤٤.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣ / ٢٢٢.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٧٤-٢٧٥.

١١ - ٧: السقاية

للجذر (سقي) أصل واحد وهو إشراب الشيء الماء وما أشبهه نقول: سقيته بيدي أسقيه سقيا، وأسقينه، إذا جعلتَ له سِقياً. والسَّقي: المصدر[١] ... وقد ذهب الفراهيدي إلى أن «السِقاء: القِربة للماء واللّبن، والسّقاية: الموضع يتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها والسّقاية: الصّواع يشرب فيه الملك»[٢]، إلا أن الجوهري قال: «والسِقاء يكون للبن والماء، والجمع القليل أسْقِيةٌ وأسْقِياتٌ والكثير أسَاقٍ»[٣].

والسّقاية أيضاً: «الإناء الذي يسقى به»[٤] وتطلق السّقاية: «على المكيال يكال به ويشرب فيه»[٥]، وهذا ما أشار إليه الراغب الأصفهاني في تفسيره الآية القرآنية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ (يوسف: ٧٠) فهو المسمى صواع الملك فتسميته السقاية: تنبيها أنه يسقى به وتسميته صواعاً تنبيهاً وأنه يكال به[٦]، وقد وصف الزمخشري (السقاية) بأنها «كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم»[٧]. وقيل: أيضاً أنها تسمى (جشمه) وجمعها سقايات[٨].

وقد وردت لفظة (السقاية) في موضعين من القرآن الكريم[٩]. بوصفها أداة للشرب والكيل معاً في قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ وذكر الطوسي أن السقاية: «صواع الملك الذي كان يشرب به، وقيل: إنها كانت من فِضة، وقول

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٨٤-٨٥.

(٢) العين: ٥ / ٨٩.

(٣) الصحاح: ٦ / ٢٣٧٩.

(٤) المخصص: ٢ / ١٥١ (السفر التاسع).

(٥) غريب القرآن: ١٨٧.

(٦) ينظر: المفردات: ٣٤٥.

(٧) الكشاف: ٢ / ٤٩٠.

(٨) ينظر: الآلة والأداة: ١٢٥.

(٩) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٥٣.

آخر بأنها كانت كأساً من ذهب، ومن ثمّ صُيِرَ مكيالاً للطعام»[١].

إلا أن الرازي قد أنكر أن تكون السقاية في إناء يشرب به ثم جعلت صاعاً يكال به، لأن الإناء الذي يشرب الملك منه لا يصلح أن يجعل صاعاً، وقيل أيضاً: إنها كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر، وهذا أيضاً بعيد لأن الآنية التي يسقى فيها الدواب لا تكون كذلك، والأولى أن يقال: كان ذلك الإناء شيئاً له قيمة، أما إلى هذا الحد الذي ذكروه فلا[٢]. إلا أن سيد قطب يشير إلى أن معنى السقاية هنا هو كأس الملك - وهي عادة من ذهب - وقيل: إنها كانت تستخدم للشراب، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى في كيل القمح لندرته وعزته في تلك المجاعة، وهكذا فقد دسّ يوسف (ﷺ) السقاية في الرحل المخصص لأخيه، تنفيذاً لتدبير خاص ألهمه الله له[٣]، والقصد من كل ذلك أن النبي يوسف (ﷺ) أراد أن يُبقي أخاه معه في مصر. ولكن كيف يأخذه من إخوته ليُبقيه معه. وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم إلا يضيعوه كما فعلوا مع أخيه من قبل؟ إذاً: لا بُدّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقي بها أخاه معه، وقد جَنَّد الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعادونه، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه، وجاءت عندئذ حكاية صُواع الملك وجَعلها في رَحْلِ أخيه[٤]، وعلى هذا يتبين بأن الإناء الذي يسقى به الناس ويكال به لهم يسمى مرةً سقاية ومرة أخرى صواع[٥]، والسقاية هنا أطلقت على الأداة التي يُشرب منها وتستخدم مكيالاً، إلا أن السياق القرآني أعطاها دلالة ضمنية تحقق المراد الإعجازي لله في تحقيق معجزته ليوسف (ﷺ) وردّه إلى أبيه بعد تآمر إخوته عليه. هذا من جانب، ومن جانب آخر اعتراف أخوة يوسف (ﷺ) لأخيهم يوسف (ﷺ)... بالفضل والأثرة عليهم في الخَلق والخُلق والسّعة والمُلك وإقرارهم له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه.

وقد وردت (السقاية) في موضوع آخر من التنزيل الحكيم وبدلالة أخرى

---

(١) التبيان: ٦ / ١٦٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨ / ١٨٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ١٣ / ٣٢.

(٤) ينظر: الشعراوي: ١١ / ٧٠٢١.

(٥) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٥٩٩.

هي إسقاء الناس والحجيج الماء في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ (التوبة: ١٩) وقد قال الرازي «ذكر المفسرين أقوالاً في نزول الآية، قال ابن عباس في بعض الروايات عنه أن علياً لما أغلظ الكلام للعباس، قال العباس: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة، والجهاد فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فنزلت هذه الآية

وقيل: إن المشركين قالوا لليهود، نحن سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام، فنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت اليهود لهم أنتم أفضل. وقيل: إن علياً (ﷺ) قال للعباس (ﷺ) بعد إسلامه: يا عمي ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله (ﷺ)؟ فقال: ألستُ في أفضل من الهجرة؟ أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام. فلما نزلت هذه الآية قال: ما أراني إلاّ تارك سقايتنا .... وأما الذين قالوا: إنها جرت بين المسلمين والكافرين، فقد احتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى ﴿ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ وبينَّ من آمن بالله وهذا هو الأقرب عندي»[١]. وهذا أيضاً ما أشار إليه ابن كثير وسعيد حوى في قولهما بأن هنالك روايات تفيد أن الخطاب للمسلمين عندما اختلفوا فيما بينهم حول العمل لله تعالى فمنهم من قال: أسقي الحاج، ومنهم من قال: بل الجهاد في سبيله خير مما قلتم. وقد استفتوا رسول الله فيما اختلفوا عليه. فعندئذ أنزل الله عز وجل ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ ...﴾[٢]وعلى هذا فالسقاية هنا تعني «سقيهم الماء وتدل على القيام بالعمل أي عملية سقي الحاج»[٣]، والمعنى «أتُسَوُّونَ أهل سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام منكم وأنتم على هذا الشرك - بمن آمن بالله واخلص له العبادة، وجاهد في سبيله بالنفس والمال؟ كلا! وقد بين الله فضلهم وعظم منزلتهم»[٤]، وفي كل هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن وكحرمة الجهاد وهو بيان عجيب وقد كشف التشبيه

(١) مفاتيح الغيب: ١٦ / ١٢-١٣.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٤٥١-٤٥٢.

(٣) معجم ألفاظ القرآن: ١ / ٥٩٩.

(٤) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٢٥٠.

بالإيمان الباطل والقياس الفاسد وفي ذلك دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان وإنه لا يساوى به مخلوق على صنعته في القياس[١].

١١ - ٨: السكين

للجذر (سكن) أصل واحد مطرد يدلّ على خلاف الاضطراب والحركة، يقال: سَكَنَ الشيء يسكُن سُكوناً فهو ساكن... والسِّكِّين معروف، قال بعض أهل اللغة هو فعِّيل لأنه يسكّن حركة المذبوح به»[٢]. قال الفراهيدي: «السكين المذية يذكر ويؤنث ويجمع على السّكاكين»[٣]، وقيل: «هو مذكر ومنهم من ينكر التأنيث»[٤]، والسكين هي آلة القطع والذبح[٥]، وقد ذكر ابن دريد بأنه قد سمت العرب ساكناً وسُكينا وسَكنا... والسكين عربي معروف وهو من قولهم ذبحت الشيء حتى سكن اضطرابه[٦]. وقد أشار الزمخشري إلى أنه من المجاز أن تقول «سَكَنت نفسي بعد الاضطراب، وعلمته عِلماً سَكَنّ النفس، وَسَكَنت إلى فلان: استأنستُ به، وفلان سَكني من الناس ومنه سمّيت النار سكناً كما سميت مؤنسة وعليه سَكينة ودعة ووقار»[٧]، إلا أن المطرزي قال: ومن الباب المسكين سمي ذلك لسكونه إلى الناس وكذلك السكان ذنب السفينة لأنه بها تقوم وتسكن، أي بمعنى الدفة التي تحركها[٨].

وردت لفظة (السكّين) في موضع واحد من القرآن الكريم[٩]، بوصفها آلة للقطع في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ (يوسف: ٣١) وقد ذهب

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٨٥.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٨٨.
(٣) العين: ٥ / ٣١٣.
(٤) المذكر والمؤنث: ١ / ٢٨٧.
(٥) ينظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٧٢.
(٦) ينظر: الجمهرة: ٣ / ٤٧.
(٧) أساس البلاغة: ٣٠٤.
(٨) ينظر: المغرّب في ترتيب المُعرب، المطرزي: ٢٣٠.
(٩) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٥٤،.

الطوسي في تفسيره للآية بأنه قال: «إن امرأة العزيز دعت النسوة وقدمت إليهن فاكهة وأعطتهن سكيناً ليقطعن الفاكهة فلما رأينه يعني يوسف (ﷺ) دهشن وقطعن أيديهن وقوله: «أكبرنه أي أعظمنه وأجللنه»[١]. وقد أشار الرازي في تفسيره للآية إلى عدة مسائل ومن بينها: الإشارة إلى ورود لفظة السكين ويعلل بأن امرأة العزيز هيأت متكأ طعام يحتاج إلى أن يقطع بالسكين لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع، ثم حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً وأتت كل واحدة منهن سكيناً أي لأجل أكل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف (ﷺ) بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه (ﷺ) ما قدر على مخالفتها خوفاً منها[٢]، فلما انحدر يوسف (ﷺ) قالت لهنَّ: اقطعن ما معكن بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم من شدة دهشتهن به[٣]. وكما هو معروف فإن السكين آلة قطع اللحم وغيره وفسر قولها (اخرج عليهن) يقتضي أنه كان في بيت آخر وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها ... وتقطيع أيديهن كان من الذهول أي أجرين السكاكين على أيديهن يحسبن أنهن يقطعن الفواكه وأريد بالقطع الجُرح، أطلق عليه القطع مجازاً للمبالغة في شدته حتى أنه قطع قطعة من لحم اليد[٤]. وقد أوضح د. كامل البصير مبيناً جمال الصورة الفنية بقوله: «وتجدد الصورة الفنية، فإذا أولئك النسوة اللاتي أنكرن على امرأة العزيز سوء التصرف يقعن في ما هو شر من ما وقعت فيه فإذا هن ذاهلات عن أنفسهن لدى رؤية يوسف (ﷺ)، ويتجسد هذا الذهول في صورة فنية لازمة أدت إليها عبارة (وقطعنَ أيديهن) أي جرحنها»[٥]. هكذا تحيلنا قصة يوسف (ﷺ) إلى لفظة السكين بوصفها إحدى ثوابت الإعجاز في القصة، لكنها على قساوتها بوصفها آلة للقطع أحالتنا ضمن السياق القرآني إلى محورين.

أولها: تحول الأداة الجارحة إلى حكم ينصف يوسف (ﷺ)، ويعظم جماله

---

(١) التبيان: ٦ / ١٣١.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨ / ١٣٠.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ١١٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٦٢-٢٦٣.

(٥) بناء الصورة الفنية في البيان العربي: ٢٧٣.

الذي يذهب بالعقول ويثير الدهشة، هو السبب الذي فتح على امرأة العزيز باب الطعن فيها من النسوة.

وثانيها: تحول هذه الآلة بمفهومها الاعتباري آلة للقطع إلى دلالة ضمنية تمثلت في المكيدة التي افتعلتها امرأة العزيز ومقابلة للنسوة في احتيالهن على رؤية يوسف (ﷺ) والتي أصبحت فيما بعد أداة تبرير لفعلة امرأة العزيز في مراودة فتاها.

ومما يعزز هذا التحليل السياقي للفظة قول أحمد فائز الحمصي «في أن المرأة رأت أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأنهن لقين من طلعة يوسف (ﷺ) الدهش والإعجاب والذهول فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصى قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة أخرى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ (يوسف: ٣٢)، فأخبرت عن جماله الباطن بعفّته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره»[(١)].

١١ – ٩: السلسلة – السلاسل

للجذر (سل) أصل واحد وهو مدّ الشيء في رفق وخفاء ثم يُحمَل عليه، فمن ذلك سللْتُ الشيء أسُلُّه سَلاً ... ومما حُمل عليه السِّلْسِلَة: سميت بذلك لأنها ممتدة في اتصال، ومن ذلك سَلْسَلَ الماء في الحَلْق إذا جرى وماء سَلْسَلٍ، وسَلْسَال وسلاسِلُ: قال بعض أهل اللغة والسَّلسل اتصال الشيء بالشيء وبذلك سُميت سِلسلة الحديد وسِلسلة البرق المستطيلة في عَرض السحاب[(٢)]. والسَّلاسِلُ «جمع السلسلة»[(٣)] والسلسة أيضاً: «مجموعة حلقات من الحديد ونحوه يدخل بعضها في بعض وجمعها سلاسل»[(٤)]. والسَّلاسلُ كذلك «رملٌ ينعقد بعضه على بعض

(١) قصص الرحمن في ظلال القرآن: ٢ / ٢٣٢.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٥٩-٦٠.

(٣) العين: ٧ / ١٩٤.

(٤) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ١ / ٢٧٤.

وينقاد»[١]، إلا أن ابن منظور عرف السَلْسلة: «بأنها دائرة من حديد ونحوه من الجواهر مشتق من ذلك، وفي الحديث: [عَجبَ ربُّك من اقوام يُقادُون إلى الجنة بالسَّلاسل]: قيل هم الأسرى يقادون إلى الإسلام مُكرهين فيكون ذلك سبب دخولهم الجنة ليس أنَّ ثَمَّ سلسلة، ويدخل فيه كل من حُمِلَ على عمل من أعمال الخير»[٢].

وردت اللفظة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[٣]، وبوصفها أداة تؤدي غرضاً ما كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة: ٣٢) وقد أشار القرطبي إلى أن الله أعلم بأي ذراع كان قياس السلسلة، وقال ابن عباس: سبعون ذراعاً بذراع الملَك، وقال مقاتل: لو حَلقة منها وضعت على ذُرْوة جبل لذاب كما يذوب الرصاص... وجاء في الخبر، أنها تدخل من دبر الكافر وتخرج من مَنْخِرَيه وفي خبر آخر: تدخل من فيه وتخرج من دبره، فينادي أصحابه هل تعرفوني؟ فيقولون لا، ولكن قد نرى ما بك من الخزي فمن أنت؟ فينادي أصحابه أنا فلان بن فلان[٤].

وقيل إن السلسة المذكورة في الآية: «كل حَلقة منها كقدر حديد الدنيا ... وقيل بذراع الملك، ثم ترف (فاسلكوه): أي تدخل في أستهِ ثم تخرج من فيه، ثم ينظِمُون فيها كما يُنْظَم الجَرَادُ في العُودِ حين يُشوى ويُسلك في دبره حتى يخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه»[٥]، وقد بين سيد قطب الحكمة من وراء ذكر لفظة السبعين بقوله «ويلاحظ إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء اللفظ في السبعين وصورتها ولعل هذا الإيحاء هو المقصود»[٦]، هكذا أوحى السياق القرآني لهذه اللفظة بأنها تتحول إلى أداة عقابية مرعبة بطولها ثم بمادتها المشكلة من الحديد، ولأن الحديد يؤسر من النار فيمكن تصور شدة أذى هذه الحلقات ووقعها

---

(١) الصحاح: ٥ / ١٧٣٢.

(٢) لسان العرب: ١١ / ٣٤٥، مادة (سلسل).

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٥٤.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ١٧٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٣٤.

(٦) في ظلال القرآن: ٢٩ / ٢٥٨.

على نفوس الكافرين، وكذا اللفظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ (الإنسان: ٤) ويصف سيد قطب حالة الإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار وترغيبه في طريق الجنة بكل صور الترغيب، وبكل هواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم الذي نلمسه في سياق قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ (الإنسان: ٤-٥)... »[1] وبهذا يلاحظ تبيان حال الفريقين - أهل الجنة وأهل النار - فقد أوضح القرطبي بقوله: «فمن كفر فله العقاب بتصوير أدوات العقاب كما هو مبين بوصف السلاسل والأغلال ومن وَحّد وشكر فله الثواب بوصف أدوات النعيم والجزاء المتمثلة بكأس من الكافور»[2] وبعدما يقرأ الإنسان ويتأمل هذه الآية يشعر بأنه على الأرض يقضي فترة امتحان ويتصور هذه الحياة بما وراءها من نتائج الابتلاء! وما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء بعد اختياره طريق الشكر أو طريق الكفران[3].

وكذا اللفظة في قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (غافر: ٧١) وتفسيراً للآية يذهب ابن كثير إلى أنها مخاطبة الله تعالى لنبيه محمد (ﷺ): ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تُصرَف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، وهكذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الطور: ١١) وقوله: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (غافر: ٧١) أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم[4]، إلا أن سيد قطب يشير إلى أن ورود السلاسل هنا «ليس لمجرد

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٩ / ٣٩٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ٨٠، ٨١.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٣٩٦.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١١٠.

العذاب بل إشارة إلى الإهانة والتحقير في العذاب متمثلاً بسحبهم كما تسحب الأنعام والوحوش، فعلام التكريم وقد خلعوا على أنفسهم شارة التكريم»؟[١]، فمنهم عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم[٢].

وعلى هذا فالسلاسل في الاصطلاح القرآني تدل على كونها أداة من أدوات العقاب لأهل النار، إلا أن السياق القرآني للفظة أوحى أنها أداة مثلت الإهانة والتحقير لهؤلاء الكفرة في الكيفية التي يسحبون بها إلى النار كما تسحب الدواب لتلقى حتفها.

١١ - ١٠: السُلَمْ

للجذر (سلم) أصل واحد معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذُ، والشاذ عنه قليل، فالسّلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى... والسُلّم معروف، وهو من السلامة أيضاً، لأن النازل عليه يرجى له السلامة[٣]، وقوله عز اسمه: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الطور: ٣٨)، ويقال: «هي السُلَّم وهو السُلَّم: أي السبب والمرقاةُ والجمع: السَّلاليم»[٤]. وقد ذكر ابن دريد أن السَلْمُ والسِلْمُ والسَلَمُ وقد قرئ على ثلاثة أوجه والسِلْمُ ضد الحرب ومنه اشتقاق السلامة... والسُلَّم يذكر ويؤنث وهو في التنزيل مذكر[٥]، والسُلَّم أيضاً «المَرقاة»[٦]، ويقال أيضاً إن السُلَّم: «ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾... »[٧]،

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٤ / ٢٠٥.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ٢١٦.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٩٠-٩١.

(٤) العين: ٧ / ٢٦٦.

(٥) ينظر: الجمهرة: ٣ / ٤٩ -٥٠.

(٦) المخصص: ١ / ١٣٥، السفر الخامس.

(٧) المفردات: ٣٥٢.

وقيل في سبب تسمية السُلَّم سُلَماً لأنه يُسْلِمُك إلى حيث تريد، والسُلَّم: السبب إلى الشيء سمي بهذا الاسم لأنه يؤدي إلى غيره كما يؤدي السُلَّمُ الذي يرتقى عليه[١]. وقد قال الزمخشري ونقول من المجاز: وبات بليلةِ سَليم وهو اللديغ وسِلِمت الصنيعة: خَلَصت[٢].

وردت لفظة (السُلَّم) في موضعين من القرآن الكريم[٣] في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾، وقد ذهب الرازي إلى أن هذه الآية تتميم لما قبلها: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝ ﴾ (الطور: ٣٧) أي فإن من لا يكون خازناً ولا كاتباً قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب، فقال أنتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم بهم، لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم ... وفي هذا مسائل منها: إن السلم لا يستمع فيه، وإنما يستمع عليه وكذلك المستمع هو الوحي، والمعنى: هل لهم سلم يستمعون فيه الوحي وماذا يقول، فليأت مستمعهم بما سمع ويقول سمعت كذا وكذا فيفتري كذباً بل الواجب أن يأتي بدليل يدل عليه[٤].

وقد أشار القرطبي أيضاً إلى أن لفظة سلم تعني مصعداً وسبباً هكذا ادعوا أن لهم مرتقى إلى السماء (يستمعون فيه) أي عليه الأخبار ويصلون به إلى علم الغيب، كما يصل محمد (ﷺ) بطريق الوحي[٥].

ومما يؤيد هذه الأقوال قول ابن كثير بأن السلم هنا يعني «مرقاة إلى الملأ الأعلى، فليأت الذي يستمع لهم بحجةٍ ظاهرةٍ على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال وليس لهم سبيل إلى ذلك ولا لهم دليل»[٦].

وبهذا تتحول لفظة - سلم - هذه الأداة الخدمية إلى أداة تحدٍ عام للبشر

---

(١) ينظر: لسان العرب ١٢ / ٢٩٩.

(٢) ينظر: أساس البلاغة: ٣٠٦.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٥٧.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٢٦٢.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٥١.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٠٦.

وإن ابتكرت من لدنه. كما في سياق الآية القرآنية: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنعام: ٣٥) فهذا خطاب من الله تعالى إلى رسوله محمد (ﷺ) إن كان شقَّ عليك إعراضهم عنك فاجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به فافعل[١]. فالمراد من قوله (إن استطعت) أي أنك لا تستطيع ذلك، لكن المراد من هذا تبيان حرص الرسول على إسلام قومه وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ومن فوق السماء لآتى بها رجاء إيمانهم ولكن لله مراداً[٢].

وبهذا يظهر لنا السياق القرآني للفظة بأن الله عز وجل يحرك ألبابنا نحو التفكير بقيمة هذه الأداة التي أصبحت أداة حرص من الرسول الكريم على إسلام قومه ليستخدمها ويأتي بآية تجعلهم يؤمنون بالله ورسوله، لكن مهما بلغت هذه الأداة من قوة وعمق صنعة تعجز حتماً عن إدراك الارتقاء الأعلى الخاص بعلم الله تعالى نحو أسباب السماوات وطرقها، لأن طرق السماء ملك لله وحده بدليل عز وجل: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الرحمن: ٣٣).

١١ – ١١: السوط

للجذر (سوط) أصل واحد يدل على مخالطة الشيء بالشيء، يقال سُطت الشيء: خلطُت بعضَه ببعض. وسَوَّط فلان أمرَه تسويطاً إذا خَلَطه، ومن الباب السَّوط لأنه يُخالِط الجِلدة؛ يقال سُطْتُهُ بالسَّوط: ضربتهُ. أما قولهم في تسمية النَّصيب سَوطاً فهو من هذا، قال الله تعالى جل ثناؤه: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (الفجر: ١٣) أي نصيباً من العذاب[٣] وقد ذكر الفراهيدي أن السَّوط

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢ / ١٧٨.

(٢) ينظر: الأساس في التفسير: ٣ / ١٦١٨ وتفسير غريب القرآن: ٤٢٦.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ١١٥-١١٦.

معروف: والمِسْوَطُ: الذي يُساط به[١]، والسَوْط «الذي يضرب به، والجمع أسواط وسياط»[٢] ومن المجاز: «صب عليهم سوط عذاب، وساق الأمور بسوط واحد، وهما يتعاطيان سوطاً واحداً إذا اتفقا على نجر واحدٍ وخُلُق واحدٍ وحذوا في هذا، وهو طريق دقيق بين شَرَفين، ووردنا على سوط من الماء وهي فَضْلةُ غدير ممتد كالسّوط، وعلى سياطٍ... وفلان سُوِط الحرب ويُسوطها: يباشرها»[٣] وفي حديث علي (ﷺ) مع فاطمة (ﷺ) (مسوطٌ لَحْمُها بدمي ولحمي)، أي ممزوج ومخلوط، وسمي السّوطُ سوطاً لأنه إذا يسيط به إنسان أو دابة خلط الدم باللحم وهو مشتق من ذلك ... وفي الحديث «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ) صنفان من أهل النار لم أرهما. قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس. ونساء كاسيات عاريـاتٌ جميلاتٌ مائلاتٌ رؤسهن كأسنمه البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوُجدُ من مسيرة كذا... »[٤] والسوط هو الذي يُجْلَد به والأصل سِواطٌ بالواو فقلبت ياء لكسرة قبلها ويجمع على الأصل أسواطاً... وسَوْطُ باطلٍ: الضوء الذي يدخل من الكُوة وقد حكيت فيه الشين[٥].

وردت اللفظة (السوط) في موضع واحد من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ ﴾ (الفجر: ١٣) .

وقد أشار الرازي إلى أن السوط هو إشارة إلى ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به[٦]، أي إن السوط كان إشارة إلى نصيب عذاب، ويقال شدته، لأن السوط كان عنده نهاية ما يعذب به[٧]، وقد ذكر الفراء أن هذه كلمة تقولها العرب لكل نوع

---

(١) ينظر: العين: ٧ / ٢٧٨.

(٢) الصحاح: ٣ / ١١٣٥.

(٣) أساس البلاغة: ٣١٣.

(٤) صحيح مسلم: ٣ / ١٦٨٠ وسنن البيهقي: ٢ / ٢٣٤.

(٥) ينظر: لسان العرب: ٧ / ٣٢٦.

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣١ / ١٦٩.

(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٣٣-٣٤.

من العذاب، تدخل فيه السوط جرى به الكلام والمثل[١]، وهذا ما أكده أيضاً ابن كثير في قوله: «أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحلَّ بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين»[٢]، وقد بين الزركشي معنى [الصب] بقوله: «فالصب ينبي عن الدوام والسوط ينبي عن الإيلام، فيكون المراد - والله أعلم - تعذيبهم عذاباً دائماً مؤلماً»[٣]. وكذلك أفاض صاحب الظلال عندما قال «إنه تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط»[٤].

وهكذا نلمس في هذه الآية أنه «استعير لفظ (السَوْط) للأدوات الربانية التي أهلك الله بها هؤلاء الأقوام، إذ شُبِّه إنزال العذاب عليهم بتتابُع بحركة الصَّبُّ، وَشُبِّهَتْ أدوات التعذيب الربانية بالسُّوط، وأضيف لفظ (سَوْط) إلى كلمة (عذاب) لبيان أن هلاكهم لم يكن مجرد إماتة لم تقترن بشعورهم بآلام العذاب النازل عليهم، بل كانت مقرونة بإذاقتهم عذاباً شديداً»[٥].

نخلص من كل هذا أن السوط في المصطلح القرآني أصبح كناية عن جزء من نصيب العذاب الذي يعاقب به العصاة والآثمون، وهذه الأداة التي تنزل العذاب على الكافرين المارقين ويكاثر كميته عليهم على قدر جرمهم الدنيوي.

(١) ينظر: معاني القرآن: ٣ / ٢٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٦٦٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٤٤٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٣ / ٥٧٢.

(٥) معارج التفكر ودقائق التدبر: ١ / ٥٢٩.

١٢. حرف الصاد

١٢ – ١: الصَّحفَة والصحيفة

للجذر (صحف) أصل صحيح واحد يدل على انبساط الشيء والسعة. ومن الباب الصَّحفَة: القصعة المُسْلنطحة، وقيل أيضاً: الصِّحاف مَناقِعُ صغار تتخذ للماء[١]، والصحفة أيضاً: «تعني شبه القَصْعة وجمعه صحاف»[٢]، وقيل أيضاً: «الصحفة كالقصعة والجمع صحاف،... وأعظم القصاع الجفوة، ثم القصعة تليها تُشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحيْفَة تشبع الرجل»[٣]، وقيل الصحفة: «آنية الطعام»[٤]، وقيل أيضاً: هو مكيال مغربي يساوي (٤٨) قادوساً في تنس وكل قادوس (٣) أمداد من إمداد النبي (٥١,٤ لتراً)»[٥].

وقد وردت اللفظة بصيغة الجمع في موضع واحد من القرآن[٦]، في قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ (الزخرف: ٧١) وقد ذهب القرطبي في معنى قوله تعالى إلى أن المؤمنين لهم في الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم في صحاف ذهب وأكواب ولم يذكر الأطعمة والأشربة، لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء[٧]. وقيل إن ذكر الصحاف التي هي من ذهب هو حصر لأنواع النعم لأنها أما مشتهيات في القلوب أو مستلذة في العيون[٨]، وقد فسرها أيضاً ابن عاشور بأن الصحاف «إناء

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٣٣٤.

(٢) العين: ٣ / ١٢٠.

(٣) الصحاح: ٤ /١٣٨٤.

(٤) المعجم الوسيط: ١ / ٥٠١.

(٥) المكاييل والأوزان الإسلامية: ٦٤.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٠٣.

(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ٧٥.

(٨) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ٦٠٩.

مستدير واسع الفم ينتهي أسفله بما يقارب التكوير»[١].

وفي الصحيحين عن حذيفة أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[٢] وقد قال المفسرون أيضاً: إن الإطافة بهذه الصحاف من الذهب على أدناهم في الجنة منزلة سبعون ألف غلام يحملون سبعين ألف صحفة من ذهب في كل واحدة منها لون ليس في صاحبتها يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها لا يشابه بعضه بعضاً[٣]. وبهذا يظهر كمال التكريم وجماله الذي يحظى به المؤمنون في الجنة من وراء ذكر (الصحاف) التي هي من ذهب، ومنها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ العيون كمالاً وجمالاً في التكريم بالخطاب من العلي الكريم: ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الزخرف: ٧١) وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ (الزخرف: ٧٢)... [٤] وبهذا يظهر لنا ظاهر السياق القرآني للفظة (صحاف) أنها أداة متمثلة بإناء أو وعاء كبير جداً يوضع فيه الطعام ويشبع الكثير من الناس إلا أن هذه اللفظة تنطوي على دلالة ضمنية في المصطلح القرآني كما بينها المفسرون، وكذلك كما هو واضح في سياق الآية القرآنية التي تليها: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ جعلها بمنزلة مرتبة من مراتب التكريم للعباد الصالحين في الآخرة، هذا التكريم الذي تتقوى وظيفته ورتبة التكريم فيه حينما يصنع من الذهب، وهذا ما يخصص التكريم والثواب فيصبح حصرا لزمرة المؤمنين الصالحين. ومن الباب أيضاً الصَحيفة: وهي التي يكتب فيها والجمع صحائف والصُحف أيضاً[٥]، والصحُف أيضاً «جمع الصحيفة يُخَفف ويُثقّل مثل سفينة وسفن نادِرتان، وقياسه صحائف وسَفائن وصحيفة الوَجْه: بشرة

(١) التحرير والتنوير: ٢٥ / ٢٥٤.

(٢) صحيح البخاري: البخاري: ٥ / ٢٠٦٩.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦ /٧٥.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٥ / ٣٥١.

(٥) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٣٣١.

جلده»[١]. والصحيفة تعني أيضا «الكتاب»[٢]، ومن هذا المصحف: «ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة، وقيل غير العربية»[٣].

وقيل الفرق بين الصحيفة والدفتر، أنّ الدفتر لا يكون إلا أوراقا مجموعة والصحيفة تكون ورقة واحدة، نقول مثلاً: عندي صحيفة بيضاء، فإذا قلت صحف أفدت أنها مكتوبة[٤]. وقد وردت لفظة (صحف) في ثمانية مواضع من القرآن الكريم[٥]، بوصفها أداةً تكتب فيها تعاليم وأحكام شريعة من جهة، ومن جهة أخرى تكتب فيها أعمال الخلق من طاعة ومعصية فتنشر عليهم يوم البعث، وهذا متمثلاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝ ﴾ (التكوير: ١٠) فقد ذهب الطوسي إلى أن «الصحف جمع صحيفة تكتب فيها أعمال الخلق من طاعة ومعصية فتنشر عليه ليقف كل إنسان على ما يستحقه»[٦]. وهذا أيضاً ما أشار إليه القرطبي بقوله: «يقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها فيقول: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ (الكهف: ٤٩) فإذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ ﴾ (الحاقة: ٢٢) إلى قوله ﴿ ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة: ٢٤) وتقع صحيفة الكافر في يده ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ ﴾ (الواقعة: ٤٢)إلى قوله ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ (الواقعة: ٤٤).. »[٧]وهكذا يظهر لنا سياق الآية أن جميع أفعالنا مرصودة في الدنيا من الله سبحانه وتعالى وتسجل تلك الأفعال (بصحائف) لا يمكن نكران ما فيها، وبهذا يوحي السياق بأنها أداة كشف ومعرفة لأعمال البشر الدنيوية وأفعالهم والتي توقفه على ما يستحقه من ثواب أو عقاب. هذا ما ذهب إليه سيد قطب في تفسيره للآية عندما قال: «صحف الأعمال،

---

(١) العين: ٣ / ١٢٠.

(٢) الصحاح: ٤ / ١٣٨٤.

(٣) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٥٨.

(٤) ينظر: الفروق في اللغة: ٢٨٧.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٠٣.

(٦) التبيان: ١٠ / ٢٨٣ وينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٩٣١.

(٧) الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ٨٥٣.

ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها، فلا تعود خافية ولا غامضة، وهذه العلنية أشد على النفوس، وإن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم، كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يكشف المخبوء ويظهر المستور، ويفتضح المكنون في الصدور»[١]، وفي الوقت نفسه تتحول لفظة (الصحيفة) من أداة كشف ملأتها أعمالنا إلى سبيل من سبل الهداية البشرية المتكاملة التي يكمل بعضها بعضا بما فيها من إحالة إلى قصص الأمم الماضية والكتب التي نزلت على النبيين مع مخالفة بأن صحف النبيين خُطت بوحي من الله سبحانه وتعالى، وكما في سياق الآية القرآنية ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ ﴾ (البينة: ٢) وقيل (رسول من الله) أي محمد (ﷺ) وهو بدل من البينة (يتلو) يقرأ عليهم (صحفاً) قراطيس (مطهرة) من الباطل (فيها) في الصحف (كتب) مكتوبات (قيمة) مستقيمة ناطقة بالحق والعدل[٢]، وقيل: إن هذه الصحف من القرآن منزهة عن الباطل والكفر والزور[٣]، إذاً، الصحف هنا تعني (القرآن) وهذا ماأشار إليه السيوطي حين قال: «فقد جعل من معجزات هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه والآلات الدنيوية عن استيفائه»[٤] ومثيل اللفظ في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (طه: ١٣٣). وقد أشار النسفي إلى أن الصحف الأولى «تعني الكتب المتقدمة يعني أنهم اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة فقيل لهم أولم تأتيكم آية هي أم الكتاب وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها»[٥]، فعلى هذا، إنّ الصحف الأولى هي كتب الأنبياء السابقين... الصحيفة: قطعة من ورق أو كاغد أو خرقة يكتب فيها، ولما كان الكتاب مجموع صحف أطلقت الصحف على الكتب

---

(١) في ظلال القرآن: ١٩ / ١٥٣.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٩٨٦.

(٣) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٨١٨.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: ٤ / ٣٦.

(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٩٨٦.

علماً وأن جميعه حَواه القرآن، فكان كل جزء من القرآن آية ودليلاً، وهذه البينة هي محمد (ﷺ) - وكتابه القرآن لأن الرسول موعود به في الكتب السالفة[١].

وبهذا نلمس بأن الصحيفة التي هي إحدى أدوات العلم تبين معجزة الخالق الذي وهبها لإنسان لا يقرأ ولا يكتب، وأصبحت حجته في الدنيا، وتبين هذا في قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ (المدثر: ٥٢) وقد أشار سيد قطب إلى قوله تعالى المعنى الحسد للنبي (ﷺ) أن يختاره الله تعالى ويوحي إليه، والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة، وأن يؤتى صحفاً تنشر على الناس وتعلن، واختار الله لها ذلك الإنسان الكريم العظيم، فكان الحنق الذي يغلي في الصدور والذي يكشف عنه القرآن[٢].

وبهذا يصور لنا الإعجاز القرآني للآية ويبين ويرسم صور النفوس الضعيفة من الداخل بما ابتنيت عليه من طمع وحسد كان حصيلتها الجحود والإعراض، وكانت الصحف تردع ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح.

١٢ - ٢: الصواع

للجذر (صوع) أصل صحيح وله بابان: أحدهما يدل على تَفُرق وتَصُدع والآخر إناء... فأما الإناء فالصَاع والصُواع وهو إناء يشرب به، وقد يكون مكيال من المكاييل صاعاً وهو من ذات الواو وسمي صاعاً لأنه يدور بالمكيل[٣].

والصَاعُ: «مكيال يأخذ أربعة أمداد»[٤] وكذلك «فهو مكيال معروف والجمع صيعان وأصوع في أدنى عدد والصَّوع مصدر صاعت المرأة لقُطنها موضعاً لتندفَه تصوعه صوعاً، والصاع أيضاً الموضع الذي يلعب فيه بالكرة»[٥].

وقيل: الصواع يذكر ويؤنث واجتمعوا في التذكير بقوله تعالى ﴿ وَلِمَن جَآءَ

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦ / ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٣٧٢.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٣٢١.

(٤) العين: ٢ / ١٩٩.

(٥) الجمهرة: ٣ / ٢٦٠.

بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ (يوسف: ٧٢) واجتمعوا في التأنيث بقوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ ﴾ (يوسف: ٧٦) وبعضهم لا يرون أن التذكير والتأنيث اجتمعا في اسم الصُواع وإنما اجتمعا لأنه سمي باسمين: أحدهما مذكر والآخر مؤنث فالمذكر الصُواع والمؤنث السّقاية، وقد اختلف الناس في معنى الصُواع، فمنهم من قال: «الصُواع جام كهيأة المكوك من فضة كانوا يشربون فيه في الجاهلية، وقال غيرهم: الصواع الطرَجهالِة (بلغة حمير: إناء يشبه الفنجان) وقال غيرهم أيضاً الصواع: «المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه وفيه أربع صُواع، وَصوع وصَاع وصَوْع»[١].

والصواع: «هو آلة الكيل وبمعنى المشربة أو الجام الذي يشرب فيه والمعبر عنه بالسقاية»[٢]، ومن المجاز: «الراعي يَصوع أبله ومنه: انصاع القوم إذا مرّوا سِراعاً»[٣]، وقد أشار الكفوي إلى بيان قيمة الصاع بقوله «كل صاع مُدّان وكل مَنّ رطلان وكل رطل عشرون أستاراً وكل أستار ستة دراهم ونصف، فيكون كل صاع ألفاً وأربعين درهماً»[٤].

وعلى ذلك، فالصاع ثمانية أرطال عند أهل العراق وعند أهل الحجاز خمسة أرطال وثلث[٥]. وردت لفظة الصواع في موضع واحد من القرآن الكريم[٦]، بوصفها أداة في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ (يوسف: ٧٢) وهو السّقاية المذكورة في الآية (٧٠) من سورة يوسف[٧].

وقد ذهب القرطبي إلى أن «السقاية والصواع شيء واحد، إناء له رأسان في وسطه مقبض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام من الرأس

(١) ينظر: المذكر والمؤنث: ١/ ٤٤١-٤٤٢.
(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ٢ / ١٩.
(٣) أساس البلاغة: ٣٦٤.
(٤) الكليات: ٢ / ٩٧.
(٥) ينظر: المُغرب في ترتيب المعرب: ٢٧٤.
(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤١٧.
(٧) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٩٧.

الآخر، واختلف في جنسه، قيل: كان صواع الملك شيء من فضة يشبه المكوك من فضة مرصع بالجوهر يجعل على الرأس، وكان للعباس واحد في الجاهلية ...، وكان من ذهب، وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم، وقيل: إنما كان يكال به لعزة الطعام»[١]، ومعنى الآية عامة أنه ضاع منا مكيال الملك المرصّع بالجواهر[٢] والمعروف، أن إخوة يوسف (ﷺ) أقبلوا على من يتهمونهم بالسرقة متسائلين: ماذا فقدتم؟ ولماذا تتهموننا؟ (قالوا نفقد صواع الملك...) أي إن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم: لقد ضاعت سقاية الملك ويقال لها صواع، ومن سيخرجها من المكان المختفية به سوف ينال مكافأة قدرها وَزْن حِمْل بعير، فلعل صواع الملك قد خبئت في حِمْل أحدكم دون قصد، وأكد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يخرج صواع الملك، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته، وهي حِمْل بعير من المَيرة والغذاء[٣]. وينكشف السر الإلهي عن سبب تهمة يوسف لأخيه بالسرقة بقول الحمصي: «ولكن القوم مستيقنون من براءتهم، فهم لم يسرقوا وما جاءوا ليسرقوا وليجترحوا هذا الفساد الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات ... وهنا ينكشف طريق التدبير الذي ألهمه الله ليوسف (ﷺ)، فقد كان المتبع في دين يعقوب، أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقاً في مقابل ما سرق، ولما كان إخوة يوسف (ﷺ) موقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف (ﷺ) وأخيه»[٤].

وكما هو معروف فإن الصواع آلة وأداة يوزن به ويحمل به ما يوزن من مكان إلى مكان آخر، فضلاً عن قيمته الشرعية الدقيقة، إلا أن دلالة الصواع في السياق القرآني للآية تلميح من طرف خفي إلى أن الله سبحانه وتعالى ألقى في روع يوسف (ﷺ) أن تذرع بحجة - أية حجة - تتهم الإخوة وتشعرهم بمعنى الظلم حينما يكون الإنسان بريئاً، وهذا يأتي ضمن سياق قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ١٥٠.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ٢ / ٦٢.

(٣) ينظر: الشعراوي: ١١ / ٧٠٢٤-٧٠٢٥.

(٤) قصص الرحمن في ظلال القرآن: ٢ / ٢٨٢-٢٨٣.

وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (يوسف: ٧٥) والوجه الآخر الطرف الخفي الذي أراد يوسف (ﷺ) أن يحققه، هو الوصول إلى براءته من تهمة حصر محبته الخالصة من أبيه له، والوصول إلى معرفة أخبار أبيه واللقاء به كي تتحقق المعجزة الإلهية الواردة في مطلع السورة: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (يوسف: ٤) .

١٢ - ٣: الصور

للجذر (صور) كلمات كثيرة متباينة الأصول، ومما ينقاس منه قولهم صِوَر يَصور إذا مال، وَصُرْت الشيء أصُوره، وأصَرْتُه، إذا أمَلتُه إليك، ويجيء قياسُه تَصَوُّر لِمَا ضُرِب، كأنه مال وسقط فهذا هو المنقاس، وسوى ذلك فكل كلمة منفردةٌ بنفسها[١]. وقد ذكر ابن دريد أن الصُور جمع صورة، وقال غيره الصور قرن ينفخ فيه لغة يمانية[٢] ويقال أيضاً الصور بالضم «القرن ينفخ فيه، قلت يصح إطلاقه على كل ما ينفخ فيه للتصويت سواء كان قرناً أو غيره»[٣]، وقد ذكر ابن ناقيا بأن: «الصور عند أهل اللغة جمع صورة ينفخ منها روحها فتحيا، وجاء في التفسير: إن الصور قرن ينفخ فيه اسرافيل (ﷺ) والله أعلم»[٤].

وردت لفظة (الصور) في عشرة مواضع من القرآن الكريم[٥]، وقد التزم فيها كلها بكلمة النفخ في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ (النبأ: ١٨) فقد قيل: «هو مثل قرن وينفخ فيه، فيجعل الله سبحانه ذلك سببا لعودة الصور والأرواح إلى أجسامها»[٦] وقد ذهب الطوسي إلى أن النفخ يعني إخراج ريح

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٣١٩-٣٢٠.

(٢) ينظر: الجمهرة: ٢ / ٣٦٠.

(٣) الآلة والأداة: ١٨٨.

(٤) الجمان في تشبيهات القرآن، لابن ناقيا: ١٧٧.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤١٦، معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٩٧.

(٦) المفردات: ٢٩٢.

الجوف من الفم، ومنه أيضاً: نفخ الزق والنفخ في البوق ونفخ الروح في البدن يشبه بذلك لأنها تجري فيه كما يجري الريح مجرى الريح في الشيء، والصور أيضاً: قرن ينفخ فيه[1]. وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ (الأنعام: ٧٣) وقد أشار الرازي إلى أن الله سبحانه وتعالى ما ذكر أحوال البعث في القيامة إلا وقرر فيه أصلين: أحدهما: كونه قادراً على كل الممكنات، والثاني: كونه عالماً بكل المعلومات ... أما إذا ثبت بالدليل حصول هاتين الصفتين كما الغرض والمقصود، فقوله: (وله الملك يوم يُنفخ في الصور) يدل على كمال القدرة[2]، إلا أن سيد قطب وضح معنى الصور هنا هو (القرن المجوف كالبوق)، وفي هذا اليوم أي الحشر والذي يكون فيه البعث والنشر بكيفية غيبية لا يعلمها البشر فهي من غيب الله الذي احتفظ به، والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته، ومن ناحية أخرى كيفية استجابة الموتى له، إلا أن الروايات المأثورة تقول أن البوق هو بوق من نور ينفخ فيه مَلك، فيسمع من في القبور حيث يهون للنشور - وهذه هي النفخة الثانية - أما الأولى فيصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، كما جاء في سياق قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر: ٦٨) وكل هذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا - عن يقين - أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه، وهو بعد كل هذا غيب من غيب الله نَعلم عنه بقدر ما أعطانا الله ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ولا يقين، إنما هي الظنون[3]. وهذا أيضاً ما أشار إليه ابن عاشور بقوله «تقول الروايات: النفخ في الصور مَثَل ضُرِب للأمر التكويني بحياة الأموات الذي يعُمّ سائر الأموات، فيحيون به ويحضرون للحشر كما يحضر الجيش بنفخ الأبواق ودَق الطبول»[4]، ويقال أيضاً: «إن الملك الموكَّلُ بالصور الذي يُنفُخُ فيه بأمر الله عز وجل هُوَ إسرائيل (ﷺ) وهو ينفخ فيه النفخة

(١) ينظر: التبيان: ١٠ / ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٣ / ٣٤.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٧ / ٢٨٥.

(٤) التحرير والتنوير: ٧ / ٣٠٨.

الأولى لقيام الساعة الأولى التي تموت بها الأحياء، والنفخة الثانية لقيام الساعة الثانية التي يُبْعَثُ بها الخلائق إلى الحياة مَرَّةً أخرى، لاستكمال الخطَّةِ الرَّبانية المقرر للحياتين، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار السؤال والحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء»[١]، وهذا ما هو مبين في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ ﴾ (يس: ٥١) وقد أشار النسفي إلى أن هذه النفخة هي النفخة الثانية، والصور القرن أو جمع صورة[٢]، أي هي نفخة البعث عندما يبعثون من القبور ويخرجون مسرعين[٣]، وتصوير النفخ في الصور هو تشبيه حسي مادي من واقع ما يعرفه الناس ويشاهدونه، وحقيقة ما هو صور وكيف يكون النفخ ذلك كما قلنا من عالم الغيب الذي لا شأن للإنسان أن يبحث فيه، ويكفينا يقيناً أن يصدق به[٤]، ونخلص من كل هذه التفاسير والتعليقات والإشارات إلى أن آلة (الصور) تعد شكلاً من أشكال التذكير الإلهي لعبيده لتخبرهم بأنه ليس هناك خلود في الأرض، فهو الباقي الوحيد والآمر الوحيد الذي تجتمع بين يديه كافة المخلوقات بعد النفخ في الصور.

---

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر: ١ / ٩٣.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٤٤٤.

(٣) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٥٦١.

(٤) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن: ٣٥٤.

١٣ . حرف الطاء

١٣ - ١: الطَبَق - طباق

للجذر (طبق) أصل صحيح واحد يدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يُغطّيه، من ذلك الطبق نقول: أطبقت الشيء على الشيء، فالأول طبق الثاني، وقد تطابَقَا. ومن هذا قولهم: أطبق الناس على كذا. والطبق أيضاً: «عظم رقيق يفصل بين الفَقرتَين. والطِّبَق: جماعة من الجراد إنما شبه ذلك بطبق يغطّي الأرض»[١] والطَّبَقُ: «كل غطاءٍ لازم»[٢]. وقال الجوهري: إن الطَّبَق «واحد الإطباق... ويقال أتانا طبقٌ من الناس، وطَبَقٌ من الجراد، أي جماعة ... وطباق الأرض ما علاها»[٣]. ونقول (وافق شَنٌّ طبقه): غِطاءه. ووضع الطّبق على الخُبّ وهو مَتاعه. ومن المجاز: مطرٌ طَبَقُ الأرض - وجراد طَبَقُ البلاد: قد غَطاها وجَللها بكثرته وفي مثل [إحدى بنات طبَق شرُّكِ على رأسكَ] وهي الداهية وأصلها الحية لأنها تُشبه الطبق إذا استدارت أو لأن الحواء يمسكها تحت طبق السّفط أو لإطباقها على الملسوع[٤]، والطّبَقُ: «الذي يؤكل عليه والجمع أطباق وقول العباس في النبي محمد (ﷺ): إذا مضى عالم بدا طَبَقٌ؛ فإنه أراد إذا مضى قَرْن ظَهر قَرنٌ آخر، وإنما قيل للقَرْن طَبَقٌ لأنهم طبق للأرض ثم ينقرضون ويأتي طبق للأرض آخر»[٥].

وردت اللفظة وما اشتق منها في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[٦]. ولكن ليس بدلالة الطبق الذي يؤكل فيه بل بمعنى مغاير كما سيتبينْ في سياق قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝ ﴾ (الانشقاق: ١٩) والمعنى الذي ذهب إليه الطوسي يعني: «منزلة عن منزلة وطبقة عن طبقة، وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٤٣٩-٤٤٠.

(٢) العين: ٥ / ١٠٨.

(٣) الصحاح: ٤ / ١٥١١-١٥١٢.

(٤) ينظر: أساس البلاغة: ٣٨٣.

(٥) لسان العرب: ١ / ٢١٠-٢١١ مادة (طبق).

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٢٥.

صلاح فوقه. ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه. لأن كل شيء يحن إلى شكله وقيل: معنى (طبقاً عن طبق) جزاء عن عمل»[1]. وقد أشار الرازي أيضاً إلى قوله تعالى ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ (الانشقاق: ١٩) بقوله: «أي حالاً بعد حال كل واحد مطابقة لأختها في الشدة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة من قولهم هو على طبقات، والمعنى لتركبن أحوالا بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من أهوال القيامة»[2].

ولسيد قطب قول في ذلك وهو «تعانون حالاً بعد حال وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها، والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف في التعبير العربي كقولهم: إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه، وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة، وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها في طريق، فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة، مقدرة كذلك مرسومة كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق، هكذا تنتهي بهم إلى لقاء ربهم»[3]، وهذا أيضاً ما أشار إليه الشيخ حسنين مخلوف بقوله: «أي لتَلاقن أيها الكفار أحوالاً بعد أحوال، وهي طبقات ومراتب في الشّدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة، والمراد بالركوب: الملاقاة. و(عن) بمعنى بَعْد، وهو في المعنى قسمٌ على صحة البعث وما وراءه من أهوال وشدائد»[4].

وقد وردت اللفظة أيضاً في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ﴾ (الملك: ٣) وقد أشار الرازي إلى دلالة معنى طباقاً في التنزيل العزيز مؤكداً فيها على «دليل قدرة الله ودلالة هذه السماوات على القدرة من وجوه أحدها: من حيث أنها بقيت

(١) التبيان: ١٠ / ٣١٣.

(٢) مفاتيح الغيب: ٣١ / ١١٠.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٠ / ٥٢١.

(٤) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٧٩٤.

في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة، وثانيها: من حيث أن كل واحد اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص وثالثها: أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة، ورابعها: كونها في ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استنادها إلى قادر تام القدرة»[1]، ومثيل اللفظ أيضاً في سورة نوح (ﷺ): ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾ (نوح: ١٥) «أي بعضاً على بعض»[2].

---

(١) مفاتيح الغيب: ٣٠ / ٥٧.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٨٧٠.

١٤ . حرف العين

١٤ – ١: العرش

للجذر (عرش) أصل صحيح واحد، يدلُ على ارتفاع في شيء مبنيّ، ثم يستعار في غير ذلك، من ذلك العَرْش: سرير الملك ... وهذا صحيح، قال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...﴾ (يوسف: ١٠٠) ثم استعير ذلك فقيل لأمر الرّجُل وقوامِه: عرش وإذا زال ذلك عنه قيل ثُلَّ عَرشُه، ومن الباب: تعريش الكَرْم لأنه رفعه والتوثّق منه، والعريش: بناء من قضبان يُرفع ويوثق حتى يظلّل. وقيل: للنبي (ﷺ) يوم بدر «ألا نَبْني لك عريشاً»، وكل بناء يستظَلُّ به عَرْش وعَريش، ويقال لسقف البيت عَرْش قال تعالى: ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (البقرة: ٢٥٩)... "[1].

وممّا جاء في العريش قول الخنساء:

إنّ أبا حسّان عرشٌ هوى   مما بنى الله بكنٌ ظليلُ[2]

وقيل العرش: «عِرشَةٌ وأعراشٌ»[3]، وقد ذهب ابن سيده إلى أن العَرْش يطلق أيضاً على بيوت مكة لأنها عيدان تُنصب ويظلّل عليها[4]، والعَرش «شبه هودج للمرأة شبيهاً في الهيئة بعرش الكَرْم ... وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝ ﴾ (النمل: ٣٨) وكُني به عن العز والسلطان والمملكة وعرش الله: ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة»[5]، وقد تطور المعنى اللغوي للفظةحتى صار للعرش

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) شرح ديوان الخنساء: ١٢١.

(٣) العين: ١ / ٢٥٠.

(٤) ينظر: المخصص: ١ / ١٢٨.

(٥) المفردات: ٤٩٣.

عدة معان عن طريق المجاز، فصاروا يسمون سرير الملك عرشاً، ثم صارت الكلمة تحمل الدلالات التي تتعلق بسرير الملك من قوة وعزة وسلطان[١].

وأما ما ورد في الحديث: [اهتز العرش لموت سعد [*]][٢]، فإن العَرْش هنا الجنازة وهو سرير الميت واهتزازه فَرحه بحمل سعد عليه إلى مَدْفنه، وقيل هو عرش الله تعالى لأنه جاء في رواية أخرى: اهتز عرش الرحمن لموت سعد وهو كناية عن ارتياحه بروحه حين صُعِد به لكرامته على ربه، والعَرْش: المُلْك، والعرش: البيت والمنزل»[٣]. وقيل: «عرشُ القوم رئيسهم المَدّبِرُ لأمورهم، وعَرْش الطائر: عُشُّهُ جمع عروش وأعراش»[٤]، وردت اللفظة وما اشتق منها في تسعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم[٥]، وفي هذه المواضع حملت الكلمة ثلاثة معانٍ هي:

الأول: المعنى اللغوي الأساس، وهو مايدل على ارتفاع في شيء مبني، وعليه ورد قول الله عز وجل: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٧) وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل: ٦٨) .

الثاني: المعنى الثاني بمعنى الملك والقوة والعزة، وسرير وهو معنى معروف في العصر الجاهلي وفيه قال عز وجل: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف١٠٠)وقال تعالى: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (النمل: ٢٣) .

---

(١) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: ٤٥٢.

(*) سعد بن معاذ بن الأوس الأنصاري وكان من أعظم الناس بركة، وكان من كبار الصحابة في الإسلام، وشهد بدراً وشهد أحدا والخندق التي استشهد فيها سنة ٥ هـ ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون (مطبعة الشعب، القاهرة: ١٩٧٠م) : ٢ / ٣٧٣-٣٧٤.

(٢) صحيح البخاري: ٣ / ١٣٨٤.

(٣) لسان العرب: ٦ / ٣١٣-٣١٤، مادة (عرش) .

(٤) المعجم الوسيط: ٢ / ٥٩٩.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٥٦-٤٥٧.

والمعـــنى الثالث: هو نسبة العرش إلى الله عز وجل والحديث عنه كما لو كان شيئاً مجسماً وله جرم. وله مكان معلوم، ويفهم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (الزمـــر: ٧٥) وقوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ (طه: ٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ۝ ﴾ (الحاقـة: ١٧)...[١]. وما يعنينا بعد كل هذا القول هو استخدام لفظة العرش في القرآن بوصفه أداة استخدمت استخداماً وظيفياً لتحقيق أمر (ما) وهذا ما جاء ضمن السياق القرآني في مواضع من القرآن الكريم. لأن الله يخاطب الناس من واقع ما يتكلمون وما يتصورونه، في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (يوسف: ١٠٠) وقوله تعالى: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (النمل: ٢٣) وقوله تعالى: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ (النمل: ٣٨)، و ﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ (النمل: ٤٢)، وفي جميعها تعني «أمر من أمرين أما السرير أو المُلك أو المَلِكُ نفسه»[٢] وهذا ما ذهب إليه الطوسي في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ العرش هنا: «هو السرير الرفيع لأنه عندما أخبر الله تعالى أن يوسف (عليه السلام) حين حضر عنده أبواه وإخوته رفع أبويه على العرش، والرفع يعني النقل إلى جهة العلو، ومثله الإعلاء وضده الوضع وأصل الرفع في قوله: ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾» (البقرة: ٢٥٩)... [٣]، أما النسفي فقد أوضح ذلك بقوله: «لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره، واجتمعوا إليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير، وخروا له يعني إخوته الأحد عشر والأبوين سجداً، وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكريم كالقيام والمصافحة... وخروا لأجل يوسف (عليه السلام) سجداً لله شكراً وفيه نبوة

واختلف في استنبائهم (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها،

(١) التطور الدلالي، بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: ٤٥٣-٤٥٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ١٧٩.

(٣) التبيان: ٦ / ١٩٧.

أي الرؤيا (ربي حقا) ...»[1]. وهذا أيضاً ما فسره الشعراوي في قوله تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (يوسف: ١٠٠) فقال: (العرش هو سرير الملك الذي يدير منه الحاكم أمور الحكم وهم قد خروا سجدا لله من أجل جمع شمل العائلة»[2]، هكذا نرى أن ورود لفظة - العرش - في هذه الآية توحي من طرف خفي إلى مشهد رائع بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام وبعد اليأس والقنوط وبعد الشوق المضني يحقق الله المعجزة موصولة بمطلع القصة في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف: ٤) ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة، ويوسف (ﷺ) بين هذا، وكلة يذكر الله ولا ينساه[3]، فلفظة العرش هنا تميط اللثام عن حالة تكريمية أفاضها الله على نبيه يوسف (ﷺ)، وهو يذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته لهم، وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه، وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (النمل: ٢٣) وَقوله تعالى: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾(النمل: ٣٨)، وقوله تعالى: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾(النمل: ٤٢)، علماً أن لفظة - العرش - في هذه الآيات معناه الظاهري تعني سرير الملك[4]، وقيل: «إنه كان للملكة بلقيس من أسباب الدنيا ما يليق بحالها ومنه سرير عظيم كبير قيل كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً وطوله في الهواء ثمانون ذراعاً، وكان من ذهب وفضة وكان مرصعاً بأنواع الجواهر وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبواب على كل بيت باب مغلق واستصغر حالها إلى حال سليمان (ﷺ)، فاستعظم عرشها لذلك وقد أخفى الله تعالى على سليمان (ﷺ) ذلك لمصلحة يراها...، ووصف عرش بلقيس تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك»[5].

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢ / ٧٩٢.
(٢) الشعراوي: ١٢ / ٧٠٧٧.
(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ١٣ / ٤٧.
(٤) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٤٨٣.
(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢ / ١٦٢٦-١٦٢٧.

وبهذا يظهر أن المعنى البعيد للفظة (العرش) يرجح أن يكون وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيد النبي سليمان (ﷺ) لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله والإذعان لدعوته[١].

وهكذا يوحي سياق اللفظة في هذه الآيات إلى القوة الإلهية العجيبة التي كان يملكها النبي سليمان (ﷺ) وتسخير كل المخلوقات له والعمل بأمره، هذه القوة التي لا يملكها أي مخلوق مهما بلغ من الرفعة والملك، وهذا يؤكد بأنها معجزة الخالق يوهبها لأنبيائه المكرمين ليعزز دعواهم ويطوع قلوب الناس إليهم بما يرون منهم من معجزات يعجز أي مخلوق بالقيام بها، عندئذ يدركون بأن هذه الخوارق لا تكون إلا بفعل خالق وقدرة إلهية عظيمة في طاقتها العظمى والمدمرة لكل ما عداها.

١٤ - ٢: العروة

للجذر (عرو. عري) أصلان صحيحان متباينان يدلُّ أحدهما على ثبات وملازمة وغشيان، والآخر يدل على خلو ومفارقة ... ومن الباب العُروة عُروة الكُوزِ ونحوه، والجمع عُري: وعَرّيتُ الشيء: اتخذت له عروة، وإنما سميت العروة لأنها تُمسَك وتَلزَمها الإصبع[٢]، قال الفراهيدي: «والعُروة من النبات ما تبقى له خُضرة في الشتاء تتعلق بها الإبل حتى تدرك الربيع وهي العُلْقة»[٣]، والعُروة أيضاً من الشجر: «الشيء الذي لا يزال باقياً في الأرض ولا يذهب، وجمعه عُرىً، ويشبه به البُنْك[٤] من الناس، والعُروة: الأسد وبه سمي الرجل عُروة»[٥]، وكنى بها العباس بن عبد المطلب (ﷺ) ويقال: عراه بهم اعتراه أي أصابه (وعروت) الرجل أتيته طالباً[٦]، وقد ذكر الزمخشري أن العُروة والعِروَة تستعار لما يوثق به، ويُعوَّل

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١٩ / ٢٧٤.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٢٩٥.

(٣) العين: ٢ / ٢٣٥.

(٤) البُنك: هو أصل الشيء.

(٥) الصحاح: ٦ / ٢٤٢٣.

(٦) ينظر: المُغرب في ترتيب المعرب: ٣١٣.

عليه فيقال للمال النفيس والفرس الكريم: لفلان عُرْوَة وللإبل عُروة من الكلأ وعُلْقَة: لبقية تبقى منه بعد هَيجْ النبات تتعلق بها لأنها عِصمة لها تراغم إليها، وقد أُكل غيرُها[١]، وقيل: إن العروة الوثقى تعني العقدة المحكمة الوثاق[٢]. وفي الحديث: «لا تُشَدُّ العُري إلاّ إلى ثلاثةِ مساجِدِ»[٣]. هي جمع عُروة يريد عُرى الأحمال والرّواحِلِ، وقيل: العُروة الوثقى قول لا إله إلا الله، وقيل: معناه فقد عَقَدَ لنَفسه من الدّين عَقْداً وثيقاً لا تَحُلُّهُ حُجَّة... ويقال أيضاً: الطَوق القلادة: عُرْوة»[٤].

وقد وردت لفظة - العروة - في موضعين من القرآن الكريم[٥] في قوله تعالى ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) وقد ذهب الرازي في تفسيره للآية فقال: «إنه من أراد إمساك شيء يتعلق بعروته، فكذا هاهنا من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه لما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها لا ضير من وصفها بـ (العروة الوثقى).. »[٦]. والاستمساك بالعروة الوثقى تمثيلي «شبهت هيأة المؤمن في ثباته على الإيمان بهيأة من أمسك بعروة وثقى من حبل وهو راكب على صَعب أو في سفينة هول البحر، وهي هيأة معقوله شبهت بهيأة محسوسة»[٧]، وقد أطلقت لفظة العروة للدلالة على الثبات والملازمة سواء في الإيمان أو القرآن أو الاعتقاد أو السبب الموصل إلى رضا الله تعالى، وكما هو معلوم أن العُروةَ من الدّلو والكُوز: مقبضه، ومن الثوب: مَدخلُ زرّه، استُعملت في المعاني المذكورة على سبيل التجوز[٨]، ومثيل اللفظة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

(١) ينظر: أساس البلاغة: ٤١٨.
(٢) ينظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ٢ / ٥٩.
(٣) لسان العرب: ١٥ / ٤٥-٤٦. وعند مراجعنا لتخريج الحديث وجدناه على النحو التالي (لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) ينظر: صحيح البخاري: ١/ ٤٠٠.
(٤) لسان العرب: ١٥ / ٤٥-٤٦.
(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٥٩.
(٦) مفاتيح الغيب: ٧ / ١٧.
(٧) التحرير والتنوير: ٣ / ٢٩.
(٨) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٦٣.

وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ (لقمان: ٢٢) معنى القول: أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله، أي خالصاً له، ومعناه راجع إلى أن سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا رفع إليه، والمراد التوكل عليه والتفويض إليه[١].

وقد ذهب سيد قطب إلى أن العروة الوثقى هنا: «الصلة الوثيقة المطمئنة بين قلب المؤمن المسلم وربه، وهي الطمأنينة إلى كل ما يأتي به قدر الله في رضى وثقة وفي قبول، طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها، والعروة الوثقى هي عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان»[٢]، وقال حسنين مخلوف: «شُبّه المتوكل على الله في جميع أموره، المحسن في أعماله بمن ترقى في جبل شاهق، أو تدلى منه فاستمسك بأوثق عُرْوَة من حبل متين مأمون انقطاعه»[٣]، فالعروة إذاً أداة من أدوات الاتصال والثبات والتواصل، والإسلام بحد ذاته عروة قوية في جميع وجوهه، وبدون هذه العروة تتفكك وحدته وتختلف جماعته، العروة تدل على الوجه الصحيح المستقيم وهي مخالفة حتماً لما عداها من عرى في معانيها لاستخدامه[٤].

١٤ - ٣: العصا

للجذر (عصو) و(عصي) أصلان صحيحان إلا أنهما متباينان يدل أحدهما على التجمعُ، ويدل الآخر على الفُرقة، فالأول العصا، وسميت بذلك لاشتمال يد مُمسكها عليها، ثم قيس ذلك فقيل للجماعة عَصَا ويقال: العَصا: جماعة الإسلام فمن خالفهم شَق عصا المسلمين ... والجمع من غير عددٍ عِصُِ وعُصّ، ويقيسون على العصا فيقولون: عَصَيْتُ بالسيف[٥]، وقد ذكر الفراهيدي أن العصا أنثى فيقال عصا وعَصَوان وعِصِيّ... وعصا يعصو لغة ... ونقول: عَصى يَعصي عصياناً

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤ / ٥١.

(٢) في ظلال القرآن: ٢١ / ٤٩٢.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٥١٩.

(٤) ينظر: القيم الجمالية في السور المكية: ١٢٧.

(٥) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٣٣٤.

ومَعصية، والعاصي: اسم الفصيل خاصة إذا عصى أمه في اتباعها[١] قال جرير:

تَـصِف السيوف وغيركم يَعْصَ بها ... يا ابن القُيُونِ وذَاكَ فِعْلُ الصَّيْقلِ[٢]

ومن الباب: «عَضوتُ الجرح أعضُوه، أي داويته وهو القياس لأنه يتلاءم أي يتجمع... ومن الباب قوله (ﷺ): «لا تَرفَع عصاك عن أهلك»[٣]، لم يُرد العصا التي يُضرب بها ولكنه أراد الأدب، وقيل: أصل العصا الاجتماع والائتلاف وهذا يُصحح ما قلناه في قياس هذا البناء، والأصل الآخر: العصيان والمعصية يقال: عَصَى وهو عاصٍ: والجمع عُصاة وعاصون»[٤]، وفي المثل: (العَصا من العصَيّةِ) أي بعض الأمر من بعض. وقيل: أول لحن سمع بالعراق: هذه عصاتي»[٥]، وقيل: «والعصا: أصله من الواو لقولهم في تثنيته عصوان ويقال في جمعه عصي»[٦] والعصا أيضاً: «العود والعصا، مقصور: مصدر قولك عَصِي بالسيف يَعْصَ إذا ضَرَبَ به ... وروي عن بعض البصريين قال: سميت العصا عصا لأن اليد والأصابع تَجتَمع عليها مأخوذ من قول العرب: عَصَوْتُ القَوم أعصُوهم إذا جَمَعتهم على خير أو شر»[٧].

ويقال أيضاً العصا: «هي اللسان وعظم الساق»[٨]، وقيل: إن من المعنى الحسي العصا، وَمْن عَصَى فخرج عن الطاعة، فكأنه يتمنع بالعصا، وقد يكون من معنى الصلابة في العصا[٩] وقيل أيضاً: «العصا: ما يتخذ من خشب وغيره للتوكؤ عليه أو الضرب به وجمعها عِصّي»[١٠].

---

(١) ينظر: العين: ٢ / ١٩٧-١٩٨.

(٢) ديوان جرير: ٣٥٩.

(٣) مقاييس اللغة: ٤ / ٣٣٥. وعند مراجعتنا لتخريج الحديث وجدناه على النحو التالي (لا تضع عصاك عن أهلك). ينظر: الأحاديث المختارة، محمد بن عبد الواحد الحنبلي: ٨ / ٢٨٨.

(٤) مقاييس اللغة: ٤ / ٣٣٥.

(٥) الصحاح: ٦ / ٢٤٢٨.

(٦) المفردات: ٥٠٤.

(٧) لسان العرب: ١٥ / ٦٤ مادة (عصا).

(٨) الكليات: ٢ / ٦٥٣.

(٩) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٢٢٤.

(١٠) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ٢ / ٦٥.

وردت لفظة (العصا) في اثني عشر موضعاً من القرآن الكريم[١]، إفرادا وجمعاً، واستخدامها في هذه المواضع كان لأمر ديني وبيان معجزة من معجزات الخالق، وليس كما تستخدم (العصا) في الدنيا لأغراض خدمية، وهذا ما سنلاحظه ضمن سياق قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (طه: ١٨) وقد ذهب الزمخشري إلى أن سؤال الله لنبيه موسى (عليه السلام) عن العصا «إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وجل في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة»[٢]. كما أشار الرازي إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (طه: ١٧-١٨)، ويذكر الرازي في تفسيره للفظة أن قوله تعالى ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ لفظتان فقوله (وما تلك) إشارة إلى العصا، وقوله (بيمينك) إشارة إلى اليد، ومن هذا نكت (إحداها) أنه سبحانه لما أشار إليهما جعل كل واحدة منها معجزاً وبرهانا باهراً، ونقله من حد الجمادية إلى مقام الكرامة. فإذا صار الجماد بالنظر الواحد حيواناً، وصار الجسم الكثيف نورانياً لطيفاً ... (وثانيها) أن بالنظر الواحد صار الجماد ثعباناً يبتلع سحر السحرة، فأي عجب لو صار القلب بمدد النظر الإلهي بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء. (وثالثها) كانت العصا في يمين موسى (عليه السلام) فبسبب بركة بيمينه انقلبت ثعباناً وبرهاناً[٣].

وعلى هذا فإن مقصود السؤال من الله تعالى لموسى (عليه السلام) تقرير الأمر حتى يقول موسى هي عصاي، ليثبت الحجة عليه بعد ما اعترف وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل ... وكان جواب السؤال بأكثر مما سئل؛ لأنه لما قال: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (طه: ١٧) ذكر معاني أربعة وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا والتوكؤ، والهش، والمآرب المطلقة، فذكر موسى (عليه السلام) من منافع عصاه

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٦٣.

(٢) الكشاف: ٣ / ٥٧.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٢ / ٢٤-٢٥.

عظمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك[1]. ولسيد قطب أيضاً توجيه في ذلك فقال: «السؤال إنما كان عما في يمينه ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل فهي واضحة، إنما عن وظيفتها معه فأجاب... وذلك أقصى ما يعرفه موسى (عليه السلام) عن تلك العصا.. أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم... وأنه يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره أنموذجا منها، ولكن هاهي ذي القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر له على بال، تمهيداً لتكليفه بالمهمة الكبرى في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ (طه: ١٩-٢٠-٢١)...[2]وقيل: «اسم العصا نبعة وقيل في المآرب: كانت ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه معلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذ كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه. وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه، فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفع نضب، وكانت تقيه الهوام»[3]. بعد كل هذه الصفات والمآرب والمعجزات التي تميزت بها عصا موسى (عليه السلام) يظهر لنا السياق القرآني كيف أن هذه الخشبة تسعى وتتحرك وتدبُّ وتصبح حَيةً وتتحرك في خفية في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (طه: ٢٠) .

وتقع المعجزة ولم تعد عصا موسى التي صاحبها طويلا، والتي يعرفها

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ١٢٥.

(٢) في ظلال القرآن: ١٦ / ٤٦٨ – ٤٦٩.

(٣) الكشاف: ٣ / ٥٨.

معرفة اليقين، إنها حية تدب في سرعة وتتحرك بخفة..."[١]، وبهذا يتبين أن الله جمع لموسى (ﷺ) في عصاه من البراهين العظام والآيات الجمة ما آمن به السحرة[٢]، وعندئذ يأتي النداء العلوي بقوله تعالى: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ (طه: ٢١)، وبعد كل هذا يتبين لنا أن لهذه العصا في القرآن الكريم صوراً مختلفة ففي موضع توصف بأنها حيّة تسعى كما هو مبين في سياق سورة طه الآية (٢٠)، وفي موضع آخر توصف بأنها: ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ (القصص: ٣١) ومثيل اللفظ في سورة النمل: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ (القصص: ١٠)، وفي موضع ثالث توصف بأنها ثعبان مبين، قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٠٧). كذلك بنفس اللفظة في سورة الأعراف: (١٠٧) «وهذه الأوصاف المتغايرة على شيء واحد إنما اقتضتها داعية الحال يجيء الوصف مطابقاً لهذا المقتضى جارياً على حكمة يقع موقعه من الغرض الذي دعى له، ففي الموضع الأول بدت العصا لموسى (ﷺ) حية تسعى وذلك قبل أن يلتقي فرعون بهذه المعجزة، وإنما كان ذلك أول اختبار للعصا التي في يده وقد دعاه الله سبحانه وتعالى أن يلقيها لتظهر له المعجزة والتي تضمرها في كيانها، فظهرت تلك المعجزة ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾، وفي الموضع الثاني وهو امتحان شخصي أيضاً بين موسى (ﷺ) والعصا ليطمئن إليها ويعتاد المنظر المخيف الذي يطلع عليه منها في هذا الموضع تبدو العصا (كأنها جان)...»[٣]. والنظر في الترتيب الزمني لنزول الآيات الكريمة والتي حملت أوصاف (العصا) يكشف لنا إعجاز كلام الله سبحانه وتعالى، وعما انطوى عليه من أسرار لا تنتهي... فتجربة العصا مع موسى (ﷺ) قبل أن يدخل بها على فرعون كانت تجربة المتحدي بتلك المعجزة[٤] وبهذه الأداة الهينة - العصا - انتصر النبي

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٣ / ٧٥.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ١٢٦.

(٣) إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة: ٢٩٥-٢٩٧.

(٤) إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة: ٣٠٠.

موسى (ﷺ) بإرادة الله على السحرة واستخلص بني إسرائيل، وعبر بهم البحر ثم ذهب إلى ميعاد ربه على الطور[1].

وقد التمسنا ضمن سياق الآيات القرآنية المذكورة آنفا بأن هذا العود البسيط المتمثل بـ (العصا) أذهل وأبطل صنيع السحرة والجان، وأصبح أداة برهان على انتصار الأنبياء الذين تنصرهم إرادة الله سبحانه وتعالى التي جعلت بطانة فرعون يؤمنون بعصا موسى (ﷺ)، لأنهم أيقنوا أن هذه الأداة تحركها إرادة أعلى من إرادة موسى (ﷺ) وليس عامل السحر المخادع المألوف لديهم كما في قوله تعالـــــــى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١١٧) .

وهذا ألمح إليه ابن تيمية عندما قال: «إنه يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس نبي، فكل ما عارضها (صادراً) من ليس من جنس الأنبياء فليس من آياتهم، ولهذا طلب فرعون أن يُعارض ما جاء به موسى لمّا ادعى أنه ساحر، أي المدّعي هو فرعون: زعم أن ما جاء به موسى (ﷺ) سحر وأنه (ﷺ) ساحر فجمع السحرة ليفعلوا ما يفعل موسى، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة وأمرهم موسى (ﷺ) أن يأتوا أولاً بخوارقهم فلما أتت وابتلعتها العصا التي صارت حية، عَلِمَ السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا إيمانا جازماً، ولما قال لهم فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ (طه: ٧١) فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتاد لأمثالهم، وأن هذا ليس من هذا الجنس، بل هو مختص بمثل هذا فدّل على صدق دعواه»[2].

١٤ – ٤: العمد

للجذر (عمد) أصل كبير فروعه كثيرة ترجع إلى معنى، وهو الاستقامة في الشيء منتصباً أو ممتداً، والعمود من الخشب أو الحديد، والجمع أعمدة، ويكون

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٦٥.

(٢) النُبوات، تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية، : ١٦٩-١٧١.

ذلك في عمد الخباء[1]. وقد ذكر ابن دريد قائلاً: «والعَمْدُ ضد الخطأ عَمدت للأمر إذا قصدته أعمده عمداً وعمدت الشيء أعمده عمداً إذا أسندته والشيء الذي يسند إليه عِماد... وعمود الصبح ابتداء ضوءه، ورجل عميد سيد، يعتمد عليه»[2]، وقال ابن منظور: «ومنه العِماد: الأبنية الرفيعة يذكر ويؤنث، الواحدة عمادة، ويقال أيضاً: إن العمود يعني العصا»[3]، ويقال: «أنت عُمدتنا أي الذي نَعْمدُه لحوائجنا، ويقال: الزم عُمدتك أي قصدك وفلان معمود أي مقصود بالحوائج»[4]. وقيل: إن «من المعنى الحسي العمود والعماد، ما يقام عليه الخباء والجمع عُمدُ وعَمدَ، ومن المعنوي عمود الأمر: قوامه، والعماد الشريف الرفيع، والعَمْد: أن تكابد أمراً بجدٍ ويقين وتعمده كعمد إليه»[5].

وردت اللفظة وما اشتق منها في سبعة مواضع من القرآن الكريم[6]، ففي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...﴾ (الرعد: ٢)، وكذلك اللفظ في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (لقمان: ١٠) وقوله: ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝ ﴾ (الهمزة: ٩)، وقوله: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ﴾ (الفجر: ٧) وفي هذه الآيات نرى أن أداة (العمد) تمثل تارة مدى العذاب والمشقة والمصير المؤلم الذي يلاقيه الإنسان المذنب والعاصي لأوامر الله، وهذا يتمثل بقوله تعالى: ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝ ﴾ أي إن هذه العمد مغلقة مطبقة عليهم، وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنما دخلوا في عمد ثم مدّت عليهم تلك العمد بعماد، وقيل أيضاً: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب، وقيل: هي عمد يضربون بها، وهكذا اختلف أهل التأويل في معنى الآية، إلا أن أولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: معناه أنهم

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ١٣٧.

(٢) ينظر: الجمهرة: ٢ / ٢٨٢.

(٣) لسان العرب: ٣ / ٣٠٣، مادة (عمد).

(٤) أساس البلاغة: ٤٣٤.

(٥) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٢٤٧.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٨٢.

يضربون بعمدٍ في النار - والله أعلم[١] -.

وقد أشار الرازي إلى أنّ في الآية وجهين: (أولهما)، أنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب وفي بمعنى الباء أي أنها عليهم مؤصدة بعمد مدت عليها، ولم يقل بعمد والسبب لكثرتها (القول الثاني) أن يكون المعنى ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ ﴾ حال كونهم موثقين ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝ ﴾ مثل المقاطر التي تقطر فيها للصوص[٢]. وقد ذهب أيضاً سيد قطب في وصفه لحال الإنسان في هذه النار فقال: «إن هذه النار مغلقة عليه، لا ينقذه أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام!»[٣] وقد أوضح الفراهيدي قوله تعالى: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝ ﴾ (الهمزة: ٩)، قائلاً: «أي في شبه أخبية من نار ممدودة، ويقرأ في عُمُد لغة وهي جماعة عمود، ... ويقال هي أوتاد أطباق تطبق على أهل النار ولا يدخل جهنم بعد ذلك ريح ولا يخرج منها تنفس»[٤]، وكل هذا هو تمثيل تقريب لشدة العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس، وحال جهنم أشد مّما يبلغه تصور العقول المعتاد[٥]، فأداة - العمد - في هذه الآية تمثل أداة تعذيب حركية تدركها الجوارح والحواس لكن سياقها القرآني يوحي بالتعبير عن التهديد بالعذاب لما سيحل بالمذنبين والعاصين لأوامر الله وتصور وتمثل مدى هذا العذاب والمشقة ومأساوية المصير المؤلم الذي بدوره يخيف الإنسان ويجعله يتصور مصيره فيتجنبه، وتارة أخرى نجد أن أداة (العمد) تتحول من تصورها المخيف في مخيلة الخلق إلى تصور اعتباري إعجازي لا تدركه الحواس والجوارح، كما في سياق قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: ٢) وفي هذه الآية «ما يدل على وحدانية الله وكونه على صفات لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين لأنه قال تعالى:

---

(١) ينظر: التبيان: ٣٠ / ٥٤١.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٢ / ٩٥.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٠ / ٦٦٣.

(٤) العين: ٢ / ٥٧.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٥٤١.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: ٢) و(عمد) جمع عمود، يقال هذا الجمع قليل والعمود السارية من ضمنه التعميد والاعتماد».

وهذا أيضاً ما أشار إليه الرازي عندما قال: «إن هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي بغير عمد، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الإله القادر... وقال: إن العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الأجسام إنما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله تعالى، وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى، فنتج عن هذا أن يقال: إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة، إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها في الجو العالي، والكل لا يرى ذلك التدبير ولا يعرف كيفية ذلك الإمساك»[١]، ومثيل ذلك اللفظ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (لقمان: ١٠) أي كَوَّنَ وسَوى تعالى السموات من أجزائها بعمد لا ترى أصلاً بطبيعتها (أي غير مادية) والمعنى أي بغير دعائم أو عمد وهي ما يعمد به أي يسند به البناء[٢].

ونخلص من ذلك أن الله تعالى خلق السماء ورفعها من غير حاجة إلى أساس ولا عمد ولا قواعد... وهذا دليلٌ دامغٌ حتى يعتبر الناس والخلق ويعرفوا قدرة الله تعالى التي تتحدى حدود تصورنا، هذه القدرة والقوة التي تمدنا بين الحين والحين بجزء يسير من علمه - أي علم الله - الشامل لكل شيء والمحيط بحركة المخلوقات والتي تعجز عقولنا عن إدراكه مهما بلغنا من علم أو معرفة.

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٨ / ٢٣٧.

(٢) ينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: ٢٣٨-٢٣٩.

١٥. حرف الفاء

١٥ - ١: الفتيل

للجذر (فتل) أصل صحيح يدلُّ على ليّ شيء من ذلك: فتَلتُ الحبل وغيرَه. والفَتيل: ما يكون في شِقِّ النواة كأنه قد فُتِل، ويقال: بل الفتيل ما يُفتل بين الإصبعين[١] وقيل أيضاً الفتيل «القشرة في النواة، ويقال هو ما فتلته بإصبعيك من وسخ اليد وعروقها»[٢]وقد ذكر الجوهري أن الفَتيلَة تعني الذبالةُ، وقولنا وذُبَالُ مُفتَّل ما شدّد للكثرة[٣]، وقيل أيضاً: «إن الفتيلة في بعض اللغات هو لسان السراج يعني ما رَقَّ واستطال»[٤]، وقد أشار ابن منظور إلى أن الفتيل حبل دقيق من خَزمَ أو ليف أو عرق أو قِدّ يُشدُّ على العنان[٥]. إلا أن الزمخشري قال: «ومن المجاز: الرجل مفتول الساعد كأنه فُتِلَ فتلاً لقوته، ونقول ناقة فَتلاء الذراعين، وفي ذراعيها فَتلٌ وهو تباعدها عن الجنبين كأنهما فُتلا عنها، وما يُغني عنك فتيلاً وفَتلَةً وفُتْلَةً، وجاء فلان وقد فُتلت ذؤابته أي خُدع وصُرف عن رأيه، وفَتَلتُهُ عن حاجته: صرفته فانفتل وانفتل من الصلاة»[٦].

وردت لفظة (فتيل) في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[٧]، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء: ٤٩) وكذلك في قوله تعالى: ﴿ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء: ٧٧)، وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾(النساء: ٤٩) وورودها في

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٤٧٢.

(٢) تفسير غريب القرآن: ١٢٩.

(٣) ينظر: الصحاح: ٥ / ١٧٨٨.

(٤) المخصص: ٣ / ٣٩، السفر الحادي عشر.

(٥) ينظر: لسان العرب: ١١: / ٥١٤ مادة (فتل).

(٦) أساس البلاغة: ٤٦٣.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥١١.

المواضع الثلاثة تمثيل للشيء الضئيل القليل، فعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧١) فقد فسر الطوسي معنى الآية بقوله «لا يبخس أحد حقه ولا يظلم شيئاً سواء كان مستحقاً للثواب والعقاب، فإن المستحق للثواب لا يبخس منه شيئاً والمستحق للعقاب لا يفعل به أكثر من استحقاقه، فيكون ظلماً له»[١]، وقيل: إن الفتيل: «الخيط الذي في شق نواة التمرة، وقيل: القشرة التي حول النواة بينها وبين البُشرة، وقيل أيضاً: هو ما يخرج بين إصبعيك أو كفيك من الوسخ إذا فتلتها، فهو فعيل بمعنى مفعول، وهذا كله يرجع إلى كناية عن تحقيق الشيء وتصغيره، وإن الله لا يظلمه شيئاً»[٢]، وذكر الشعراوي أن الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال في القرآن بالمألوف عند العرب وفي بيئتهم، ومن مألوفات العرب، التمر، وهو غذاؤهم المفضل والعِكف لماشيتهم، ومن التمر أخذ القرآن النقير والقطمير والفتيل، وهي ثلاثة أشياء تجدها في نواة التمرة، وقد استخدمها القرآن في تمثيل الشيء الضئيل القليل... ومعنى القول: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء: ٤٩)، أي: أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبدا، فهو سبحانه وتعالى مُنزه عن الظلم مهما تناهى في الصِغَر[٣]، وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧١)، وقيل: إن «دعوة اليهود أنهم شعب الله المختار ... وقد اختارهم الله فعلاً لحمل الأمانة وأداء الرسالة، وفضلهم على العالمين في ذلك الأوان، وأهلك لهم فرعون وملأه، وأورثهم الأرض المقدسة ولكنهم بعد كل هذا انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله وعتوا في الأرض عتواً كبيراً، ... وظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وإن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، وإنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هوداً! كأنَّ المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله تعالى ... فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب، إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح والاستقامة على منهج الله ... إذ ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم،

---

(١) التبيان: ٦ / ٥٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٥ / ١٦٠.

(٣) ينظر: الشعراوي: ١٤ / ٨٦٨٣-٨٦٨٤.

ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله، إنما هو الذي يزكي من يشاء منهم أعلم بالقلوب والأعمال ولن يظلم الناس شيئا، إذا هم تركوا هذا التقدير لله سبحانه وتعالى واتجهوا إلى العمل لا إلى الادعاء»[١] ومما هو ملاحظ أن في الكلام جملةً مطويّة، أي يعاقبون على تلك التزكية الكاذبة عقاباً عادلاً، ولا يظلمون فيه أدنى ظلم وأصغره[٢]. ونخلص من ذلك أن لفظة (فتيل) التي لا تثير انتباهنا في شق النواة لأنها شيء صغير جداً يتحول في أذهاننا داخل السياق القرآني للآيات المذكورة آنفا إلى أن الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في حياتنا حتى ولو كانت بمقدار هذا الفتيل (فالفتيل) عند الله تصوير للشيء الحقير الصغير جداً، ولكنه أصبح أداة في نيل المستحقات سواء أكانت عقابية على أفعال السوء أم كانت ثوابيه على أفعال الخير.

١٥ - ٢: الفراش

للجذر (فرش) أصل صحيح يدل على تمهيد الشيء وبَسْطه يقال: فَرَشْت الفِراش أفرِشُه، والفَرْش مصدر والفَرْش المفروش أيضاً: وسائر كلم الباب يرجع إلى هذا المعنى[٣]. وقيل: «فراش اللسان: لحَمَتُه تَحْتَه، وفراش الرأس، طرائق من القحِفِ وفراش القاع والطين: ما يَبِس بعد نُضُوب الماء من الطين على وجه الأرض»[٤]، وللفرشِ معان أخرى منها: «المفروش من متاع البيت، والزرع إذا فرش والفضاء الواسع، وصغار الإبل»[٥]، وقال ابن سيده: «الفِراش: ما افترشته، والجمع أفرِشةٌ وفروش وإن شئت خففت وهي لغة بني تميم»[٦]، ومن المجاز: «فلان مُتَفرّش للناس: يفرشُ لهم نفسه برّاً بهم، وفَرَّش الطائر وتفرش: رفرف على الشيء باسطاً جناحيه ولم يقع، وفَرش الزرع: انبسط ... وافترش لسانه: يتكلم كيف

---

(١) في ظلال القرآن: ٥ / ٣٩٩.

(٢) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ١١٨.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٤٨٦.

(٤) العين: ٦ / ٢٥٥.

(٥) الصحاح: ٣ / ١٠١٤.

(٦) المخصص: ١ / ٧٣.

يشاء، وأفرش صاحبه: اغتابه»[1]، وقد ذهب الراغب الأصبهاني أنه كنى بالفراش عن كل واحد من الزوجين كما قال الرسول (ﷺ): «الولد للفراش»[2]، وفلان كريم المفارش - أي النساء[3]، غير أن ابن منظور قال: إن الفراش يطلق أيضاً على البيت وعلى عُش الطائر كذلك[4]، ولفظة (فرش) في القرآن الكريم جاءت على أربعة أوجه هي:

الوجه الأول: الفِراش - بكسر الفاء - البساط في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ (البقرة: ٢٢) يعني بساطاً ونحوه.

الوجه الثاني: الفَراش - بنصب الفاء - الصغار من الجراد قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ ﴾ (القارعة: ٤) وهو طائر ليس بذباب ولا بعوض.

الوجه الثالث: الفُرش (الدرجات) قوله تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝ ﴾ (الواقعة: ٣٤).

الوجه الرابع: الفَرش والفراش الغنم وقيل الإبل التي لا تطيق الحمل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ (الأنعام: ١٤٢)... [5].

وذكر (الفِراش) في سياق قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝ ﴾ (الرحمن: ٥٤). وخرج إلى أمر معنوي هو أن الاتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب فالمتكئ تكون أمور جسمه على ما ينبغي وأحوال قلبه على ما ينبغي لأن العليل يضطجع ولا يستلقي أو يستند إلى شيء على حسب ما قدر للاستراحة[6] وأشار ابن عاشور إلى أن

---

(١) أساس البلاغة: ٤٦٩.

(٢) صحيح البخاري: ١٢ / ٤٤.

(٣) المفردات: ٥٦٥.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٦/ ٣٢٧.

(٥) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٥٤-٣٥٥.

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٩ / ١٢٨.

الفراش هنا «أصله ما يفرش أي ما يبسط على الأرض للنوم والاضطجاع ثم أطلق الفراش على السرير المرتفع على الأرض لأنه يوضع عليه ما شأنه أن يفرش على الأرض تسمية باسم ما جعل فيه... والمُعبر عنه في هذه الآية واحد يدلّ على أن المراد بالفُرش السرُر التي عليها الفرش»[١]، وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ (البقرة: ٢٢)، ومعنى الفراش في سياق الآية الكريمة «إن الله جعل الأرض فراشا أي كالفراش في التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها، وهو أخص أحوال الاستقرار والمعنى: أنه جعلها متوسطة بين شدة الصخور بحيث تؤلم جسم الإنسان وبين رخاوة الحمأة بحيث يتزحزح الكائن فوقها ويسوح فيها وتلك منة عظيمة»[٢]، وعلى ذلك فالأرض صُيرها الله لأجلكم مهاداً، كالبساط المفروش، فذّللها لكم، ولم يجعلها خَزْنةً غليظةً، لا مكان للاستقرار عليها، ... وهذا لا ينافي كرويتها في الجملة؛ لأن الكُرة إذا أعظمت كانت قطعة منها كالسطح في افتراشه[٣]، وقيل هذا من باب الطباق المعنوي لما كان البِناء رفعاً للمبنى قوبل بالفراش الذي هو خلاف البناء[٤].

إذا صور لنا السياق القرآني لفظة الفراش بأنها إشارة إلى اليسر والراحة التي وفرها الله سبحانه وتعالى لعباده في الدنيا والآخرة، وهذا ما أشار إليه سيد قطب حين قال: «بأنه قد يسر الله سبحانه وتعالى حياة البشر على هذه الأرض لتكون لهم سكناً مريحاً وملجأً واقياً كالفراش»[٥]، وكلما تذكر لفظة ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝ ﴾ (الواقعة: ٣٤) في المصطلح القرآني يَسْتَدعي في أذهاننا الموعودين بالنعيم أصحاب اليَمين، تصورَ من يَكُن عليها من الحُورِ العين المُخَصّصاتِ لهم في مَنَازلهم في الجنّةِ، بحسب درجة كل منهم وبناءً على حدوث هذا التصُور في أذهانهم، جاء وصفهُنَّ هنا

(١) التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٦٧.

(٢) التحرير والتنوير: ١ / ٣٣١ وينظر: الأساس في التفسير: ١ / ٩٥.

(٣) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٩.

(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٣ / ٢٢٦.

(٥) في ظلال القرآن: ١ / ٥١.

في النص دون سابق ذكر لهن إلا برمز عبارة: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾[1] وبهذا تكون - الفرش - إحدى أدوات التكريم الإلهي والتعظيم ووصف النعيم الذي يناله أصحاب اليمين جزاء أعمالهم الحسنة وتمسكهم بدين الله وتعاليمه الفاضلة ليحظوا بهذا الترف الإلهي غير المعهود في الدنيا رغم تصورنا الظاهري للفرش التي تُبسط على الأسِرَّة إلا أنها فرش وحشايا لينة مرفوعة على مواضعها من الأسرة النفيسة التي لا علم لنا بها لأنها في ملكوت الرحمن والذي لا يعلمه سواه، ولا نتصورها إلا في سياق قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ (الرحمن: ٥٤).

١٥ - ٣: الفُلك

للجذر (فلك) أصل صحيح يدل على استدارة في شيء ذلك فَلكة المغزل بفتح الفاء، سميت لاستدارتها، ولذلك قيل فَلّك ثدي المرأة إذا استدار، ومن هذا القياس فَلَك السماء ... والفلك قِطَع من الأرض مستديرة مرتفعة عما حولها، وأما السفينة فَتُسمى فُلْك ويقال أن الواحد والجمع في هذا الاسم ولعلها تسمى فَلكاً لأنها تدار في الماء[2]، وقيل: إن الفلك تقع على الواحد وعلى الجمع، وهي السفينة والسّفن والعرب تفعل ذلك قالوا: هي الطّرفاء وهذه الطّرفاء[3] والفُلْك: «السفينة يذكر ويؤنث»[4]، وقيل: «فمن ذكر الفُلُك ذهب إلى معنى المركب ومن أنث ذهب إلى معنى السفينة، ومن جمع ذهب إلى معنى السُفن»[5]، إذاً الفلك: «واحد وجمع ومؤنث ومذكر والفُلك: السفن واحدها فلكٌ وجمعها فُلْك»[6]، وقال الله تعالى في التوحيد والتذكير: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ (الشعراء: ١١٩)

---

(١) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٨ / ٤٦١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٤٥٢-٤٥٣.

(٣) ينظر: مجاز القرآن: ١ / ٦٢.

(٤) العين: ٥ / ٣٧٤.

(٥) معجم المؤنثات السماعية: ١٥٥.

(٦) المخصص: ٣ / ٢٣.

فذكر الفُلك وجاء به موحداً، ويجوز أن يؤنث واحده كقوله تعالى: ﴿ جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ (يونس: ٢٢)، فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ (فاطر: ١٢)، فجمع ... ويحتمل أن يكون واحداً وجمعاً قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ (يونس: ٢٢)، فجمع وأنث فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المركب فيذكر وإلى السفينة فيؤنث[1].

وردت لفظة - الفُلْك - في ثلاثة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم[2] وبوصفها آلة التنقل عبر البحار من جهة ومن جهة أخرى أيضاً تعدّ وسيلة من وسائل النجاة لحفظ بذور الحياة ففي قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (فاطر: ١٢)، فقد ذكر الزمخشري واصفاً الفُلك «في كل (مواخر) شواق للماء يجريها، يقال: مخرت السفينة الماء ... والسفن الذي اشتق منه السفينة قريب من المخر، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره»[3].

وقد أشار الرازي إلى أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته[4]، ومن نعم الله على الناس تسخيره المياه لإجراء المراكب فيها بمقتضى قانون الطفو، الذي جعله عز وجل بين الماء وبين الأشياء القابلة للطفو عليه، والجري فيه، والانتقال عليه بالأحمال الثقيلة والأثقال العظيمة إلى بلادٍ بعيدة، وأرضٍ لا يَبْلُغُ إليها قاصِدُوها إلا بشِقّ الأنفس، وبما أن الفُلك هو مَرْكَب البحر يطلق على الواحد والاثنين والجمع ويذكر ويؤنث.. كان الخطاب موجهاً للناس بصيغة الجمع، ولكن تحوّل في هذا البيان إلى خطاب كل صالح للخطاب بصورة إفرادية أي: وترى أيها الرّائي أيّا كنتَ الفُلْك في كلّ من البحرين مواخر والغرض من هذا التحول من خطاب الجماعة إلى الخطاب

(١) ينظر: لسان العرب: ١٠ / ٤٧٩.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٢٦.

(٣) الكشاف: ٣ / ٦٠٥.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٦ / ١١.

الإفرادي، التنويع لشد الانتباه، وإشعار المخاطب العناية بمخاطبته بصورة افرادية، ليوجّه اهتمامه للتفكُّر في الموضوع الذي دعاه البيان للتفكر فيه. (فيه مواخر): أي: جاريات تشُقُّ الماء شقا، متنقلةً فيه وقاطعة المسافات البعيدات وما يعنينا من كل هذا هو أن الله سبحانه وتعالى سخر لكم أيها الناس الفُلك تجري في الماء مَواخِرَ، لتبتَغُوا في التَّنقُّل مَحْمُولين عليها، أنتم وإثقالكم ودوابُّكم وأمتعتكم، مصالح دُنْياكم وأرزاقَكُم من فَضْل رَبّكُم عليكم[1].

يوحي السياق للفظة – الفلك - بأنها وسيلة من وسائل النجاة في قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (المومنون: ٢٧) فالفلك هنا تعني السفينة فعندما أجاب الله دعاء نوح (ﷺ) أوحى إليه أن اصنع الفلك لغاية إلهية أرادها سبحانه وتعالى، ولكن هناك اختلافاً بين المفسرين في أنه (ﷺ) كيف صنع الفلك؟ فمنهم من قال: إنه كان نجاراً وكان عالماً بكيفية اتخاذها، والقسم الآخر قال: إن جبريل (ﷺ) علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها وهذا هو الأقرب لقوله (بأعيننا وَوَحِينَا)[2]. وقد ذهب ابن كثير أيضاً إلى أن الله أمر نوح (ﷺ) بصنع السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كُلٍ زوجين اثنين، أي: ذكراً وأنثى من كُلِّ صنفٍ من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله[3].

ولسيد قطب بيان في الحكمة من صنع نوح (ﷺ) الفُلك بيده ذاكراً «لأنه لا بُدّ للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل، وبذل آخر ما في طوقه ليستحق المدد من ربه، فالمدد لا يأتي للقاعدين المستريحين، الذين ينظرون ولا يزيدون مع رعاية الله له، وتعليمه صناعة الفُلك ليتم أمر الله، وتتحقق مشيئته عن هذا الطريق، وجعل الله له العلامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ (المؤمنون: ٢٧) فتلك هي العلامة ليسارع نوح (ﷺ) فيحمل السفينة بذور

---

(١) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٧ / ٨٦-٨٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٣ / ٩٤.

(٣) ينظر: تفسير القرآن الكريم: ٣ / ٣٢٨.

الحياة»[1]. وكذا اللفظة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ (يونس: ٢٢)، فالآية تتضمن تعداد النعم فيما هي الحال بسبيله من ركوب الناس الدواب والبحر ويدل على أن الفُلك أي: - السفن - وجدت لتحملكم وتنقلكم في البحر[2].

وعلى هذا يطوي النص حقيقة يعلمها الجميع بأن الله خالق أعظم قدّر بمعاييره الدقيقة حركة الحياة العامة، فهو قادر على جراية السفن التي هي آلة التنقل في البحر لجميع خلقه وأثقالهم وأحمالهم ومتاعهم تيسيراً لهم، على الرغم من كونها مصنوعة من خشب هين عرضة للانكسار والتآكل في أية لحظة فإن في ذلك عبرة لكل معتبر فإن الله سبحانه وتعالى القادر على جراية السفن قادر على جراية الرزق لكل العباد فهو الأعظم المطلق.

(١) في ظلال القرآن: ١٨ / ٢٦.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨ / ٢٠٧.

١٦. حرف القاف

١٦ - ١: القِدْور

للجذر (قدر) أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكُنهه ونهايته فالقدر مبلغ كل شيء[١] والقِدْر: «التي يُطبخ فيها أنثى وجمعها قُدور ولا تُكسر على غير ذلك»[٢]، والقِدرُ «يؤنث ويذكر. ويقال في تصغيرها قُديره»[٣]، وذهب ابن منظور أيضا إلى أن القِدر مؤنثة عند جميع العرب بلا هاء، فإذا صُغرت قلت لها قُديره وقُدَيرُ بالهاء وغير الهاء[٤]. وقد ذكر الزمخشري أنه حينما يقال وافق الشيء الشيء قالوا أي: جاء على قَدرِ وقَدْرِ. ونقول قَدَر عليه رزقه وقدَّر: قتَّر، ونقول أيضاً الأمور تجري بقدر الله ومقداره وتقديره وأقداره ومقاديره، ومن المجاز: فرسٌ بعيد القَدْرِ: بعيد الخطو[٥].

وردت لفظة - قدر - وما اشتق منها في مئة وثمانية وعشرين موضعاً من القرآن الكريم[٦]، ولكن لفظة (القِدْر) ورد في موضع واحد فقط من القرآن الكريم وبصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ﴾ (سبأ: ١٣)، فقد بين الرازي الحكمة في ذكر لفظة الجفان وإردافها بلفظة القدور بقوله «فالقدور [آلة الطبخ] ... راسيات أي غير منقولات، ولما بين حال الجفان العظيمة كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان»[٧].

وقد وصفها القرطبي أيضاً بقوله: «هي قدور من نحاس تكون بفارس وقيل

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٦٢، ٦٣.

(٢) المخصص: ١/ ٢٥٢.

(٣) معجم المؤنثات السماعية: ١٥٨.

(٤) ينظر لسان العرب: ٥ / ٧٩-٨٠.

(٥) ينظر: أساس البلاغة: ٤٩٥.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٣٦-٥٣٨.

(٧) مفاتيح الغيب: ٢٥ / ٢٤٩.

أيضاً: هي قدور تعمل من الجبال وقال غيره: قد نحتت من الجبال الصم مَما عملت له الشياطين أثافيها منحوتة هكذا من الجبال»[١]،

إذاً هي قدور كبيرة ثابتة لا تتحرك لكبرها وضخامتها[٢]نلاحظ في هذه الآية تشبيهاً ملحوظاً معروضاً صورة القدور الراسية لعظمها وثقلها، واستحالة نقلها من مكان لآخر، فهي راسية أبدا فوق النار لا تزال عنها لعظمها ولدوام الحاجة إليها[٣].

هكذا نلمح بخفاء المراد من وصف هذه القدور، وذكرها في المصطلح القرآني لبيان وصف التكريم من العظيم سبحانه وتعالى لعباده من آل داود والمستحقين للتكريم، فهذه نعمة من النعم التي خصّكم بها فوجب عليكم شكره متمثلاً بقوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣). وهذا ما أشار إليه الزمخشري قائلاً: «وفي هذا دليل على أن العبادة يجب أن تؤدى عن طريق الشكر أو على أي حال، أي شاكرين أو تقدير اشكروا شكراً، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا، من حيث أن العمل للمنعم شكراً له»[٤].

١٦ – ٢: القرطاس – قراطيس

(القرطاس) معروف، يتخذ من بردّي مصر، وكلُّ أديمُ يُنصب للنضال، فاسمه: قرطاس [يقال] قَرطَس الرامي إذا أصاب [الأديم][٥]. وقد ذكر الكفوي أنه «لا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوباً وإلا فهو طِرس، وكاغد ولا يقال قلم إلا إذا بريَ وإلا فهو أنبوب»[٦]، والقرطاس أيضاً: «صحيفة والجمع قراطيس»[٧]، وقيل: «القِرْطاس والقُرطاس والقِرْطس والقَرْطاس كلها الصحيفة الثابتة التي يكتب فيها...

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٤ / ١٧٧.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ٢ / ٥٤٨.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٧٠١.

(٤) الكشاف: ٣ / ٥٧٣.

(٥) العين: ٥/ ٢٥٠.

(٦) الكليات: ٢ / ٧٣٧.

(٧) غريب القرآن: ٢٥٩.

ويقال للجارية البيضاء المديدة القامة قِرْطاس»(١) وكذلك تطلق لفظة (قرطاس) على الناقة الفتية، ويطلق على الدوابّ الأبيض الذي لا يخالط بياضه نِمنةٌ وكذلك يطلق على الورقة تلف على هيئة المِقمع ليوضع فيها الحبُّ ونحوه (محدثة)(٢) وهناك رأي يقول أن القِرطَاس أصله غير عربي وقد تكلموا به قديماً(٣).

وقد وردت لفظة (قرطاس) في موضعين من القرآن الكريم(٤)، في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾ (الأنعام: ٧) ويقصد به «أنه لو أنزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عياناً لطعنوا فيه، وقالوا إنه سحر... وإذا رأوه بقوا شاكين فيه وقالوا: إنما سكرت أبصارنا، فإذا لمسوه بأيديهم فقد يقوى الإدراك البصري بالإدراك اللمسي، وبلغ الغاية في الظهور والقوة»(٥)، وهذا الكلام يعني به رسول الله محمداً (ﷺ)، أي لو نزلنا يا محمد بمرأى منهم - أي الكفار الجاحدين المعاندين - كما زعموا كلاماً مكتوباً (في قرطاس)... وهذا يبين أن التنزيل على وجهين، أحدهما: على معنى نزل عليك الكتاب أي (نزول الملك به)،

والآخر: ولو نزلنا كتاباً في قرطاس، وقال (نَزَّلنا) على المبالغة بطول مكث الكتاب بين السماوات والأرض، فبين أن الكتابة في قرطاس، لأنه غير معقول كتابة إلا في قرطاس أي صحيفة(٦). إلا أن الصابوني فسر قوله تعالى قائلاً: «إنهم عاينوا ذلك ومسوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال أو يزيل كل ارتياب»(٧)، فالقرطاس في كل ذلك يعني «الورق والكتاب المكتوب اجتمع لهم مع المعاينة واللمس»(٨)، ونراهم بعد كل هذا أنهم معرضون عن آيات الله ظناً منهم أن البرهان على صدقها

---

(١) لسان العرب: ٦ / ١٧٢ –١٧٣، مادة (قرطس).

(٢) ينظر: المعجم الوسيط: ٢ / ٧٣٤.

(٣) ينظر: المُعرب من الكلام الأعجمي: ٣٢٤.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٤٣.

(٥) مفاتيح الغيب: ١٢ / ١٦٩-١٧٠.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٢٥٣.

(٧) صفوة التفاسير: ١ / ٣٨٠.

(٨) الأساس في التفسير: ٣ / ١٥٨١.

ضعيف أو غامض أو تختلف فيه العقول، إنما الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف المكابرة الغليظة والعناد الصفيق! وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار ولو أن الله سبحانه نزل على رسول الله (ﷺ) هذا القرآن لا عن طريق الوحي الذي لا يرونه، ولكن في ورقة منظورة ملموسة ومحسوسة ثم لمسوا - هم - الورقة بأيديهم لا سماعاً عن غيرهم ولا مجرد رؤية بعيونهم ما سلموا بهذا الرأي يرونه ويلمسونه، ولا قالوا جازمين مؤكدين: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١١٠)[١] وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ (الأنعام: ٩١)، ومعنى الآية «أن المخاطبين هم المشركون، وهذا خبر عن اليهود لما كان واقعاً منهم من جعل التوراة صحائف يتلاعبون بها فيبدون منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع والتلاعب بالأحكام والفرائض، ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة، ممّا كان العرب يعلمون بعضه وما أخبرهم الله به من هذا القرآن من فعل اليهود... فهذا خبر عن اليهود معترض في سياق الآية لا خطاباً لهم»[٢].

فالمراد من إيراد أداة القرطاس ليس للتدليل على وظيفتها التي تسجل فيها الأحكام والأقوال والأفكار كما هو معلوم لدينا، وإنما ظهر لنا السياق القرآني للفظة بوصفها أداة برهان على صدق دعوى ودليلاً يحوي في داخله علامات الألوهية المطلقة سُطِرَ في متنها دلائل يستشهد فيها على التوحيد ومغزى دور النبي محمد (ﷺ).

١٦ – ٣: القسطاس

للجذر (قسط) أصل صحيح يدل على معنيين متضادين والبناء واحد، فالقِسط: العدل ويقال منه: أقسط يُقْسِط ... والقسط بفتح القاف: الجور... ويقال أيضاً القَسَط يعني اعوجاج في الرّجلين وهو خلاف الفحج، ومن الباب الأول

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٧ / ١٣٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٧ / ٣٠٢.

القِسْط: النصيب ومنه القِسْطَاس: الميزان[١]. وذهب الفراهيدي إلى أن القِسطاسُ والقُسطاسُ، هو أقوم الموازين وبعضهم يُفسِّرهُ الشاهين[٢] وقد يعبر به عن العدالة كما يعبر عنه بالميزان قال تعالى: ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ (الإسراء: ٣٥)... [٣]، وهناك من قال: إن الميزان هو بلسان الروم وفيه لغة أخرى (قُسطاس) بضم القاف وقد قُرِئ باللغتين جميعاً[٤] القِسطاس يستعمل لمعرفة المقدار وقد يستعمل أيضاً للاحتراز عن الزيادة والنقصان[٥]، وقيل القِسْطُ: «المِيزانُ، سمي به من القِسْط العَدْلِ، أراد أن الله يخْفِضُ ويَرْفَعُ مِيزانَ أعمالِ العِبادِ المرتفعةِ إليه وأرزاقَهم النازلةَ من عنده كما يرفع الوَزَّانُ يده وَيَخفِضُها عند الوزن وهو تمثيل لما يُقَدِّرُه الله ويُنْزِلُه»[٦] والقِسْطَاس «لفظ مُعَرَّبٌ»[٧].

وردت لفظة (القسطاس) في موضعين من القرآن الكريم[٨]، وفي الموضعين كانت دلالة آلة القسطاس هي الالتزام بالعدل السوي المتمثل بالإيفاء بالميزان المستقيم وعدم نقصه أو بخسه، وهذا ما يؤكده السياق في قوله تعالى: ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ (الشعراء: ١٨٢). والقول في قوم شعيب (ﷺ)، وأن شعيباً أمرهم بأشياء (أحدها) أن يوفوا الكيل وأن يزنوا بالقسطاس المستقيم وقرئ بالقسطاس مضموماً ومكسورا وهو الميزان[٩].

وقد ذهب القرطبي أيضاً إلى أن الله أرسل شعيباً (ﷺ) إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة وأمرهم أن يوفوا الكيل ولا ينقصوا منه وأن

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٨٥-٨٦.
(٢) ينظر: العين: ٥ / ٧١.
(٣) ينظر: المفردات: ٦٠٨.
(٤) ينظر: تفسير غريب القرآن: ٢٥٤.
(٥) ينظر: الكليات: ٢ / ٧٢٣.
(٦) لسان العرب: ٧ / ٣٧٧، مادة (قسط).
(٧) صفوة البيان لمعاني القرآن، ٣٦٤.
(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٤٥.
(٩) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٤ / ١٦٢-١٦٣.

يعطوا الحق ويوزنوا بالميزان العدل[١]، وبهذا يكون معنى القسطاس الميزان العدل السوي، فأيها القوم زنوا بالميزان بلا احتيال ولا خديعة[٢]، وقد ذكر أن في القِسْطاس قراءتان بضم القاف وكسرها، وهما لغتان عربيتان لهذه الكلمة وهو أضبط الموازين وأقومها وأعدَلُها، أي: وزِنُوا بأضبط الموازين وأقومها وأعدلها[٣]، ونظير اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝ ﴾ (الرحمن: ٩). وقد أشار الرازي أيضاً إلى أن جميع الناس محتاجون إلى المفاوضات والبيع والشراء وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إبقاء الأموال على الملاك ومنعاً من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير، والقسطاس في معنى الميزان إلا أنه في العرف أكبر منه، ولهذا اشتهر في ألسنة العامة أنه (القبان)، وقيل: «إنه بلسان الروم أو السريان والأصح أنه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط، وهو الذي يحصل فيه الاستقامة والاعتدال وبالجملة فمعناه المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الجانبين، وأجمعوا على جواز اللغتين فيه»[٤]. ومثيل اللفظ أيضاً في سورة الإسراء: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ ﴾ (الإسراء: ٣٥) ومما هو ملاحظ أن المناسبة بين الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان ظاهره في المعنى واللفظ، فالانتقال في السياق ملحوظ التناسق، وإيفاء الكيل والاستقامة في الوزن أمانة في التعامل ونظافة في القلب يستقيم بهما التعامل في الجماعة، وتتوافر بهما الثقة في النفوس وتتم بهما البركة في الحياة، والطمع في الحياة في الكيل والوزن قذارة وغش وخيانة في التعامل تتزعزع بها الثقة، ويتبعها الكساد وتقل فيها البركة في محيط الجماعة[٥]. هكذا يلاحظ أن السياق القرآني يشير إلى أن آلة القسطاس تعني وجوب العدل السوي في التعامل مع الناس لا

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣ / ٩١.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ٢ / ١٥٩.

(٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٨: ٦٨٧-٦٨٨.

(٤) مفاتيح الغيب: ٢٠ / ٢٠٧.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ١٥ / ٣٢٥-٣٢٦.

زيادة ولا نقصان، ويعبر أيضاً عن الميزان للاحتراز به عن الزيادة والنقصان لمعرفة مقادير الأشياء وأوزانها.

١٦ – ٤: القلائد

للجذر (قلد) أصلان صحيحان يدلْ أحدهما على تعليق الشيء وليّه به، والآخر على حَظّ ونصيب، فالأول التقليد: تقليد البَدَنة، وذلك أن يعلّق في عنقها شيء ليُعْلَم أنها هَديٌ واصل القَلْد، الفتل، يقال: قَلَدْتُ الحبل اقلِدهُ قَلْداً، إذا فتلته، ويقال: قَلَّدَ فلان فلاناً قِلادةَ سَوءٍ، إذا هجاه بما يَبْقى عليه وسمه»[١]. ومن هذا أخذت القلادة وهي ما يفتّل ويجعل حول الرقبة، وقد استعملت بمعنى عام وهو كل ما يجعل حول العنق من خيط أو فضة أو ذهب أو نحوها من أنواع الحلي والجمع قلائد[٢]، وقد ذهب الفراهيدي بقوله القلادة هي: «قلادة الإنسان والبدنه والكلب ونحوه وتقليد البدنه أن يُعلّق في عنقها عُروة خرادةٍ ونَعْلٌ خَلَقٌ فيعُلم أنها هَدْيٌ وإذا قلّدها وجب عليه الإحرام عند بعض العلماء»[٣]. والقلادة معروفة[٤]، والقِلادة (بالكسر) «ما جُعِلَ في العنق يكون للإنسان والفرس والكلب، وذهب بعض علماء اللغة إلى أن هيئة الكلمة قد تدل على معان مخصوصة، وإن لم تكن مشتقة نحو فِعال بالكسر إن لم تلحقه الهاء فهي اسم لما يجعل به الشيء كالآلة وإمام وركاب وحزام لما يؤتم به، ولما يركب به ولما يحزم ويشد به، فإن ألحقته الهاء فهو اسم لما يشتمل على الشيء ويحيط به كاللفافة والعمامة والقلادة وهذا في غير المصادر»[٥]، وقيل أيضاً: «القِلادة: الواقعة على المخنق ولهذا سميت المخْنِقَةُ بكسرها وهي الأصوب»[٦].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٩.

(٢) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٤١٦.

(٣) العين: ٥ / ١١٧.

(٤) مجمل اللغة: ٤ / ١١٨.

(٥) تاج العروس: ٢ / ٤٧٥.

(٦) المدخل إلى تقويم اللسان، حاتم الضامن: ٢٠٩.

وردت لفظة (قلادة) في موضعين من القرآن الكريم وبصيغة الجمع[١]، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ (المائدة: ٥)، وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ (المائدة: ٩٧)، واستعمالها في الآيتين يعني - القلائد - نفسها، وما كان الناس يتقلدونه أَمَنَةً لهم، وهذا ما أشار إليه الرازي في قوله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾، حيث قال «الوجه في كونها قياماً للناس، أن من قصد البيت الحرام في الشهر الحرام لم يتعرض له أحد، حتى إن الواحد من العرب يلقي الهدي مقلداً، ويموت من الجوع فلا يتعرض له البتة، ولم يتعرض لها صاحبها، وكل ذلك كان لأن الله أوقع في قلوبهم تعظيم البيت الحرام، فكل من قصده أو تقرب إليه صار آمناً من جميع الآفات والمخالفات»[٢]، وقيل أيضا: «أراد بالقلائد نفس القلائد، فهو نهي عن أخذ لحاء شجر الحرم حتى يُتقَلَّد به طلباً للأمن»[٣]، ويمضي القول: لا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه، ولا ما أُهدي إلى البيت أو قُلِّد بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولأصحابه[٤]، وقد صير الله تعالى البيت للناس سبباً لإصلاح أمورهم، إذ جعلهُ مثابةً وأمناً وملجأً ومجمعاً للتجارات والتعارف والتشاور وحرمه إلى يوم القيامة، وجعله كذلك منسكاً وسبباً لتكفير الخطيئاتِ، وجعل الأشهر الحُرُمَ قواماً للناس يأمنون فيها القتل والقتال (والهدي) ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة. (القلائد) ما يقلد به الهدي علامة له، وجُعِل الهَدْي وذوات القلائد منه قواماً لمعايش الفقراء، وكل ذلك لحكم سامية، ومصالح ظاهرة، اقتضتها حكمة العليم الخبير، ورأفتُه بعباده[٥]. أما الصابوني فقد ذهب إلى أن «القلائد التي كانت تُعلق

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٥١.

(٢) مفاتيح الغيب: ١١ / ١٠٧-١٠٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٢٨.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ١ / ٣٢٦.

(٥) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ١٦٣.

على أسنمة الهدايا وأعناقها علامة أنها لله سبحانه وتعالى، من فعل أو غيره فهي سنة إبراهيمية بقيت في الجاهلية وأقرها الإسلام، وهي سنّة البقر والغنم وقالت عائشة (ﷺ): «أهدى رسول الله (ﷺ) مرة إلى البيت غنماً فَقلّدها»[١]. والى هذا صار جماعة من العلماء: الشافعي وأحمد، وأنكر مالك وأصحاب الرأي، وكأنهم لم يبلغهم هذا الحديث في تقليد الغنم، لو بلغ لكنّهم ردوه لانفراد الأسود به وعائشة (ﷺ)، فالقول به أولى والله أعلم[٢]. وكما هو معروف بأن (القلائد) هي ما يفتل ويجعل في العنق، إلا أنها في السياق القرآني كانت أداة أمان وتعظيم من قبل الناس، فأصبحت علامة أنها لله سبحانه وتعالى وسنة متبعة فلا يتعرض للأذى من تقلّد بها.

١٦ – ٥: القلم

للجذر (قلم) أصل صحيح يدل على تسوية شيء عند بَرْيه وإصلاحه، من ذلك قَلمْت الظفر وقلّمتهُ، ويقال للضعيف: هو مَعلُوم الأظافر ومن هذا الباب سمي القَلَمُ قَلَماً ... قالوا سمي به لأنه يقلم منه كما يُقَلَمُ من الظُّفر، ثم شُبّه القَدح به فقيل قَلَم[٣]، والقَلَمُ أيضا: «السَّهمُ الذي يُجال به بين القوم، ومع كل إنسان قَلَمهُ»[٤]. والقَلَمُ: «الذي يكتب به، والقَلَمُ: الزَلَمُ»[٥] ومنه القُلامة: ما يسقُط من الظفر إذا قُلِمَ[٦]. ويقال أصل القَلْمِ «القص في الشيء الصلب كالظفر وكعب الرمح ... وخص ذلك بما يكتب به وبالقِدْح الذي يضرب به»[٧]. وقيل: «وقد أطلق القلم عند الكاتبين على الخط فقالوا: يكتب بالقلم النسخي (وفي إصلاح الدواوين): قسم من أقسام الديوان. يقال: قلم الكتاب، وقلم المحضرين، وقلم المستخدَمين، وقلم

---

(١) صفوة التفاسير: ١ / ٣٢٦.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٢٩.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٥-١٦.

(٤) العين: ٥ / ١٧٤.

(٥) الصحاح: ٥ / ٢٠١٤.

(٦) ينظر: مجمل اللغة: ٤ / ١١٧.

(٧) المفردات: ٦٢١.

الحبر: قلم مداده مخزون فيه لا يسيل على سِنّه إلا وقت الكتابة به»[١]. وقد ذهب الرصافي بقوله: «والقلم - بالتحريك - اليراعة يكتب بها، ولهذا قالوا لا يسمى قلماً إلا بعد البَري وسمي قبله قصبة ويراعة»[٢]. وتحليل لفظة - القلم - على وجهين في القرآن الكريم: وجه منهما: «الأقلام السهام. في قوله تعالى: في سورة آل عمران: ٤٤ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾، كانوا يلقونها «أيهم يكفل مريم» الثاني: القلم بعينه في قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝﴾ (القلم: ١)، يعني الخط بالقلم»[٣].

وردت لفظة (القلم) في أربعة مواضع من القرآن الكريم إفراداً وجمعاً[٤]، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝﴾ (العلق: ٤)، لقد أشار الطوسي في تفسيره للفظة بقوله: «إنه تعالى امتن على خلقه بما علمهم كيفية الكتابة بالقلم، لما في ذلك من كثرة الانتفاع لخلقه، فقد نوه الله بذكر القلم»[٥].

وهذا أيضاً ما ذهب إليه القرطبي بقوله: «فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة... وسمي قلماً لأنه يُقلَم أي يقطع، ومنه تقليم الظفر... وروى مجاهد عن أبي عمر قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده ثم لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعرش، وجنة عدن، وآدم (ﷺ)»[٦]. وقيل: وقد قرئ به - أي القلم - لتقيد به العلوم ويعلم به البعيد[٧]، وقد أوضح سيد قطب أثر القلم في حياة الإنسان كأداة

---

(١) المعجم الوسيط: ٢ / ٧٦٣.

(٢) الآلة والأداة: ٧٩.

(٣) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر، ٣٩٠-٣٩١.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٥٢.

(٥) التبيان: ١٠ / ٣٨٠ وينظر: المفردات: ٦٢١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٨٢.

(٧) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٥ / ٥٠٩.

من أدوات التعليم قائلاً: «كان ولا يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الإنسان ولم تكن هذه الحقيقة آنذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية لكن الله سبحانه، كان يعلم قيمة القلم فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية، وفي أول سورة من سور القرآن الكريم، هذا مع أن الرسول (ﷺ) الذي جاء بها لم يكن كاتباً بالقلم، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو يقول هذا القرآن لولا إنه الوحي، ولولا إنها الرسالة»[1]. إذاً ذكر القلم في سياق الآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (العلق: ٤-٥) جاء لبيان أن الله علم الإنسان الكتابة بالقلم، ولم يكن له علم بها، فضبط بها العلوم وعرف بها أخبار الماضين وعلومهم وكانت أداة التفاهم والمعرفة ولولاها ما استقام أمر الدين والدنيا، لم يقم دين ولم يصلح عيش[2] ومثيل اللفظة في قوله تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ ﴾ (القلم: ١) فقد ذهب الرازي في تفسيره (للقلم) في هذه الآية وقال: «القلم فيه قولان أحدهما: أن القسم به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من في السماء ومن في الأرض. قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (العلق: ٣ - ٥) فمنَّ بتيسير الكتابة بالقلم كما منَّ بالنطق فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾ (الرحمن: ٣-٤). (والثاني): إن المقسم به هو القلم المعهود الذي جاء في الخبر لأن أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة»[3].

وقد أشار أيضاً سيد قطب بأن: «القلم هو آلة الكتابة يقسم الله سبحانه بالنون وبالقلم وبالكتابة والعلاقة واضحة بين الحرف نون وبين القلم والكتابة، فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها وتوجيه إليها في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعليم عن هذا الطريق، كانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة، فهو الوقت الذي كان

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٠ / ٦١٨.

(٢) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٨١٥.

(٣) مفاتيح الغيب: ٣٠ / ٧٨.

دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نمو هذه القدرة فيها وانتشارها فيها»[١]، وهناك من يقول أن القلم في قوله تعالى: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝ ﴾، يعني: «أنه ليس قلمنا الذي نكتب به المقالات وإنما المقصود هنا: القلم الإلهي الذي يكتب به الله أقدارنا في اللوح المحفوظ أو القلم الذي تسطر به الملائكة»[٢] وهناك من يؤكد بأن القَسَم الذي قسمه الله تعالى في كتابه العزيز بلفظة - القلم - هو إلماحٌ إلى أن المجنون لا يدعو إلى العلم، وتثبيت العلم بالكتابة، عندما اتهم الرسول محمد (ﷺ) من بعض قادة قومه بالجنون فأقسم الله عز وجل لرسوله بالقلم وبما يسطر الكاتبون به من علوم ومعارف وهداية ينزل بها الوحي من لدنه على أنبيائه ورسله، ولا سيما خاتمهم محمد بن عبد الله على أنه ليس بمجنون كما يحاول أن يروج حاسدوه على النعمة التي أنعم الله بها عليه[٣]، فآلة القلم بعد كل هذا جاءت لتبيان أهمية العلم الإسلامي في بداية الوحي الذي أرسله الله إلى رسوله محمد (ﷺ) وكان نداؤه الأول بمفرده (اقرأ) وتكرارها الذي يمنحها أهميتها ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝ ﴾ (العلق: ١-٥).. [٤].

وقد وردت اللفظة جمعاً وبغير دلالة القلم المعهود في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، فأقلامهم هنا تعني قِداحِهم يقترِعون على مريم أيهم يكفلها ويحتضنها[٥].

وقد بين القرطبي معنى (أقلامهم) في الآية بقوله: «ما كنت يا محمد لديهم أي بحضرتهم وعندهم ﴿ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ ﴾ قيل: قداحهم وسهامهم وقيل أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة وهو أجود، لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال:

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٩/ ٢١٩.

(٢) كتاب القرآن (محاولة لفهم عصري)، مصطفى محمود (دار العودة، بيروت: د / ت): ١٧٧.

(٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ١/ ٢١٠.

(٤) القيم الجمالية في السور المكية: ١٧٠.

(٥) ينظر: تفسير غريب القرآن: ١٠٥.

﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (المائدة: ٣) إلا أنه يجوز أن يكونوا قد فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أي يحضنها، فقال زكريا: أنا أحق بها، خالتها عندي، وقال بنو إسرائيل: نحن أحق بها، واقترعوا عليها وجاء كل واحد بقلمه واتفقوا أن يجعلوا الأقلام في الماء الجاري فمن وقف قلمه ولم يجره الماء فهو حاضنها»[١] والأمر كله إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل وفاء لنذرها وعهدها مع ربها، والنص يشير إلى حادث لم يذكره (العهد القديم) ولا (العهد الجديد) المتداولان، ولكن لا بُدّ أنه كان معروفاً عند الأحبار والرهبان، حادث إلقاء الأقلام... أقلام سدنة الهيكل... لمعرفة من تكون مريم من نصيبه على نحو ما نصنع في (القرعة) مثلاً»[٢]، وبعد هذا العرض التفسيري لآلة الكتابة ألا وهي القلم - يتبين لنا بأن القلم إشارة إلى مفاتيح العلوم التي تفتح بأداة الكتابة وهو القلم الذي يتصدى إلى ترجمة الأفكار والعلوم الذي يطلعنا على الماضي والحاضر فهو مفتاح العلوم جميعا وبه تُعرف وتنتقل.

١٦ - ٦: قوارير

للجذر (قَر) أصلان يدل أحدهما على برد، والآخر على تمكُّن... وهذه مقاييس صحيحة، فأما أن نتعدى ونتحمل الكلام كما بلغنا عن بعضهم أن قال: سميت القارورة لاستقرار الماء فيها، فليس هذا مذهبنا وقلنا: إن كلام العرب ضربان: منه ما هو قياس، وقد ذكرناه، ومنه ما وضع وصفاً ... والله أعلم[٣]، والقارورة: «واحدة القوارير من الزجاج، والقارورُ: الماء البارد يُغتسَل به»[٤]. والعرب تسمي المرأة قارورة وتكني عنها بها وفي الحديث: إن النبي (ﷺ) قال لا نجْشةَ وهو يَحدُو بالنساء: (رفقاً بالقوارير) أراد النبي (ﷺ) بالقوارير النساء شبهن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٥٥٥.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٣ / ٥٨٤.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٧-٨.

(٤) الصحاح: ٢ / ٧٨٩.

بالقوارير لضعف عزائمهن وقلة دوامهن على العهد، والقوارير من الزجاج يُسرع إليها الكسر ولا تقبل الجَبْر»[١]، وقيل أيضا أن القوارير «أواني يَقُرّ بها الشراب، وقيل بل المعنى أواني الفضة في صفاء القوارير»[٢]، وهذا ما ذهب إليه محمود شيت خطاب قائلاً أن القارورة تطلق على الوعاء من زُجَاج تحفظ فيه السوائل وكذلك تطلق على وعاء الطيب[٣].

وردت اللفظة - القوارير - بصيغة الجمع في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[٤] في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝ ﴾ (الإنسان: ١٥-١٦)، فقد أشار الرازي في تفسيره للفظة (قوارير) إلى عدة مسائل: منها أن منتهى مراد الرجل في الآنية التي يشرب منها الصفاء والنقاء والشكل، وبهذا فإن الصفاء تمثل بذكر الله تعالى بقوله: ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾، والنقاء تمثل بذكره بقوله من فضة وأما الشكل فقد ذكره بقوله ﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝ ﴾، أي على قدر ريهم لا يزيد ولا ينقص من الري ليكون ألذ لشربهم[٥]، فالقوارير هنا هي: «أكواب من فضة وهي مع هذا شفافة يُرى ما في باطنها من ظاهرها وهذا ممّا لا نظير له في الدنيا»[٦]، وهناك من قال: «إنها من باب الاستعارة بلفظين كقوله تعالى: ﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ ﴾ يعني تلك الأواني ليست من زجاج، ولا من فضة بل في صفاء القارورة وبياض الفضة»[٧]

---

(١) لسان العرب: ٥ / ٨٧ وقد ورد الحديث في الصحيحين البخاري: ٥ / ٢٢٧٨، وفي صحيح مسلم: ٤ / ١٨١١ بهذا الشكل (رويداً سوقك بالقوارير).

(٢) المخصص: ٣ / ٨٦ (السفر الحادي عشر).

(٣) ينظر: المصطلحات العسكرية: ٢ / ٦٠١.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٤٢.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٠ / ٢٥٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٨٩.

(٧) البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٤٤٤.

فهذا ما يدلُّ على التشبيه وإن لم يذكر حرفه[١]، وقد أشار ابن عاشور كذلك إلى أن «وصف الأكواب بفعل (كانت) هنا تشبيه بليغ، والمعنى: أنها مثل القوارير في شفافيتها، وقرينة ذلك قوله: (من فضة) أي هي من جنس الفضة في لون القوارير لأن قوله (من فضة) حقيقة»[٢]. وما هو معلوم أنه ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى ولو أخذت فضة من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب، لم ير الماء من ورائها[٣]، وبعد كل هذا وصف الله عز وجل الآنية والأكواب لأن ذلك يؤول إلى مدح الشراب ويدل على نفاسته وشرفه[٤]، والغالب أن اسم القارورة للإناء من الزجاج، وقد يطلق على ما كان من زجاج وإن لم يكن إناء كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ ﴾ (النمل: ٤٤) وقد أشار القرطبي إلى أن الصرح كان صحناً من زجاج تحته ماء، عمله ليريها ملكاً أعظم من ملكها، وقيل أيضاً إنه قوارير خلفه ماء «حسبته لجة» أي ماء[٥]، وقد فسر قوله (قواريراً) في هذه الآية أيضاً «بأنها شبيهة بالقوارير في صفاء اللون والرقة حتى كأنها تشفُّ عما فيها»[٦]، وقيل: إنه «قصر مملّس: من الزجاج الصافي»[٧].

نخلص من ذكر الله للفظة - قوارير - هنا لبيان معنى التشريف والتكريم الذي يحظى به أصحاب الجنة جزاء أعمالهم الخالصة لله، فلذلك شبه تعالى الأكواب التي يسقى بها أهل الجنة بالقوارير إكراما لهم[٨]، وعلى هذا نرى حالة تمثيل التكريم والتشريف لأهل النعيم في الآخرة - أي أهل الجنة - حصراً بأداة من أدوات حفظ الشيء، إلاّ أن هذه الأداة في المصطلح القرآني كان لها ميزة مما لا نظير له في

---

(١) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن: ٣٣١.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩ / ٣٩٣.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٤٩٤.

(٤) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن: ٣٣٤.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣ / ١٣٨-١٣٩.

(٦) التحرير والتنوير: ٢٩ / ٣٩٢.

(٧) صفوة التفاسير: ٢ / ٤١٠.

(٨) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن، عدنان مهدي سلطان: ٧٥.

الدنيا لكونها شفافة يُرى ما في باطنها من ظاهرها ونقية كنقاء الفضة.

١٦ – ٧: القوس

للجذر (قوس) أصل واحد يدل على تقدير شيء بشيء ثم يصرف لأنه يقدر بها المذروع، فالقَوس: الذراع وسميت بذلك لأنه يقدر بها المذروع وبها سميت القوس التي يُرمى عنها[١]، وقد ذكر الفراهيدي «أن تصغير القَوْس قُوَيْس، والعدد أقواس ثم قياس قِسِيٌّ وشيخ أقوس: مُنحني الظَّهرِ، وقَوَّس تقوسياً، وتقوس ظهره وحاجبٌ مقوس، ونوى متَقَوِّس ونحوهما: مما ينعطِفُ: انعطاف القوس»[٢]، ولابن دريد إشارة إلى ذلك بقوله «والقوس معروفة والجمع قِسٌ وكان الأصل قووساً وقد جمعت قوس على قياس أيضاً والياء في قياس واو قلبت إلى ياء لانكسار ما قبلها، والقوس قطعة من التمر، وقوس قزحُ معروف»[٣] وكذلك ابن سيده فقد قال: «والقَوْس: أنثى وتصغيرها بغير هاء وهي أحد ما جاء من المؤنث الذي على ثلاثة أحرف بغير علامة مصغراً بغير علامة، والجمع أقواس وقِيَاس وقِسِيٌّ»[٤] والقوس: «ما يرمى عنه قال تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ (النجم: ٩) وقد ذكر الزمخشري أنه من المجاز أن نقول: «رمونا عن قوْسٍ واحدة، فلان لا يمدّ قوسَه أحد أي لا يعارض وعُرض فلان على المِقْوس وهو حبل يُصفُّ عليه الخيل في المكان الذي تُجرى منه، وقوَّس الشيخ وتقوس واستقوس الهلالُ وحاجب مستقوِسٌ، وما في الجُلة الأقْوَس وهو ما بقي من التمر في جوانبها شبه القوس وتقوسَه الشيب وخَطَه»[٥].

وقيل: إن القوس «أداة من أدوات الحرب والصيد، تتكون من عدد من الحطب المرن على شكل هلال فيصل بطرفيه وتر من مادة مرنة ويرمى بنبلها

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٤٠.

(٢) العين: ٥ / ١٨٨.

(٣) جمهرة اللغة: ٣ / ٤٣ –٤٤.

(٤) المخصص: ٢ / ٣٧ (السفر السادس).

(٥) أساس البلاغة: ٥٢٧.

الإنسان والحيوان، وكان الرمي بالسهام أو النبال من أهم الفنون الحربية لدى العرب وكانوا يقدرون الأحوال بالقوس، وقد يريدون بها الذراع»[١]، وكذلك فُسر القوس «بأنه آلة على هيئة تُرمى بها السهام، وفي الهندسة: قطعة من الدائرة، وفي الذراع: لأنه يقاس به المذروع، وبرج في السماء هو تاسع البروج»[٢].

والقسي: «جمع لكلمة قوس وهو نوع من السلاح ترمى به السهام والنبال وغيرها، يصنع من خشب ... ويتكون القوس من البدن والوتر»[٣].

وقد وردت اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم[٤]، في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ (النجم: ٨-٩) وقيل: «أي قدر قوسين عربيتين، وقال قوم: القوس: الذراع، أي كان ما بينهما قدر ذراعين»[٥]، وقد فسرت الآية أيضاً بمعنيين أولهما: أي طول قوسين أو طول ذراعين هذا إذا فسرنا القاب بالمقدار، أما إذا فسرناه بقاب القوس، وهو ما بين مَقْبضه وطرفِه، فيتعين أن يكون المعنى (قوسين) لا ذراعين[٦] وقد فسر الرازي قوله تعالى بقوله: «أي بين جبرائيل (ﷺ) ومحمد (ﷺ) مقدار قوسين أو أقل، ورد هذا على استعمال العرب وعاداتهم، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أن قوله (قاب قوسين) على جعل كونهما كبيرين، وقوله (أدنى) لفصل أحدهما عن الآخر، فإن الأمير إذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايعين قوس فيصافحه الآخر، فكأنه تعالى أخبر أنهما كأميرين كبيرين، فكان بينهما مقدار قوس أو كان جبريل (ﷺ) سفيراً بين الله تعالى ومحمد (ﷺ)، فكان كالقبع لمحمد (ﷺ) فصار كالمبايع يمد الباع لا القوس ... وعلى هذا نقول ذلك البعد هو البعد النوعي الذي كان للنبي (ﷺ) فإنه كان على كل حال بشراً، وجبريل

---

(١) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٤٢٥.

(٢) المعجم الوسيط: ٢ / ٧٧٢.

(٣) مستند الأجناد في آلات الجهاد، ابن جماعة الحموي: ٥٧.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٥٤.

(٥) تفسير غريب القرآن: ٢٤٨.

(٦) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٤٢٥.

على كل حال ملكاً»[١]. إلا أن ابن كثير بين اقتراب جبريل (ﷺ) من محمد (ﷺ) في حديث للرسول (ﷺ) قال: «رأيت جبريل له ستمئة جناح»[٢]، وهذا يدل على اقتراب جبريل (ﷺ) من محمد ﷺ لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد (ﷺ) قاب قوسين أي بقدرهما إذا مُدَّا[٣] فقد أشار الصابوني إلى أن المراد من كل ذلك إفادة شدة القرب فكان قريباً منه، وهذا اقتراب جبريل من محمد (ﷺ)[٤]. وهذا ما أشار إليه حسنين مخلوف عندما بين معنى قاب قوسين، حيث ذكر «أنه جاء التقدير للأطوال بالذّراع والباع والرُّمح والسُّوط والقَوْس، وربما سموا الذراع قوساً والمعنى عليه: كمقدار ذراعين بل أقرب، وقيل: القابُ: ما بين وتر القوس وقبضتها، وكان العرب في الجاهلية إذا تحالفوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى، فيكون قاب إحداهما ملاصقاً للأخرى حتى كأنهما قاب واحد ثم ينزعونهما معاً ويرمون بهما سهماً واحداً، فيكون ذلك رمزاً إلى أن رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخط الآخر، فكان جبريل (ﷺ) ملاصقاً للرسول محمد (ﷺ)، كما يلاصق القاب من القوسين، وهذا المعنى أليَقُ براوية: ضَمه إلى نفسه»[٥]، إذاً، يفهم من ذلك أن ورود اللفظة دلالة على شدة القرب الذي كان بين جبريل (ﷺ) ومحمد (ﷺ)، بحيث كان الفاصل بينهما بعد الدُّنو والتَّدلي، مقدار طُولِ قوسَيْن عربيتين أو أدنى من طولهما، وهذا الفاصل المقدار الذي هو اسم «كان» يفهم من سوابق العبارة: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ ﴾ (النجم: ٧-٨) وهذا أسلوب بياني لتأكيد تحديد مسافة بقدر طول قوسين عربيتين، وقد يكون (أو أدنى) تعبيراً عن بعض أحوال القرب بينهما[٦]، هذا القرب الذي أوحى به سياق الآية

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٢٨٦.

(٢) وقد ورد الحديث بالصيغة الآتية عن ابن مسعود عن الرسول محمد (ﷺ) قال: إنه رأى جبريل له ستمائة جناح. ينظر: صحيح البخاري: ٣ / ١١٨١.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣١٢.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٢٧٣.

(٥) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٦٧٥.

(٦) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٢ / ١٠٩-١١٠.

(فكان قاب قوسين أو أدنى) يظهر لنا معنى أعمق وأقدس من وراء ذلك القرب هو «ظهور جبريل (ﷺ) للرسول محمد (ﷺ) لِيَرَاهُ رُؤيا عين تَصِلُ إلى عُمْق الفؤاد، وتكون له بُرهان إثبات على أنه من عالم الغيب حقاً، وأنه رسول الله من الملائكة الذي يبعثه الله إلى رُسُله من البشر لِيُبَلِّغوهم ما أوحَى الله به إليهم، ولم يقتصر الأمر على مشاهدة واحدة بلْ جعلها الله عز وجل مرتين، زيادة في تأكيد الإثبات البرهاني، وليَتِمّ تعرف الرسول على شخصيّة جبريل، حتى إذا جاء بعد ذلك بآية أو سورة تمثيلية، أو بتنزُّلٍ مسْمُوع الصوت غير مرئي الذات عَرفَهُ، ولم يَخْفَ عليه»[1].

---

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٢ / ١٠٩-١١٠.

١٧. حرف الكاف

١٧ - ١: الكأس

للجذر (كوس) أصل واحد يدل على صَرْع ما يقاربه يقال كأسَهُ يكوُسه إذا صرعه، فأمّا الكأس فيقال: هو الإناء بما فيه من خمر، وهو من غير الباب»[١]، والكأس «مؤنثه ... وقيل لا تسمى الكأس كأساً إلا وفيها الشراب، والجمع كُؤُوس وأكْواسٌ وكياسٌ»[٢] وقد أشار ابن منظور أيضاً إلى أن: الكأس هي «الزجاجة ما دام فيها خمر، فإذا لم يكن فيه خمر فهي قدح وكل هذا مؤنث»[٣]، وقد بين الرصافي أن الكأس يستعار في جميع ضروب المكاره، كقولنا سقاه كأسا من الذل[٤]، ونقول أيضاً «سقاه كأس الموت، وكؤوس المنايا»[٥]، وقيل إن الفرق بين الكأس والقدح ذلك: «أن كل كأس لا تكون إلا مملوءة والقدح تكون مملوءة وغير مملوءة»[٦]، وقيل أيضاً: «إن كل كأسٍ في القرآن الكريم هي خمر، وكل ما ورد ففي شراب أهل الجنة، ولا يعلم أحد إلا الله تعالى حقيقة المادة التي تصنع منها كأس أهل الجنة، ولكنه الشراب الذي ينعم الله تعالى عليهم بتناوله»[٧].

ذكرت اللفظة في ستة مواضع من القرآن الكريم[٨]، في قوله تعالى: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ (النبأ: ٣٤)، فالكأس هنا «الإناء إذا كان فيه شراب، وقيل الكأس إناء الخمر الذي يشرب منه، فإن لم يكن فيه خمر لم يسمَ كأساً، والدهاق

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٤٦-١٤٧.

(٢) الصحاح: ٣ / ٩٦٩.

(٣) لسان العرب: ٦ / ١٨٨-١٨٩ وينظر: المُغرب في ترتيب المعرب: ٣٩٨ ومعجم المؤنثات السماعية: ١٦٤.

(٤) ينظر: الآلة والأداة: ٢٩١.

(٥) أساس البلاغة: ٥٣٢.

(٦) الفروق في اللغة: ٣١٠.

(٧) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٤٦٣.

(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٨٨.

ملأى بشدة الضغط والدهق شدة الضغط في الكأس، فهي ملأى مترعة ليس فيها مزجة ليستوفي حال اللذة»[1]، وقد أشار ابن كثير إلى تلك الكأس وما فيها بقوله «مملوءة متتابعة وصافية»[2]، ومثيل اللفظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (الواقعة: ١٨) وقيل: إن المعين الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد بالكأس في هذا الموضع الخمر الجارية في العيون، وقيل الظاهرة للعيون[3]وقيل: «إن ذكر هذه الأدوات النفيسة يُشعِرُ عن طريق الكناية بما فيها من أنواع أشربة نفيسة لذة للشاربين»[4]، ومثيل اللفظ وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الصافات: ٤٥) ويلاحظ أنه لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب والمعنى أي يطوف عليهم خدم الجنة بكأسٍ من الخمر من نهر جارٍ خارج من عيون الجنة[5]، وقيل أيضاً: يُسَمّى الشراب نفسُه كأساً، فيقال: شربت كأساً من تسمية الشيء باسم محله... ووصف الكأس بكونها من معين لإفادة كثرة الخمر في الجنة ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الصافات: ٤٦) صفتان للكأس باعتبار ما فيه، أوله بمعنى الخمر، أي أنها بيضاء اللون عند مَزْجها، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين وحقيقتها غير حقيقة خمر الدنيا فلذلك قيل: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الصافات: ٤٧) أي ليس فيها غائلة كخمر الدنيا. فلا أذى فيها، ولا مضرّة على شاربها في جسم أو عقل، وكذا سائر ما في الجنة[6].

مما هو ملاحظ للعيان أن الكأس أداة من الأدوات النفيسة التي يحظى بها أهل الجنة إلا أن المعنى الضمني من وراء ذكرها الشراب اللذيذ ذو الرائحة الزكية

---

(١) التبيان: ١٠ / ٢٤٧، ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٧٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٦٠١.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ١٣١-١٣٢.

(٤) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٨ / ٤٤٨.

(٥) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٣٣.

(٦) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٥٦٧.

يخصها الله عز وجل لعباده السابقين في الخيرات.

١٧ - ٢: الكتاب

للجذر (كتب) أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء من ذلك الكتاب والكتابة، يقال: كَتبتُ الكتاب أكتُبهُ كَتْبا ... والكتب: الخرز ومن الباب الكِتَابُ وهو الفَرْضُ. قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ (البقرة: ١٨٣)... [١] ومنه قول رسول الله (ﷺ) «والذي نفسي بيده لأقضيَن بينكما بكتاب الله تعالى... »[٢]، أي أراد بحكمه، وقال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝ ﴾ (البينة: ٢ - ٣) أي أحكام مستقيمة ويقال للقدر أيضاً الكتاب[٣]، وقيل: إن الكتب في التعارف «ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ فالأصل في الكتابة: النظم بالخط ولكن يستعار كل واحد للآخر، ولهذا سمي كلام الله كتاباً كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ﴾ (البقرة: ٢) وقوله: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ ﴾ (مريم: ٣٠) والكتاب في الأصل مصدر ثم سمي المكتوب فيه كتاباً»[٤]، والكتابُ أيضاً «اسم لما كُتِب مَجْموعاً، وقيل الكتاب ما أثبت على بني آدم من أعمالهم، والكتاب: الصحيفة والدّواة»[٥] والكتاب بعد هذا يعني الصحف المجموعة والرسالة القرآن والتوراة والإنجيل ومؤلف سيبويه في النحو - وأمّ الكتاب: الفاتحة، وأهل الكتاب: اليهود والنصارى، والأجل والقدر[٦]، وأصل الكتاب: «ما كتبه الله في اللوح مما هو كائن ثم تتفرع منه معانٍ ترجع إلى هذا الأصل كقوله تعالى:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٥٨.

(٢) مسند الشافعي: ٢٣٦.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٥٨.

(٤) المفردات: ٦٣٨-٦٣٩.

(٥) لسان العرب: ١ / ٦٩٨-٦٩٩ مادة (كتب).

(٦) ينظر: المعجم الوسيط: ٢ / ٧٨١.

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ (المجادلة: ٢١) .

أي قضى الله ذلك وفرغ منه وقوله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة: ٥١) أي ما قضى الله لنا وقوله: ﴿ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ ﴾ (آل عمران: ١٥٤) أي قُضِيَ، لأن هذا قد فُرِغ منه حين كُتب، وتكون كتب بمعنى أمر كقوله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ (المائدة: ٢١) أي أمركم أن تدخلوها[1]. وتحليل اللفظة في القرآن الكريم على عشرة أوجه وجه منها:

الأول: الكتاب الكتابة، في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران: ٤٨) يعني الكتاب الحكمة الحلال والحرام مثلها في سورة النساء الآية (٥٤، ١١٣).

الثاني: الكتاب الحساب كما في قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٨) يعني إلى حسابها.

الثالث: الكتاب اللوح المحفوظ، قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ ﴾ (الحديد: ٢٢). وقوله تعالى في سورة ق: ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴾ (ق: ٤) يعني اللوح المحفوظ[2].

الرابع: عدة المرأة في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ ﴾ (البقرة: ٢٣٥)، يعني عدة المرأة.

الخامس: الكتاب أعمال بني آدم، في قوله تعالى في سورة المطففين: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ (المطففين: ١٨) أي أعمال بني آدم مثلها

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) قاموس القرآن في إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٠٠.

فيها ونحوه.

السادس: الكتاب الرزق والأجل في قوله عز وجل في سورة الحجر: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الحجر: ٤) يعني أجلاً ورزقاً، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، أي وقتاً موقوتاً[١].

السابع: كتاب الفرض، في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء: ٢٤)، يعني فرض الله عليكم حل أربعة. والوجوه الثلاثة الأخرى عني بها الكتب السماوية المنزلة كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت: ٤١)، يعني القرآن الكريم ونحوه وله نظائر كثيرة، وكذا في قوله تعالى: ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧٨)، يعني التوراة، وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ (آل عمران: ٦٤). يعني يا أهل الإنجيل[٢]. بعد هذا الاستعراض للمعاني التي حملتها لفظة (الكتاب) إلا أنها تصب في معين واحد بوصفه آلة العلم وسيلة واضحة في التعامل لرسم منهج الحياة الذي يجعلنا نميز بين الحق والباطل والحجة من الشبهة، لما يتضمنه من تشريعات وقوانين تشرع وتقوم على كتاب الله المنزل من السماء.

وقد وردت اللفظة في مئتين وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم[٣]في قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ (النمل: ٢٨)، وقد أشار القرطبي إلى أنه روي في قصص هذه الآية أن «الهدهد وصل فألقى دون هذه الملكة حجب جدران، فعمد إلى كوة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي - فيما يروى - نائمة، فلما انتبهت وجدته فراعها، وظنت أنه قد دخل عليها أحد، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت

---

(١) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٠٠-٤٠١.

(٢) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٠١.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٩٢-٥٩٥.

فنظرت إلى الكوة تُهمّها بأمر الشمس، فرأت الهدهد فعلمت. وقيل أيضا: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها. وفي هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام»[١] وعلى ما يذكر أن الكتاب كان مختوماً وفي الأثر: كرامة الكتاب ختمه[٢]. وكذا فقد أطلق اللفظ على الكتب السماوية ومن ضمنها القرآن الكريم وذكر بهذا المعنى في الآية الأولى والثانية في كثير من سور القرآن كالبقرة وهود ويونس ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والكهف والشعراء والنمل والقصص ولقمان[٣]. وتأكيدا لما قلناه قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (البقرة: ٢١٣).

وقد ذهب النسفي إلى أن معنى القول هو «أي مع كل واحد منهم كتابه بالحق تبيان الحق ليحكم الله أو الكتاب أو النبي المنزل عليه بين الناس فيما اختلفوا فيه في دين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق»[٤]، فيما أشار سيد قطب بقوله: «أي أنزل الله الكتاب يحكم بين الناس فيما اختلفوا، وهو كتاب واحد حقيقته جاءت به الرسل جميعاً وهو تصور واحد في قاعدته، إله واحد ورب واحد، ومعبود واحد، ومشروع واحد لبني الإنسان... والذي يقرره القرآن في أمر الكتاب هو النظرية الإسلامية الصحيحة في خط سير الأديان والعقائد. وبهذا فإن الكتاب لم ينزل بالحق ليمحو فوارق الاستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل، إنما جاء ليحتكم الناس إليه، وإليه وحده حين يختلفون»[٥]. وكذلك فقد ورد اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(الأنعام: ٥٩) أي يعلم الحركات حتى من الجمادات... وقيل:

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٢٧.

(٢) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٤٨٣.

(٣) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢/ ٤٧٤.

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١ / ١٤٩.

(٥) في ظلال القرآن: ٢ / ٣١٣ -٣١٥.

«ما من شجرةٍ في بَرّ ولا بَحْرٍ إلا وملك مُوَكّل بها، يكتُب ما تسقط منها... وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خَلْقٍ مخلوق، أو رزق حَلال أو حرام، أو عملَ بَر أو بحرٍ»[1]، وقد أشار أيضاً حسنين مخلوف إلى تفسير هذه الآية وقال: «المراد بها القدرة الكاملة على كل الممكنات وقوله: ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أي التوراة والإنجيل والزبور، ولما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقاً، وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبور والكتاب وفيه مسلاه لرسول الله (ﷺ)»[2].

فالكتاب المنير على هذا: «يراد به الكتاب العظيم الذي يشتمل على آيات بيانية كالمصابيح، تكشف الحق والخير وصراط الله المستقيم، للعقول والقلوب والنفوس بما فيها من بيناتٍ هَادِيَاتٍ دَالاّتٍ على ما فيه سَعَادةُ الناس في دُنياهُم وفي آخِرَتهم، وقد جاء في القرآن بيانُ أن التوراة [كتابٌ] وجاء في وصفه أنه هدى ونور، أي: فهو منير»[3]، وبعد تعدد المعاني للفظة الكتاب، فقد ذهب القرطبي إلى أن هذا التعدد في المعاني للفظة (كتاب) أراد بها العلم، فإن ما كتب كان أبعد من النسيان كما في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النبأ: ٢٩)...[4].

١٧ – ٣: الكرسي

للجذر (كرس) أصل صحيح يدل على تَلبُّد شيء فوق شيء وتجمعه. فالكِرْس: ما تلبّد من الأبعار والأبوال في الديار، واشتقت الكُرّاسة من هذا لأنها ورقٌ بعضه فوق بعض[5]. والكُوس: «مصدر كاس البعير يكون كرسا إذا قطعت

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٦٠.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣ / ١٤٢٣.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٧ / ١٤١.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ١١٩.

(٥) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٦٩.

إحدى قوائمه فحبا على ثلاث»[١]، ونقول: وقفت على كرس من أكراس الدار، وهو ما تكرّس من دمنتها تلبّد، وأكرست الدارُ، ومن المجاز: هو طيب الكِرْس أي الأصل، وهو في كِرس صدقٍ، وفي كِرْسِ غِنىً، وقيل: الكُرسي منسوب إلى كِرس الملك كقولهم: دُهرِيّ[٢]، وقيل أيضاً: «الكرسي: بالضم، وقد يكسر، السرير، وأداة من خشب وغيره يقعد عليها جمعه كراسّي بالتشديد عليه وكراسي بالتخفيف»[٣]، ويشير ابن منظور إلى أن الكرسي معروف واحد الكراسي. وقيل: «الكرسي ما تعرفه العرب من كَراسي المُلوك، وقيل: الكرسّي موضع القدمين»[٤]، وقيل أيضاً الكرسي هو «ما يجلس عليه، ولا ينفصل عن مقعد القاعد، وقيل أصله العلم ومنه قيل للصحيفة التي يكون فيها علم كراسة»[٥]، وعلى هذا (فالكُرْسّي) تعني: «السّرير - العرش - مقعد من الخشب ونحوه لجالس واحد. ورتبة علمية في الجامعة يشغلها أستاذ (محدثة) ...»[٦].

وقد وردت لفظة الكرسي في موضعين من القرآن الكريم[٧]، الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقد أشار الرازي إلى أن المفسرين اختلفوا على أربعة أقوال (الأول) أنه جسم عظيم يسع السماوات والأرض، ثم اختلفوا فيه، فمنهم من قال أنه هو نفس العرش، لأن السرير يوصف بأنه عرش، وبأنه كرسي، وقال بعضهم: بل الكرسي غير العرش، وهو دونه وفوق السماء السابعة، ومنهم من قال أنه تحت الأرض وإلى آخره من الأقوال، علماً أن لفظ الكرسي ورد في الآية وجاء في الأخبار الصحيحة أنه جسم عظيم تحت العرش وفوق السماء السابعة، وأما ما روي عن بعضهم أنه قال: موضع القدمين، أو موضع قدمي الله تعالى وتقدس عن الجوارح والأعضاء فوجب رد هذه

---

(١) جمهرة اللغة: ٣ / ٤٨.

(٢) ينظر: أساس البلاغة: ٥٤٠.

(٣) الآلة والأداة، ٢٩٧.

(٤) لسان العرب: ٦ / ١٩٤، (مادة كرس).

(٥) الكليات: ٢ / ٧٧٠.

(٦) المعجم الوسيط: ٢ / ٧٨٩.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٩٠٢.

الرواية أو حملها على أن المراد أن الكرسي موضع قدمي الروح الأعظم. (القول الثاني) أن المراد من (الكرسي) السلطان والقدرة والملك و(القول الثالث) أن (الكرسي) هو العلم، لأن العلم موضع العالم، وهو الكرسي فسميت صفة الشيء باسم مكان ذلك الشيء على سبيل المجاز و(القول الرابع) وهو أن المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله وكبريائه. والقول عندي أن القول الأول هو المعتمد عليه، لأن ترك الظاهر بغير دليل لا يجوز والله أعلم[١] وقد ذكر القرطبي نقلا عن ابن عساكر في تاريخه أنّ قول الرسول (ﷺ): (الكرسي لؤلؤة والقلم لؤلؤه وطول القلم سبعمائة سنة وطول الكرسي حيث لا يعلمه إلا الله)... وسائر الروايات تدل على أن المراد من لفظة الكرسي هو الكرسي المشهور مع العرش[٢]، إلا أن النسفي ذهب إلى أن معنى قوله تعالى يعني: «علمه ومنه الكراسة لتضمنها العلم والكراسي العلماء وسمي العلم كرسياً تسمية بمكانة الذي هو كرسي العالم هو كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ (غافر: ٧) أو ملكه تسمية بمكان الذي هو كرسي الملك أو عرشه، أو هو سرير دون العرش... أو قدرته بدليل قوله تعالى: (ولا يؤوده)، ولا يثقله ولا يشق عليه (حفظهما) حفظ السماوات والأرض»[٣]. وعن عمر بن الخطاب (ﷺ) قال: أتت امرأة إلى رسول الله (ﷺ) فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: فَعظّم الرب تبارك وتعالى وقال: «إن كرسيّه وسع السموات والأرض، وإن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد من ثقله»[٤].

وقيل أيضاً أن الكرسي تعني «شيء يجلس عليه مُركّب من أعواد أو غيرها موضوعة كالأعمدة متساوية، عليها سطح من خشب أو غيره بمقدار ما يسع شخصاً واحداً في جلوسه، فإن زاد على مجلس واحد وكان مرتفعا فهو العرش، وليس المراد في الآية حقيقة الكرسي، إذ لا يليق بالله تعالى لاقتضائه التميز، فتعين أن

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٧ / ١٢-١٣.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣ / ١٧٩-١٨٠.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١ / ١٧٨-١٧٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١ / ٤١٢. وقد ورد الحديث بصيغة أخرى وهي «(أن له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله» ينظر: العظمة، عبد الله بن محمد بن حيان الأصفهاني: ٢ / ٥٤٨.

يكون مرادا به غير حقيقته وروي في ذلك عن أبي ذر (ﷺ) أن النبي (ﷺ) قال: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيَتْ بين ظهري فلاة من الأرض»[1]، وقيل: إنه حديث لم يصح، وقيل أيضاً الكرسي موضع القدمين من العرش، أي لأن الجالس على عرش يكون مرتفعاً عن الأرض فيوضع له كرسي لئلا تكون رجلاه في الفضاء إذا لم يتربّع[2]. وبعد كل هذا فإن للعلماء في تفسير الكرسي هنا أقوال: «منهم من فسّره بالعلم؛ ومنهم من فسره بالعرش، ومنهم من فسره بمخلوق عظيم محيط دون العرش، ومنهم من فسره بالقدرة، ومنهم من فسره بالملك، والصحيح عندي أن الكرسي غير العرش والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وإذاً صار معنى النص على القول الأول: أحاط علمه السماوات والأرض»[3]، وقيل أيضاً أن المراد بالكرسي: «هنا العظمة والسلطان» والله أعلم[4]، وثمة رأي لعبد الله الإدريسي يفند هذه الآراء المتعددة الدلالات لتفسير لفظة (الكرسي)، وينكر على من يقول بأن الكرسي تعني العلم وهذا قول المعتزلة، ويقول: «بأنهم لجأوا إلى هذا التفسير لإنكارهم الكرسي والعرش ونحوهما، فقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، أي علمه، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف قول الشاعر:

ولا يكرسئ علم الله مخلوف

كأنه عندهم: ولا يعلم علم الله مخلوق ويكرسئ مهموز، يستوحشون أن يجعلوا لله كرسياً»[5]. إذاً الكرسي ليس مكاناً للعلم بل هو مكان لمن يجلس عليه من عالم وجاهل وبليد وذكي، فإن صح تسمية العلم كرسياً، لكونه من مكان العالم، صحت تسمية الجهل والبلادة والذكاء كرسياً لعلاقة المكانية أيضاً!! وكذلك فند قول من قال أن الكرسي مجازاً عن الملك وقال هي من بدع التفاسير أيضاً، وعلى

---

(١) العظمة: ٢ / ٥٨٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣ / ٢٣.

(٣) الأساس في التفسير: ١ / ٥٩٦.

(٤) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٤٩٠.

(٥) من بدع التفاسير: ٢٩-٣٠.

هذا فالذي يصح أن يتجوز به عن الملك هو العرش أو التاج أو المقاليد، لأن هذه الأشياء لا توجد إلا عند الملوك، وهي مظاهر ملكهم، أما الكرسي فلا اختصاص له بالملوك، ولا مظهر فيه من مظاهر الملك وأبهته، وهو موجود عند جميع الرعايا فقرائها وأغنيائها، فلا يصح جعله كناية عن الملك[١]، وخلاصة القول عند الإدريسي أن «الكرسي مخلوق عظيم نسبة إلى السماوات والأرض، كحلقة في باب فلاة من الأرض، وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والآية تبين عظم قدرة الله تعالى، لأن الكرسي وهو بعض مخلوقاته، يسع الدنيا بسماواتها وأرضها ومن فيها وما فيها»[٢]. والموضع الثاني الذي ذكرت فيه لفظة (الكرسي) في قوله تعالـــى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (ص: ٣٤)، هنا الكرسي هي غير الكرسي في الآية السابقة ويُذكر أن سليمان (ﷺ) لما ملك بعد أبيه، أمر باتخاذ كرسي يجلس عليه للقضاء وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيب، فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مفصصة بالدرر والياقوت، وأن يحفّ بنخيل الذهب، وجعلوا من جنبي الكرسي أسدين من ذهب، وكان سليمان (ﷺ) إذا أراد الصعود وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسي كله، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها[٣]، ومعنى الآية أي: «اختبرناه بأن سَلَبْناهُ المُلك مرّة ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾، أي: شيطاناً، ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته»[٤]، فكانت هذه الحادثة التي أجراها الله عز وجل لسليمان (ﷺ) إشعارا له بإبعاده عن ملكه، واختبار حالته النفسية مع ربه من خلال هذه الحادثة التي قضى الله عز وجل أن تكون عرضاً طارئاً، لكنه لم يكن يعلم بأنه عرض طارئ، والقول في إلقاء جسدٍ في صورة سليمان (ﷺ) على كرسي سليمان بأنه جني لا يستند إلى خبر عن المعصوم، وإنما تقتصر على ما دل عليه النص القرآني، لأن تسمية الذي ألقاه الله عز وجل على كرسي سليمان (ﷺ) جسداً

---

(١) ينظر: من بدع التفاسير: ٣٠-٣١.

(٢) م. ن: ٢٩.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ١٣٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٤-٤٥.

يدل على أنه لا يأكُلُ ولا يعاشر النساء، فهو ليس جنياً، لأن الجنَّ كالإنس يأكلون ويشربون ويُعاشرون النساء، وكذلك هو ليس وثناً، لأنه لو كان وثناً أو دمية لاكتشف سليمان أمره سريعاً، ولما كان في الأمر اختبار له،... والظاهر كون الله تبارك وتعالى ألقاه على كرسي سليمان، ومن تسميته جسداً، إنه ملك أنزله الله بأمره فَتَشكلَ جسداً على صورة سليمان (ﷺ)، وتم به امتحان سليمان (ﷺ) في خصوص كرسي ملكه، ولا أحد من الناس غير سليمان يدري بالأمر»[1].

وبعد كل هذا التفصيل حول وصف كرسي سليمان (ﷺ) وإلقاء الجسد عليه تبين لنا من ذكر كرسي سليمان أمران أولهما: يوحي السياق القرآني إلى بيان عظمة ملك سليمان الذي وهبه الله له في وصف هذه الأداة الهينة في شكلها العظيم في قدرتها المستوحاة من قوة وصنعة الله الذي يعجز أكبر مخلوق عن صنعته، وثانيها: من طرف آخر يوحي السياق أيضا إلى فتنة المخلوق إذا هو يغفل عن مشيئة الخالق فيبتلى ويعاقب ولا يغفر له إلا أن يرد إلى رشده، فالكرسي ضمن الموضعين حملت معنيين أحدهما: عظيم والآخر: يسير، فالعظيم في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وهذا يتعلق بالسلطة المطلقة للباري عز وجل الذي يقود حركة الموجودات بعلمه الغيبي المطلق. والمعنى اليسير فهو خاص بالمخلوقين ملوكاً كانوا أم بسطاء الناس كما في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ۝ ﴾ (ص: ٣٤).

---

(١) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٥٦٨-٥٦٩.

١٨ . حرف اللام

١٨ – ١: اللوح

للجذر (لوح) أصل صحيح يقال: لاح الشيء يلوح إذا لَمَحَ ولَمعَ، والمصدر اللّوح.. والألواح: ما لاح من السلاح، وأكثر ذلك السيوف. ومن الباب اللّوح: الكَتِفَ واللّوح أيضاً: الواحد من ألواح السفينة وهو أيضاً كل عظمٍ عريض. وسمي لَوحاً لأنه يُلوح. ومن الباب اللُّوح بالضم وهو الهواء بين السماء والأرض[١]، وقيل أيضاً: اللوح هو الذي يكتب فيه[٢]، وفُسِر في قوله تعالى: ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج: ٢٢) بالكتاب لأن كيفيته تخفى علينا إلا بقدر ما روي لنا من الأخبار[٣]، ومن المجاز: «ألاح بسيفه وبثوبه، ولوّح به: لمعَ به ولوّح للكلب برغيف فتبعه، وألاح من الشيء وأشاح: أشفق وحَذِر، ولوحتّه بالعصا والنّعل: علوته بها، ولاح لي أمرك، ولاح لي فلان: برز ولم يبقَ منه إلا الألواح: العظام العراض للمهزول»[٤]، واللّوح أيضاً: «كل صفيحة عريضة خشباً كانت أو عظماً أو غيرهما، ولَوح الإردواز: لوحٌ من حجرٍ خاص يسهل فيه فحوى الكتابة، ولوح الجسد: كل عظم منه فيه عرض كالكتف. ويقال: فلان تام الألواح: عظيم الخلقة ولم يبقَ منه إلا الألواح: العظام العراض، يقال ذلك للمهزول. ولوح الألوان: لوح من الخشب في الألوان الزيتية ومن الصفيح المطلي في الألوان المائية: تجعل عليه الألوان وتُداف»[٥]، وقد ذكر الرصافي أيضا أن العامة تقول لوحة أيضاً، وهي في المعنى عندهم أخص من اللوح، وقد يطلقون اللوح أيضاً على عدة ألواح يؤلف بعضها مع بعض بعضائد من الخشب ويُعمَل لها ساقان تقوم عليهما وتدعمها من

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٢٢٠.

(٢) ينظر: الصحاح: ١ / ٤٠٢.

(٣) ينظر: المفردات: ٦٨٨.

(٤) أساس البلاغة: ٥٧٤.

(٥) المعجم الوسيط: ٢ / ٨٥١ –٨٥٢.

خلفها دعامة أو دعامتان تستند عليهما فيقيمونها في المدرسة ليكتب عليها الطلاب بالطباشير بعض المسائل الحسابية وغيرها، مما يجري به الدرس[1].

وردت لفظة (اللوح) في أربعة مواضع من القرآن الكريم[2] إفرادا وجمعاً، وتأتي اللفظة في القرآن الكريم على أربعة أوجه منها:

الوجه الأول: الألواح: الصحف في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾(الأعراف: ١٤٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ (الأعراف: ١٥٠)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ (الأعراف: ١٥٤)، يعني الصحف.

الوجه الثاني: اللوح هو اللوح المحفوظ في قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝ ﴾ (البروج: ٢١-٢٢).

الوجه الثالث: لواحة يعني لفاحة في قوله تعالى: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ ﴾ (المدثر: ٢٩)، تلفح الشخص فتدعه أشد سواداً من الليل، ويقال شواهة لأبدانهم.

الوجه الرابع: الألواح العوارض التي في السفن في قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ ﴾ (القمر: ١٣)، يعني ألواح السفينة[3]، وفي تحليل اللفظة - الألواح - في سورة الأعراف: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾ (الأعراف: ١٤٥). واعلم أنه تعالى لما بين أنه خص موسى (ﷺ) بالرسالة ذكر في هذه الآية تفصيل تلك الرسالة فقال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾ (الأعراف: ١٤٥)، فقد ذكر الرازي أقوالاً كثيرة عن المفسرين حول هذه الألواح من حيث جوهرها وطولها، فمنهم من قال أنها كانت عشرة ألواح، وقيل سبعة، وقيل إنها كانت من زمردة جاء بها جبريل (ﷺ)، وآخر قال: كانت من صخرة صماء لينها الله لموسى (ﷺ)، وأما كيفية الكتابة، فهناك من قال وهو ابن جريج أن جبريل (ﷺ) كتبها بالقلم الذي كتب به الذكر

(١) ينظر: الآلة والأداة: ٣٢٠.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٥٣-٦٥٤.

(٣) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٢١.

واستمد من نهر النور، إلا أن الرازي يقول: إنه ليس في لفظة الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه[١]. والألواح هنا تعني: «الصحف فيها من كل شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها وبيان كل شيء لشريعة الله والتوجيهات المطلوبة لإصلاح هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل وطول الأمر سواء، والأمر الإلهي الجليل لموسى (ﷺ) أن يأخذ الألواح بقوة وعزم وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم أو الأصلح لحالهم. فإنه يوحي بالمنهج الواجب في أخذ كل أمة بكل عقيدة تأتيها»[٢]. وقد اختلف المفسرون في شأن هذه الألواح وفي وصفها ونحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير، ... ومهما يكن من تلك الأوصاف فلا تزيد ولا تنقص من حقيقة هذه الألواح. المهم هو ما في هذه الألواح، وتقول الروايات أيضاً «لا يَبْعُد أن موسى (ﷺ) كان قد أعد اللوحين من الحجارة ليكتب الله له عليهما ما كان قد وعده من أن يسجل له ولقومه من الدين ما يأتونه وما يَذَرونَهُ، ولهذا عرف الله في الآية الألواح بأداة التعريف التي تفيد التعيين، إذ هي (أل) التي للعهد»[٣]. وقيل: إن تسمية الألواح التي أعطاها الله موسى (ﷺ) ألواحا مجاز بالصورة لأن الألواح التي أعطيها موسى (ﷺ) كانت من حجارة، فتسميتها الألواح لأنها كانت على صورة الألواح، وأسندت الكتابة إلى الله تعالى لأنها كانت مكتوبة نقشاً في الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى[٤] وكذلك اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ (الأعراف: ١٥٠)، وقد ذهب سيد قطب إلى بيان ملاحظة التعبير القرآني في تشخيص الغضب فكأنما هو حي وكأنما هو سلط على موسى (ﷺ) يدفعه ويحركه... حتى إذا (سكت) عنه، وتركه وشأنه عاد موسى إلى نفسه، فأخذ الألواح التي ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته ... ثم يوضح السياق مرة أخرى

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٤ / ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٩ / ٦٣٥.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٤ / ٥٤٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٩ / ٩٦.

أن في هذه الألواح هدى وأن فيها رحمة، لمن يخشون ربهم ويرهبونه فتتفتح قلوبهم للهدى، وينالون به الرحمة"[١]. وكما ورد اللفظ بوصفه أداة في قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر: ١٣)، وقد أشار القرطبي إلى معنى الآية بقوله: «أي سفينة ذات ألواح و(دُسُر) يعني المسامير التي دُسِرت بها السفينة أي شُدّت ... والسفينة تركها الله آية لمن بعد قوم نوح (ﷺ) يعتبرون بها فلا يكذبون الرسل بدليل قوله: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٥)..."[٢]، وهنا الألواح هي ألواح السفينة.

والظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها فهي ذات ألواح ودسر، وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه وهي جزاء بالتكريم على الاستهزاء، ويصور لنا مدى القوة التي يملكها رصيدها من يغلب في سبيل الله، ومن يبذل طاقته، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدعو له أن ينتصر! إن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته والله من ورائها بجبروته وقدرته[٣].

هكذا يوحي السياق القرآني بأن ذكر لفظة الألواح تدل على شيئين أولهما: أنها أحكام شريعة الله وتوجيهاته المطلوبة لإصلاح هذه الأمة، والآخر تتحول هذه الألواح الهينة في شكلها إلى أداة إسناد ودعم لمركب يجري وسط طوفان الماء وينقذ من أراد الله إنقاذه، ووراء كل ذلك قدرة الله العظيمة وسيطرته على حركة الموجودات.

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٩ / ٦٤٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٨٧.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٧ / ٦٥٠٩.

١٩- حرف الميم

١٩ - ١: المائدة

للجذر (ميد) أصلان صحيحان: أحدهما يدل على حركة في شيء والآخر على نفع وعطاء... والأصل الآخر المَيد وماد يميد: أطعم [و] نفع، ومادني يميدني: نعشني، قالوا: وسميت المائدة منه، وكذا المائد من هذا القياس والمائدة: الخوان لأنها تميد بما عليها أي تحركه[١]. وقيل المائدة «الطعام نفسه وإن لم يكن هناك خِوان: مشتق من ذلك، وقيل هي نفس الخوان، وقيل: لا تسمى مائدة حتى يكون عليها الطعام وإلا فهي خوان»[٢]. وقال ابن دريد: «سميت بذلك لأنها تميد أصحابها بما عليها من الخبز، وهكذا فسر التنزيل»[٣]. غير أن ابن منظور ذهب إلى أن المائدة في المعنى مفعولة ولفظها فاعلة... والمائدة أيضا: الدائرة من الأرض[٤]، والمائدة (جمعها) موائد[٥]. وقيل: من الاستعمال الثاني للمائدة أن مائدة معطية كأنها تعطي الآكلين ما يتناولونه منها، وقيل مائدة بمعنى مميدة أي معطاة كما قالوا سر كاتم أي مكتوم[٦]. وقد أشار الرصافي إلى أن المائدة اليوم تطلق على شيء كالسرير يصنع من الخشب يقوم على أربع قوائم من الخشب وهو مستطيل أو مربع يصنعون الطعام عليه ويجلسون حوله على الكراسي فيأكلون[٧]. ووردت لفظة (المائدة) في موضعين من القرآن الكريم[٨]. ففي قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥/ ٢٨٨.

(٢) العين: ٣/ ٤١١.

(٣) جمهرة اللغة: ٢/ ٣٠٣.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٣/ ٤١١، مادة (ميد).

(٥) المعجم الوسيط: ٢/ ٩٠٠.

(٦) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢/ ٦٧١.

(٧) ينظر: الآلة والأداة: ٣٩٣.

(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٨٤.

﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (المائدة: ١١٢).

فقد ذهب الرازي في معنى الآية إلى مسائل منها: أن الحواريين وهم أتباع عيسى (ﷺ) إذ قالوا هل تستطيع سؤال ربك؟ وفيها وجهان: إما شكهم في استطاعة عيسى (ﷺ)، أو شكهم في استطاعة الله، ولا شك أن الأولى أولى، وهذا لا يصدر عمن كان كاملاً في الإيمان. وقالوا: ونعلم أن قد صدقنا وهذا يدل على مرض في القلب وكذلك قول عيسى (ﷺ) لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين إلا أنهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم المزيد من الطمأنينة[1]. وقد ذكر ابن كثير أنه ذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها[2]. وقيل أيضاً: أن طلبهم من عيسى (ﷺ) أن ينزل عليهم مائدة من السماء وسبب إنزالها هو اعتقادهم قدرة الله تعالى على ذلك، لأنهم مؤمنون، وقول آخر أن سؤالهم ذلك من قبيل قول إبراهيم (ﷺ): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٠). وقيل إن المائدة كما تطلق على الخوان تطلق أيضا على نفس الطعام لعلاقة المجاورة[3]. والمعنى كله بعد هذا يعني إن كنتم مؤمنين بكونه سبحانه وتعالى قادراً على إنزال المائدة فاتقوا الله لتصير تقواكم وسيلة إلى حصول هذا المطلوب، ومعنى القول كأنهم لما طلبوا ذلك، قال عيسى (ﷺ) لهم: إنه قد تقدمت المعجزات الكثيرة فاتقوا الله في طلب هذه المعجزة بعد تقدم تلك المعجزات القاهرة، وأجابوا وقالوا: إنا لا نطلب هذه المائدة لمجرد أن تكون معجزة بل لمجموع أمور كثيرة: أحدها: أنا نريد أن نأكل منها فإن الجوع قد تغلب علينا ولا نجد طعاماً آخر. وثانيها: أنا وإن علمنا قدره الله تعالى بالدليل، ولكننا إذا شاهدنا نزول هذه المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة، وثالثها: أن جميع تلك المعجزات التي أوردتها كانت معجزات أرضية وهذه معجزة سماوية وهي أعجب وأعظم، فإذا شاهدناها كنا عليها من الشاهدين، ونشهد عليها عند الذين لم

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢/ ١٣٩.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ١٥٩-١٦٠.

(٣) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ١٦٦.

يحضروها من بني إسرائيل، ونكون عليها من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة[١]، إلا أن هناك رأيا مغايراً حول دلالة لفظة المائدة في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (المائدة: ١١٢).

فيقال: المائدة في الآية تعني العِلم أي أنهم استدعوا علماً وسماه مائدة من حيث أن العلم غذاء القلوب كما أن الطعام غذاء الأبدان بدليل السياق القرآني في قوله تعالى ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (المائدة: ١٢٥)... [٢]، وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً ﴾ (المائدة: ١١٤)، والمائدة أيضا هنا أنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة[٣]، وبهذا العرض التفسيري للفظة - المائدة - يظهر لنا أن أداة المائدة تتحول في سياقها القرآني إلى دليل ينصِبه الله تعالى على قدرته على الأشياء وعلى إجابة دعوة عيسى (ﷺ) نبيه فيصدقه قومه فيما أبلغ عن الله تعالى خالقه ودلالة حُجّة على نبوة عيسى (ﷺ).

١٩ - ٢: الماعون

للجذر (معن) أصل يدل على سهولة في جريان أو جري أو غير ذلك، وَمَعَن الماء جرى، وماء معين، ومجاري الماء في الوادي مُعْنانٌ، وقيل ومن الباب أمعَن الفرسُ في عَدْوِه، وأمْعَن بحقّي: ذهب إليه، ورجلٌ مَعْنٌ في حاجته: سَهْل وأمعنت الأرض: رَوِيَتْ وكلأٌ مَمعُون: جَرَى فيه الماء[٤]، وقيل إن اشتقاق الماعون من المعن أي الشيء اليسير إن شاء الله[٥]، والماعون أيضاً: «اسم جامع لمنافع البيت كالقدر والفأس ونحوها، ويسمى الماء أيضاً مَاعُوناً، وقيل الماعون في

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢ / ١٣٨-١٣٩.

(٢) ينظر: المفردات: ١٢٥.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ١٥٩.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٣٣٥.

(٥) ينظر: جمهرة اللغة: ٣ / ١٤٢.

الجاهلية كل منفعة وعطية، والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة ومن الناس من يقول: الماعون أصله مَعونة والألف عوض عن الهاء»[1] وهذا ما ذهب إليه ابن منظور بقوله: «الماعون الزكاة وهو فاعول من المَغنِ، وهو الشيء القليل فسميت الزكاة ماعوناً بالشيء القليل لأنه يؤخذ من المال ربع عشره وهو قليل من كثير وقيل أيضاً الماعون: المَطَرُ لأنه يأتي من رحمة الله عَفْواً بغير علاج كما تعالج الآبار ونحوها من فُرَض المشارب... وكلّه من السهولة والتَّيسيرُ»[2] والماعون أيضاً: «الطاعةُ والانقياد تقول: ضرب دابَّته حتى أعطت الماعون»[3]. وخلاصة القول إن الماعون: «كل ما انتفعت به، أو قد يستعار من فأس وقدوم وقدر ونحوها من منافع البيت قلت والعامة عندما تخصص الماعون فلا تطلق إلا على الإناء الذي يؤكل به الطعام وتجمعه مواعين»[4].

وردت اللفظة - الماعون - في موضع واحد من القرآن الكريم[5]، في قوله تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝ ﴾ (الماعون: ٧) .

ويختلف أهل التأويل في الذي عني به من معاني الماعون في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به الزكاة المفروضة، قال علي (ﷺ) في قوله: «ويمنعون الماعون» قال الزكاة: أي زكاة أموالهم ... وقيل الماعون منع الحق ... وقيل هو القِدر والدلو والفأس، وقال آخرون: الماعون هو المعروف، وقيل: الماعون بلسان قريش المال[6]، وهذا أيضاً ما أشار إليه الرازي بأن في دلالة الماعون أقوالاً: منها قول الماعون يعني الزكاة بدليل أن الله ذكره عقيب الصلاة، وقيل أيضاً وهو قول أكثر المفسرين: أن (الماعون) اسم لما لا يمنع من العادة ويسأله الفقير والغني، ينسب مانعه إلى سوء كالفأس والقدر والدلو والغربال والقدوم وأصحاب هذا القول قالوا: إن الماعون فاعول من المعن وهو الشيء

(١) الصحاح: ٦ / ٢٢٠٤-٢٢٠٥.

(٢) لسان العرب: ١٣ / ٤٠٩-٤١٠، مادة (معن).

(٣) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٦٤٣.

(٤) الآلة والأداة: ٣٨٨.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٧١.

(٦) ينظر: جامع البيان: ٣٠ / ٣٨١-٣٨٣.

القليل وسميت الزكاة ماعوناً، لأنه يؤخذ من المال ربع العشر، ويسمى ما يستعار في العرف كالفأس والقدر ماعون وعلى هذا يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة وقول آخر، أن الماعون يعني حسن الانقياد، وبعد كل هذا. فالأولى أن يحمل على كل طاعة يخف فعلها لأنه أكثر فائدة[1]، إلا أن ابن عاشور قال: الماعون يطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية وآلات طبخ ونحو ذلك، مما لا خسارة في إعارته وإعطائه[2]، وبهذا فمعنى الآية يدل على أن: «المكذبين بقانون الجزاء الرّباني يمنَعون إعارة الماعون، ويَمْنَعون بَذْل المعونات اليسيرات، التي لا يَعْبأ الناس بمقادير قيمتها وأثمانها، عن ذوي الحاجات لها من جيرانهم ومعارفهم، ولا يخجلون من منعها، ويفعلون هذا، فضلاً عن كونهم يدعّوْن اليتامى،... دَلَّ تأخير بيان صفة منعهم للماعون إلى آخر آية في السورة للإشعار بأن المراد بالمصلين الساهين عن صلاتهم هم المكذبون بالدين أنفسهم، وهم الكفرة المشركون، وأن صلواتهم وعباداتهم، إنما هي تقاليد وعادات يفعلونها محافظة على بعض مواريثهم من دين إسماعيل بن إبراهيم (ﷺ)، كمناسك الحج التي يؤدونها على جاهلياتهم ووثنياتهم»[3]، إلا أن المراد القرآني هنا يعطي لأداة الماعون دلالة ضمنية غير دلالتها الظاهرية تحيلنا إلى عدم التجاوز على روح التكاليف الإسلامية، وبما أن الزكاة جزء من أركان الإسلام فإن منعها يؤدي إلى تعطيل هذه الأركان ومن ثم يؤدي إلى هدم ما جاء به الإسلام.

١٩ - ٣: المتاع

للجذر (متع) أصل صحيح يدل على منفعة وامتداد مدّة في خير، منه استمتعت بالشّيء، والمُتعَة والمتاع: المنفعة في قوله تعالى: ﴿ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾(النور: ٢٩). والمتاع من أمتعة البيت، ما يستمتع به الإنسان في حوائجه، وذهب بعضهم أن الأصل في الباب التلَذّذ...، والمتاع: الانتفاع بما فيه لذّة عاجلة

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٢ / ١١٥-١١٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣ / ٥٦٨.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر: ١ / ٦٩٦.

وذهب منهم آخر إلى أن الأصل الامتداد والارتفاع[١]. وقيل: إن «المَتاعُ السِلعة والمتاع أيضاً: المنفعة وما تَمتَّعت به، ومنه متعة النكاح، ومتعة الطلاق، ومتعة الحج، لأنه انتِفَاع»[٢]، وقال الراغب الأصفهاني: «وكل ما ينتفع به على وجه (ما) فهو متاع أو أمتعة، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (يوسف: ٦٥) أي طعامهم فسماه متاعاً، وقيل وعاءهم وكلاهما متاع وهما متلازمان، فإن الطعام كان في الوعاء»[٣]، إلا أن ابن منظور قال: إن من المجاز أن نقول: «متع النهار مُتوعاً: ارتفع غاية الارتفاع وهو ما قبل الزوال، وَمَتَع الضحى وتَلَع، ومَتَع النباتُ، وهذا شيء ماتع بالغ في الجودة، والدنيا متاع، وهو كل ما يستمتع به، وهذه أمتعة فلان وأماتِعُه، وتمتعت بالعُمرة»[٤]، وقيل أيضاً: «إن المتاع ما تستَطِيبُه النُّفوس في هذه الحياة ويأتي عليه الفَنَاء، كالمال والنساء والولد، وأكثر ما يستعمل في المُشْتهيات الباطلة»[٥].

وردت اللفظة إفرادا وجمعاً في خمسة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم[٦]، وتأتي اللفظة في القرآن الكريم على أربعة وجوه:

الوجه الأول: متاع أي بلاغ كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة: ٣٦) ومثلها في (الأعراف: الآية ٢) و(الأنبياء: الآية ١١١).

الوجه الثاني: متاع يعني منافع كقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ ﴾ (المائدة: ٩٦) ومثلها في (النور: الآية ٢٩) و(الواقعة الآية: ٧٣) و(النازعات: الآية ٣٣).

الوجه الثالث: متاع يعني متعة المطلقة كقوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) الصحاح: ٣ / ١٢٨٢.

(٣) المفردات: ٦٩٩.

(٤) أساس البلاغة: ٥٨١.

(٥) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٦٠٨.

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٥٨.

قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٣٦) ومثلها في (البقرة الآية: ٢٤١).

الــوجه الرابع: المتاع الحديد والرصاص والصفر كقوله تعالى: ﴿ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ (الرعد: ١٧)... [١]. والوجه الذي يعنينا بوصفه آلة وأداة ينتفع بها فقد ذُكر في خمسة مواضع من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ (الرعد: ١٧) وقيل: إن المتاع يعني: «الآلات التي ينتفع بها»[٢]، إلا أن الطوسي ذهب إلى أن المتاع: «يعني الصفر والحديد، والله يضرب الحق والباطل، كما أوقد على الذهب والفضة والصفر والحديد، فيخلص خالصة كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، قيل: فكذلك الحق بقي لأهله فانتفعوا به»[٣]. ولسيد قطب أيضاً تفسير يدعم تفسير الطوسي للفظة فيقول: «إن المتاع هنا يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل في الحياة، فالباطل يطفو ويعلو ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، ولكنه هو الباقي في الأرض كالمعدن الأصيل ينفع الناس»[٤].

هكذا يوحي سياق الآية إلى أن لفظة (متاع) مُثلت وشُبهت بالحق والباطل في الحياة وكذا فقد وردت اللفظة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (النحل: ٨٠) والمتاع هنا يطلق: على ما في الرحال من فرش

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٥٨.
(٢) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ١٤٥-١٤٦.
(٣) تأويل مشكل القرآن: ٥١٢.
(٤) التبيان: ٦ / ٢٣٩.

وأغطية وأدوات إلا أنه يشير إلى التمتع والارتياح[1]، وكذا في (الأحزاب: الآية ٥٣)، والمغزى من كل هذا لعل الله أمر يوسف (عليه السلام) بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب (عليه السلام)، ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر[2]. كما وردت اللفظة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝ ﴾ (يوسف: ٧٩) وقد أشار القرطبي إلى أن المتاع يعني هنا الصواع، ومعناه أن لو أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لكنا ظالمين واضعين للشيء في غير موضعه[3] وكذلك اللفظ ورد في قوله تعالى: ﴿ ...وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ ...﴾ (يوسف: ٦٥) وقيل: إن المراد به هاهنا أوعية الطعام وتكمل سياق الآية: ﴿ ...وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾ (يوسف: ٦٥) أي أصابوا بضاعتهم التي كانوا وزنوها بشري الطعام قد جعلت في وسط أمتعتهم[4]، إذاً المتاع في سياق هذه الآية هاهنا «الوعاء فيه الميرة وهو ينتفع به، أو سمي الوعاء باسم الميرة التي ينتفع بها»[5]، وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾ (النساء: ١٠٢) وقد أوضح القرطبي أن في هذه الآية دليلا على تعاطي الأسباب واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب ويوصل إلى السلامة ويبلغ دار الكرامة[6].

١٩ – ٤: المتكأ

«الواو والكاف والحرف المعتل: أصل يدلُّ على شَدّ شيء وشِدّة منه

(١) في ظلال القرآن: ١٣ / ٨٤، ٨٥.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ١٤ / ٢٦٩.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨ / ١٩٠.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ١٥٧.

(٥) ينظر: التبيان: ٦ / ١٦٥.

(٦) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٦٠٩.

الوِكاء: الذي يُشَدُّ به. ومن الباب توَكَّأتُ على كذا، أي أتكأتُ، لأنه يتشدَّدُ به ويَتقوى به، وأوكأت فلاناً إيكاءً: نصبت له متّكأً»[1]. وقال ابن دريد: «اتكأت أتكأ والاسم التُّكاة وهذه التاء قلبت من الواو»[2]، وقد ذكر الفراهيدي: «إن أصل المتكأ من الواو وأصله: مُوتكأ فحولّوا الواو تاءً وأدغموها في التاء فشدّدوها وثقلوها»[3]، ويقال طعنه فأتكاه: أي ألقاه على هيئة المتكئ[4]، إلا أن الزمخشري قال بأنه حينما نقول جاء يَتوّكأ على هراوته أي يتحامل عليها، ورأيته متكأ على وسادة وسويت له متّكأ ورجلٌ تكأَةٌ: كثير الاتكاء ومن المجاز: ضربه فأتكأه: ألقاه على هيئة المتكئ ومنه: ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ (يوسف: ٣١) لأن من دعوته أعددت له تُكاةً»[5]، وقد أشار ابن منظور إلى أن المُتَّكِئ في العربية كل من استوى قاعداً على وطاء متمكناً والعامة لا تعرف المُتكئ، إلا من مال في قعوده معتمداً على أحد شقَّيْهِ. وأصله من الوِكاء، وهو ما يُشَدُّ به الكيس وغيره، كأنه أوْكأ مقعدتَه وشدّها بالقعود على الوطاء الذي تحته[6] وقد ذكر أيضا أن المتكأ هو ما يجلس عليه للاتكاء، وقيل أيضا: كرسي منجدٌ له ذراعات وظهر[7] وقد وردت اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ يقال: إنها اتخذت لهنّ مجلساً: ويقال كذلك أن متكأ غير مهموز فسمعت أنه إلا تُرجُ[8]. وهذا ما شار إليه الطوسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ قائلاً: «فالمتكأ يعني الوسادة وهو النمرق الذي يتكأ عليه»[9] وللرازي مسائل في هذه الآية منها:

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥ / ٢٣٨.
(٢) مقاييس اللغة: ٦ / ١٣٧.
(٣) جمهرة اللغة: ٣ / ٢٧٣.
(٤) العين: ٥ / ٤٢٢.
(٥) ينظر: مجمل اللغة: ١ / ٣٣٣.
(٦) ينظر: أساس البلاغة، ص ٦٨٧.
(٧) ينظر: لسان العرب: ١ / ٢٠٠-٢٠١ مادة (مكأ).
(٨) ينظر: المعجم الوسيط: ٢ / ١٠٦٥.
(٩) ينظر: معاني القرآن، الفراء: ٢ / ٤٢.

١. إنها سمعت قولهن

٢ـ أرادت ابداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ، وقال أيضاً أن في اللفظة وجوه منها: الوجه الأول: المتكأ النمرق الذي يتكأ عليه، الثاني: إن المتكأ هو الطعام، وقيل إن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة تسمى متكأ على الاستعارة، الثالث: متكأ أترجا، الرابع متكأ طعام يحتاج إلى أن يقطع بالسكين، لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع، ثم نقول: حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً[١]. وقيل أيضاً: إن في كل مجلس جام فيه عسل وأترج وسكين حاد[٢]. وكما هو معلوم أن المتكأ: محل الاتكاء، والاتكاء: جلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصف الأعلى وإنما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة أكملت الاستراحة أي حضرت لهن نمارق يتكئن عليها لتناول الطعام. وكان أهل الترف يأكلون متكئين كما كانت عادة الرومان، ولم تزل أسرة اتكائهم موجودة في ديار الآثار. وقال النبي محمد (ﷺ) «أما أنا فلا آكل متكأً»[٣]، وبهذا يكشف السياق عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهنّ وكيد من كيدهنّ وهذا من سياق قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ (يوسف: ٣١)... [٤]. وبهذا أوحى سياق الآية من ذكر لفظة (المتكأ) أمرين هما أولا: أرادت امرأة العزيز من وراء إعداد المتكأ للنسوة انتزاع دليل فعلتها التي أفقدتها صوابها ورباطة جأشها في قولها (اخرج عليهن) اقتضى الأمر أن يفقد النسوة صوابهن من الذهول الذي أصابهن عند رؤية يوسف (ﷺ) (فقطعنّ أيديهن) وهذا مجاز من باب المبالغة في شدة الأمر ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا ﴾ (يوسف: ٣١) عندئذٍ قالت امرأة العزيز

---

(١) التبيان: ٦ / ١٣١.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨ / ١٢٩-١٣٠.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ١١٨.

(٤) صحيح بن حبان: ١٢ / ٤٤.

مطلبها الذي في نفسها فقالت: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ (يوسف: ٣٢) ثم أقرت بذنبها، والأمر الآخر: هو مشيئة الإرادة الإلهية التي كشفت النقاب عن حقيقة شاء لها أن تظهر براءة يوسف (ﷺ) على لسان من اتهمه بها، وذلك بتسخير امرأة العزيز لتهيأة المتكأ لتقر بذنبها في سياق قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ (يوسف: ٣٢) وهذا يرتبط ضمنياً مع آخر السورة عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف: ٥١) .

١٩ – ٥: المثقال

للجذر (ثقل) أصل واحد يتفرع منه كلمات متقاربة وهو ضد الخفة ولذلك شمي الجنُّ والإنس الثَّقلَين لكثرة العدد وإثقال الأرض كنوزها في قوله تعالى ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ ﴾ (الزلزلة: ٢) ويقال هي أجساد بني آدم. قال الله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ (النحل: ٧) أي أجسادكم ويقال أرتحل القوم بثقلتهم أي بأمتعتهم، وأجدُ في نفسي ثقله، والقياس واحد[١] وجمع الثقل أثقال ... ومثقال كل شيء ما وازى وزنه[٢] أما الفراهيدي فقد قال أن المثقال وزن معلوم قدره. ومثقال الشيء: ميزانه من مِثلة[٣]، وهذا أيضا ما ذهب إليه الجوهري بقوله «إن الثِقْلُ: واحد الأثقال، ومنه قولهم: أعطه ثِقلهُ أي وزنَه، والمِثقال: واحد مَثاقيل الذهب. وقيل: دينار ثاقِلٌ إذا كان لا ينقص. ودنانير ثَواقِل»[٤]. ومن المجاز: «ثقل سمعي، وثَقُل عليّ كلامك وأنت ثقيل على جلسائك. وما أنت إلا ثقيل الظل ما بارد النسيم، وأخذتني ثَقْلَه وهي النَعسة الغالبة»[٥]. والمثقال أيضاً: «مثقال الشيء

(١) ينظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن: ٢ / ٢٣١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ١ / ٣٨٢.

(٣) ينظر: جمهرة اللغة: ٢ / ٤٨.

(٤) ينظر: العين: ٥ / ١٣٦-١٣٧.

(٥) الصحاح: ٤ / ١٦٤٧.

مثله في الوزن وفي الموازين. وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع درهم. جمع: مثاقيل»[١]. وقد ورد اللفظ - مثقال - في ثمانية مواضع من القرآن الكريم[٢]. وبوصفه أداة يمكن الانتفاع منها ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ (الأنبياء: ٤٧) والمثقال هنا هو وزن الحبة فمعنى الكلام: إن كان عمل الخير بقدر مثقال حبة من خردل أي وزن خردل لا تضيع عند الله، أي معناه: أنه لا يضيع لديه قليل الأعمال والمجازاة عليه طاعة كانت أو معصية[٣].

وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ ﴾ (الزلزلة: ٧)قال المفسرون: «من يعمل في الدنيا مثقال ذرة من الخير أو الشر يره، وفي معنى هذه الرؤية: قولان: أحدهما: أنه يراه في كتابه، والثاني: يرى جزاءه»[٤]، وهذا أيضاً ما ذهب إليه الصابوني بقوله «فمن يفعل من الخير زنة ذرة من التراب يجده في صحيفته يوم القيامة ويلق جزاءه عليه. وكذلك من يفعل من الشر زنة ذرة من التراب، يجده كذلك ويلق جزاءه عليه...، وهو مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة»[٥]. وكذا في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ (يونس: ٦١) ولسيد قطب إشارة إلى أننا نجد الخيال يسبح مع الذرات السابحة في الأرض أو في السماء، أو معها علم الله، ومع ما هو أصغر من الذرة وأكبر محصوراً في علم الله[٦]، ومعنى الآية على العموم هو ما يغيب ويخفى عنه تعالى أصغر شيء في الوجود والإمكان. (والمِثقَال): ما يوازن الشيء[٧]. وقد ذكر اللفظ أيضاً في سورة النساء ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... ﴾ (النساء: ٤٠) وقد أوضح القرطبي معنى قوله تعالى بقوله «كأنه قال: إن الله لا يظلم

(١) أساس البلاغة: ٧٤.

(٢) المصطلحات العسكرية: ١ / ١٢٥.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ١٥٩.

(٤) ينظر: التبيان: ٧ / ٢٢٤ -٢٢٥.

(٥) زاد المسير في علم التفسير: ٩ / ٢٠٤-٢٠٥.

(٦) صفوة التفاسير: ٣ / ٥٩١.

(٧) ينظر: في ظلال القرآن: ١١ / ٤٥٠.

في هذه الحالة مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها فيرغب بذلك في الإيمان والطاعة، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (مثقال) مفعال من الثقل يقال: هذا على مثقال هذا أي وزن هذا، ومعنى (مثقال الذرة) أي ما يكون وزنه وزن ذرة، واعلم أن المراد من الآية أنه تعالى لا يظلم قليلاً ولا كثيراً ولكن الكلام خرج على أصغر ما يتعارفه الناس يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ (يونس: ٤٤)، مع العلم أن المراد من هذه المضاعفة ليس هو المضاعفة في المدة لأن مدة الثواب غير متناهية، وتضعيف غير المتناهي محال، بل المراد أنه تعالى يضاعف بحسب المقدار، مثلاً يستحق على طاعته عشرة أجزاء من الثواب فيجد له عشرين جزءاً، أو ثلاثين جزءاً، أو أزيد "[1]. وكما هو متعارف بأن - المثقال - هو أداة يوزن بها أي ما يسمى بالعرف الاجتماعي (العِيار) إلا أنه في الاصطلاح القرآني كان الإشارة الواضحة إلى محاسبة العبد مستقبلاً على كل شيء فعله مهما كان هيناً بالثواب أو العقاب.

١٩ - ٦: المشكاة

للجذر (شكو) أصل واحد يدل على توجع من شيء، فالشكو المصدر، شكوته [شكواً] شكاةً وشكايةً... والشكيّ: الذي يشتكى وجعاً[2]. ومنه أيضاً الشَّكْوَةُ: «وعاء من آدم للماء كأنه الدَّلْو يُبرّد فيه الماء والجميع: الشكاء. والمِشكاة: طُوَيْقٌ صغير في حائط على مقدار كُوّة. إلاّ أنها غير نافذة»[3]. وقال الزمخشري: «شكوت إليه واشتكيت وتشكيت ورأيتُ معه رَكوْة وشكوْة وهي سقاء صغير. وكأنه مصباح في مشكاة وهي طُوَيْق في الحائط غير نافذ»[4] وقيل: إن المشكاة: «الكُوّة بلسان الحبشة، وكل كوة غير نافذة فهي مشكاة»[5]. ومما تبين أن المشكاة في كلام

(١) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٢٨٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ١٠٥-١٠٧.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٢٠٧.

(٤) العين: ٥ / ٢٨٨-٢٨٩.

(٥) أساس البلاغة: ٣٣٦.

العرب وبلسان أهل الحبشة هي: الكوة التي لا منفذ لها، إذا قيل: كيف جاز أن تخاطب العرب بذلك مع قوله تعالى... ﴿ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣) بالضم وبالكسر ﴿ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (الشعراء: ١٩٥) فالجواب أنه جائز اتفاق الاسم الواحد في نعتين. لا ينكر مثل ذلك فيما يقع الوفاق، فقد يقع الوفاق في الأبيات بين الشاعرين، فلا ينكر ذلك ومثله الوفاق بين أهل اللسانين، ويجوز أن تكون المشكاة من جملة ما عربته العرب من اللغات فغيرته ونطقت به فصار كلغتها[١]، وكذلك «فإن المشكاة هو ما يُحمَل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح»[٢]. وقيل: إنها في العراق تسمى بالرازونة[٣]. وقد وردت لفظة (المشكاة) في موضع واحد من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور: ٣٥) ويذكر الطوسي أن الله منور السموات وينبغي أن يوجه ضرب المثل بالمشكاة على أن ذلك مثل من في مقدوره ثم تنبث الأنوار الكثيرة عنه وهكذا ضرب الله تعالى المثل لنوره الذي هو هدايته في قلوب المؤمنين بالمشكاة وهي الكوة التي لا منفذ لها إذا كان فيها مصباح[٤].

وقد ذكروا في المشكاة وجوهاً غير أنها الكوة في الجدار، ومن هذه الوجوه المشكاة: «القائم الذي في وسط القنديل الذي يدخل فيه الفتيلة، (والوجه الثاني) قيل: هي هاهنا قصبة القنديل من الزجاجة التي توضع فيها الفتيلة (والثالث) إنها الحلقة التي يعلو بها القنديل، والأول هو الأصح»[٥]. وبهذا فإن الله سبحانه أراد تشبيه نوره الذي يلقيه في قلب المؤمن ممثلاً بمصباح بوضعه في مشكاة وهي الطاقة غير النافذة وكونها لا تنفذ؛ لتكون اجمع للتبصر[٦]وقد أشار سيد قطب إلى أن هذه الأوصاف هي «مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود، أي مثل

---

(١) المُعَرب من الكلام الأعجمي: ٣٥١.

(٢) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن: ١٦٤.

(٣) المعجم الوسيط: ١ / ٤٩٤.

(٤) ينظر: الآلة والأداة: ٣٦٤.

(٥) ينظر: التبيان: ٧ / ٣٨٧.

(٦) مفاتيح الغيب: ٢٣ / ٢٣٦.

يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسير. ومن عرض السماوات والأرض إلى المشكاة يوضع فيها المصباح، فتحصر نوره وتجمعه فيبدو قوياً متألقا»[١]. وهكذا يوحي السياق إلى أن المعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة. وإن كان نور الله أعظم لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به مثل[٢] ومما هو ملاحظ إن هذا التدرج في العرض الصوري لأوصاف النور والكيفية المقربة للنور الذي عم السماوات والأرض إنما تقريب الوصف بين النور (الهِداية): التي هي بالإدراك بهذا الجزء المحسوس (المشكاة)، ولتعميق أثر الموصوف الذي يظهر حقائق ما خفي عن الإنسان، وتظل الصلة وثيقة - بين وجوه الحق - الجمال لأن كل ما خلق ويخلق دال على ذلك لأنه يستمد حقيقته وجماله من خالقه[٣].

هكذا تبين لنا أن أداة المشكاة التي تنبث الأنوار عنها حينما يوضع فيها القنديل أو المصباح مثلها القرآن بنور الله المُلقى في قلوب المؤمنين ووضوح صفة هذا النور كصفة مشكاة فيها مصباح، بالرغم من إننا نعلم بأن نور الله أعظم من مشكاة فيها مصباح إلا أنه ذُكِر تمثيلاً لأن ذلك مما يدركه الناس.

١٩ - ٧: المصباح - المصابيح

للجذر (صبح) أصل واحد مطردّ، وهو لون من الألوان قالوا أصله الحُمْرة. وقالوا: سُمِّيَ الصُّبح صُبحاً لحُمرته كما سُمي المِصبَاح مِصباحاً لحُمرته... والمِصباح: الناقة تَبرك في معْرسها فلا تَنبعثُ حتى تُصْبِح، والتَّصبّحُ النوم بالغداة[٤]. والمصباح: «السراج بالمِسرَجة، والمِصباح: نَفْسُ السراج وهو قُرْطهُ الذي تراه في

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٤٢٣.

(٢) في ظلال القرآن: ١٨ / ١٠٥.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير: ٢ / ٣٤٠.

(٤) ينظر: القيم الجمالية في السور المكية: ٣٢.

القنديل وغيره، والمصابيح من النجوم: أعلام الكواكب، الواحد مصباح»[١]، والمصابيح: (الاقداح التي يصطبح بها»[٢]، قال ابن سيده: «قد استصبحتُ بالمصباح وزَهَا السِّراج - أضاء وزها هو نفسه»[٣]. إلا أن الرصافي قال: أن المصباح يعني: السِراج، والسنان العريض، والقَدَحَ الكبير يصطبح به جمعه مصابيح[٤]، وقيل «مصابيح السماء: نجومها قال تعالى: ﴿ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (فصلت: ١٢)... [٥].

وردت اللفظة أفرداً وجمعاً في أربعة مواضع من القرآن الكريم[٦]، وهي في القرآن الكريم على وجهين: فوجه منهما: المصباح الكوكب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك: ٥) يعني النجوم ومثلها في سورة الصافات: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۞ ﴾ (الصافات: ٦) الثاني: المصباح السراج، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ ﴾ (النور: ٣٥) يعني السراج في القنديل[٧].

وقد وردت لفظة المصباح بوصفها آلة وأداة في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ ﴾ (النور: ٣٥) وقال الطوسي: المصباح هنا هو «السراج ويكون المصباح في زجاجة فيوصف المصباح بقوله (يوقد من شجرة مباركة) أي يشتعل من دهن شجرة مباركة وهي الزيتونة

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣ / ٣٢٨.

(٢) العين: ٣ / ١٢٦.

(٣) الصحاح: ١ / ٣٧٩-٣٨٠.

(٤) المخصص: ٣ / ٣٨ _ ٣٩ (السفر الحادي عشر).

(٥) ينظر: الآلة والأداة، ص٣٦٥.

(٦) المعجم الوسيط: ١ / ٥٠٧-٥٠٨.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٦٩.

الشامية»[١]. وهذا أيضاً ما أشار إليه الرازي في قوله بأن المصباح هنا: يعني السراج وأصله في الضوء ومنه الصبح[٢]. إلا أن القرطبي قال أن المصباح هنا يعني الفتيل بنارهِ[٣]. فبهذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أراد تشبيه نوره الذي يلقيه في قلب المؤمن فمثّله بمصباح، ثم لم يقنع بكلّ مصباح، بل المصباح اجتمعت فيه أسباب الإضاءة، بوصفه في مشكاة، وهي الطاقة غير النافذة، وكونها لا تنفذ، لتكون اجمع للتبصرّ، وقد جُعلَ فيها مصباح في داخل زجاجة فيه الكوكب الدري في صفائها. ودُهن المصباح من أصفى الأدهان وأقواها وقوداً، لأنه من زيت شجر في أوسط الزجاج لا شرقية ولا غربية، فلا تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل تصيبها الشمس اعدل إصابة. وهذا مثل ضربه الله للمؤمن[٤]. كذلك قيل «يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد نورا على نور، وهدى على هدى، ولذلك قيل: قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له»[٥]. وقد وردت اللفظة (بصيغة الجمع) وبدلالة مغايرة للآية السابقة الذكر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك: ٥) فالمصابيح في هذه الآية تعني: «الكواكب - أي زَيَّن السماء وحسنها وجعلها أي السماء الدنيا بالمصابيح، يعني الكواكب وسميت النجوم مصابيح لإضاءتها»[٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا ﴾ (الملك: ٥) أي «جعلنا شُهُبَهَا، فحذف المضاف ودليله: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝ ﴾ (الصافات: ١٠) .

وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها، وقيل: «أن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من أنفس الكواكب، ولا يسقط الكوكب نفسه وإنما

(١) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٧٢.
(٢) التبيان: ١٠ / ٥٩.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٣ / ٢٣٦.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٢ / ١٧٠-١٧١.
(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٤٢٣.
(٦) من أدب القرآن: ٧٤.

ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوءه ولا صورته»[١]. وقد أوضح الطوسي أن الله تعالى خلق النجوم لثلاث خصال: أحدها: زينة السماء، وثانيها: رجوماً للشياطين، وثالثها: علامة يهتدى بها. فعلى هذا يكون تقديره[٢]، وقد أوضح أيضاً سيد قطب اختيار لفظة المصابيح لتزين السماء الدنيا بقوله: «وما السماء الدنيا؟ لعلها هي الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن، ولعلَّ المصابيح المشار إليها هنا النجوم والكواكب الظاهرة للعين، التي نراها حين ننظر إلى السماء، فلذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر في السماء، وما كانوا يملكون إلا أعينهم، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء... والنص القرآني هنا أيضاً يذكر أن هذه المصابيح التي زين الله السماء الدنيا بها هي كذلك ذات وظيفة أخرى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الملك: ٥)... ونحن نؤمن أن هناك خلقاً اسمهم الشياطين، وردت بعض صفاتهم في القرآن، فلا يمكن أن نزيد عليها شيئاً ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصابيح التي تزين السماء الدنيا رجوما للشياطين، في صورة شهب كما جاء في سورة أخرى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ ﴾ (الصافات: ٧) و ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝ ﴾ (الصافات: ١٠) لكن كيف؟ من أي حجم؟ وفي أي صورة؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئاً، وليس لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه في مثل هذا الشأن، فنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه، وهذا هو المقصود ... فالرجوم في الدنيا وعذاب السعير في الأخرة لأولئك الشياطين. وعلى هذا فالعلاقة بين الشياطين والذين كفروا علاقة ملحوظة، فلما ذكر مصابيح السماء ذكر اتخاذها رجوما للشياطين، ولما ذكر ما أُعدّ للشياطين من عذاب السعير ذكر بعدها ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين[٣]. ومثيل اللفظة في قوله تعالى: ﴿ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (فصلت: ١٢) ودلالتها أيضاً تعني الكواكب المضيئة. وقيل: إن في كل سماء

---

(١) التبيان: ١٠ / ٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ١٣٧-١٣٨.

(٣) ينظر: التبيان: ١٠ / ٥٩.

كواكب تضيء، وهذه الكواكب مختصة بالسماء الدنيا، وقوله (حفظاً) أي حفظناها حفظاً، أي من الشياطين الذين يسترقون السمع، وهذا الحفظ يكون بواسطة الكواكب التي ترجم بها الشياطين[١].

ومما هو مؤكد أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وخلق في كلّ منها ما اقتضت حكمته أن يكون فيها من الملائكة والنَيِّرات أي النجوم والكواكب، ومما لا يعلمه إلا الله تعالى[٢]. وبهذا تتبين دلالة المصباح في الاصطلاح القرآني بأنه يحمل معنيين، معنى قريب كونه السراج الذي يستضاء به متمثلاً بنور الله الذي يلقيه في قلب المؤمن فيكون كالسراج التي تبعث منه الأنوار، ومعنى بعيد، كونه نجم في السماء اتخذ لوظائف معينة أحدها زينة السماء، وثانيها رجوماً للشياطين المتمثل بالشُهب، وثالثها: علامات يهتدى بها.

«وبهذه القوة البيانية والبراعة الفائقة على التصوير اللتين يتمتع بهما التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم كان خير أداة للكشف عن مكنونات النفس البشرية وما تبطنه من الأمور التي يدركها خالقها»[٣].

١٩ - ٨: المعارج

للجذر (عرج) ثلاثة أصول: الأول: يدلُّ على مَيْل وميل والآخر على عدد، والآخر على سمو وارتقاء والعروج الارتقاء، يقال عَرج يُعرُج عُروجاً ومَعْرَجاً، والمَعْرَج: المَصْعَد. قال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾(المعارج: ٤)... [٤]، وقيل: «عَرَج في الدرجة والسلّم يعْرج عُروجاً إذا ارتقى، وقيل أيضا عَرَج، إذا أصابه شيء في رجله فخمع ومشى مِشْيَة العرجان وليس بخلْقِة، فإذا كان ذلك خِلقَة قلت: عَرِج بالكسر فهو أعرج، والعَرجان بالتحريك: مِشية الأعرج»[٥]. وقد

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ١٨٨، ١٩٠.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ٢٢٥.
(٣) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٦٠٦.
(٤) الجمان في تشبيهات القرآن، عدنان مهيدي: ٦٨.
(٥) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٣٠٢-٣٠٤.

ذهب ابن سيده إلى أن المَعْرَج يعني المصعد، والمِعراج: شبه سلم تعرج فيه الأراوح إذا قُبِضت وقيل: حيث تصعد أعمال بني آدم[1]والعروج ذهاب في صعود وقد ذهب الراغب الأصفهاني إلى أن ليلة المعراج سميت لصعود الدعاء أشار إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ (فاطر: ١٠).. [2] وقيل: «الشرف بعيد المدارج رفيع المعارج ومررتُ به فما عرّجتُ عليه، وانعرج بنا الطريق، ومنه العرجون وهو أصل الكياسة سُمّي لانعراجه»[3]، وقد ذكر ابن منظور أنه يقال: «للطريق إذا مال: فقد نعرج وعَرَجَ في الدرجة والسّلم يعرج عُروجاً أي ارتقى، وعرج في الشيء وعليه يَعْرج ويَعْرُجُ عُروجاً أيضاً: رَقي وعَرَج الشيء فهو عريج: ارتفع وعلا، وفي التنزيل: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ (المعارج: ٤) أي تصعد وقيل: ولو جمع على المعَاريج لكان صواباً. فأما المعارج فجمع المعْرَج. ومنه ليلة المِعْراَج، والجمع مَعارج ومَعاريج مثل مَفاتح ومفاتيح»[4]. وقيل أيضا: إن ورود المعراج في القرآن بمعنى الظلوع في المشي، والصعود[5]، وقد ذكرت اللفظة في موضعين من القرآن الكريم[6]، في قوله تعالى: ﴿ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾(الزخرف: ٣٣) .

فالمعارج في هذه الآية تعني: «الدّرج، وهذا الدّرج هو من فضة»[7]، وقد أشار الرازي إلى قوله تعالى: «أنه لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لاعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم (أحدها) أن يكون سقفهم من فضة (وثانيها) معارج أيضاً من فضة عليها يظهرون (ثالثها) أن

(١) الصحاح: ١ / ٣٢٨.
(٢) ينظر: المخصص: ١ / ١٣٤.
(٣) ينظر: المفردات: ٤٩٣.
(٤) أساس البلاغة: ٤١٣.
(٥) لسان العرب: ٢ / ٣٢٠-٣٢١، مادة (عرج).
(٦) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٢٠٥.
(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٥٦.

نجعل لبيوتهم أبوابا من فضة وسرراً أيضاً من فضة عليها يتكئون»[١]، وهذا أيضاً ما أشار إليه ابن كثير في تفسيره فقال: «هي سلالم ودَرج من فضة، (عليها يظهرون) أي يصعدون»[٢]، إلا أن ابن عاشور ذكر أن معنى القول: إن كل ما ذكر من السقف والمعارج وغير ذلك من الفضة والذهب متاع الدنيا لا يعود على من أعطِيه بالسعادة الأبدية. فقد ادخرها الله. للمتقين وليست كمثل البهارج والزينة الزائدة التي تصادف مختلف النفوس وتكثر لأهل النفوس الضئيلة الخسيسة[٣]. وكذلك فقد ورد اللفظ في قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ ﴾ (المعارج: ٣) فقد فسر الطوسي معنى قوله تعالى بأن المعارج هي مصاعد الملائكة، وقيل: معناه ذي الفواضل العالية، فيكون وصفاً لله تعالى، وتقديره من الله ذي المعالي التي هي الدرجات التي يعطيها أولياءه من الأنبياء والمؤمنين في الجنة، لأنه يعطيهم درجات رفيعة ومنازل شريفة، والمعارج مواضع العروج، واحدها معرج[٤]. إلا أن الرازي يفسر قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ ﴾ ذاكراً أن المعارج هنا تعني الأرواح المختلفة التي هي كالمصاعد لارتفاع مراتب الحاجات من هذا العالم، وكالمنازل لنزول أثر الرحمة من ذلك العالم إلى ما هاهنا[٥]، ولسيد قطب إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾، تعني التعبير عن التعالي والرفعة كما قال في السور الأخرى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ (غافر: ١٥)... [٦].

وهكذا يوحي السياق القرآني للفظة (المعارج) بأنها كانت كناية عن تكاثر الخير وترقية لدى الفرد المؤمن جزاء على فعل الخيرات، فضلاً عن وظيفة المعارج المعروفة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٧ / ٣١٣.
(٢) مفاتيح الغيب: ٢٧ / ٢١١-٢١٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١٥٩.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥ / ٢٠٧.
(٥) ينظر: التبيان: ١٠ / ١١٤.
(٦) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٠ / ١٢٢.

١٩ - ٩: المفاتح

للجذر (فتح) أصل يدل على خلاف الإغلاق يقال فتحت الباب وغيره فتحاً، ثم يحمل هذا سائر ما في هذا البناء، والفَتْح والفُتاحة: الحُكمْ والله تعالى الفاتح، أي الحاكم والفَتح: الماء يَخرُج من عينٍ أو غيرها، والفَتحْ: النَّصر والأظفار، وفواتح القرآن: أوائل السُّوَرْ[1] وقال الجوهري: «فَتَحْتُ الباب فانفتح، والمِفتاح: مِفتاحُ الباب وكل مستغلق، والجمع مفاتيح ومَفَاتِح أيضاً»[2]، وقيل أيضا: «والمِفْتَح والمِفتاح ما تَفتَحه به وهو الأقليد، والجمع المَقاليد على غير قياس»[3]، ومن المجاز: «فُتَح على فلان إذا جُدَّ وأقبلت عليه الدنيا، وفتح الله عليه نصره، وإن استفتح الله للمسلمين على الكفار، وفتح الله عليهم فُتوحاً كثيرة إذا أمطرهم أمطارا، وأصابت الأرض فُتوح، ويومٌ منفتح بالماء، وفتح المسلمون دار كفر، وبينهم فُتاحات أي خصومات»[4]، وقال ابن منظور أن المفتاح يعني مفتاح الباب وكل ما يُفتَح به الشيء[5]، وعلى هذا ذهب الكفوي قائلاً: «المفتاح آلة الفتح كالمفتح، والمفاتح جمع مِفتح بالكسر: وهو الآلة التي يفتح بها أو جمع (مَفتح) بفتح الميم وهو المكان لا جمع (مفتاح) إذ لو كان كذلك ينبغي أن تقلب ألف المفرد ياء فيقال: مفاتيح»[6]. وردت اللفظة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[7]، ففي قوله تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ٥٩) وقيل إن المِفتح عبارة عن كل ما يَحُل غَلَقاً، محسوساً كان كالقُفْل على البيت أو مقبولاً كالنظر، وروي عن الرسول (ﷺ) قال: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويل

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٢٧٦.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٤ / ٤٦٩-٤٧٠.

(٣) الصحاح: ١ / ٣٨٩.

(٤) المخصص: ١ / ١٣٢ (السفر الخامس).

(٥) أساس البلاغة: ٤٦١.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٢ / ٥٣٧ مادة (فتح).

(٧) الكليات: ٣ / ٨٦٧ وينظر: المصطلحات العسكرية: ٢ / ٥٦١.

لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه»[١]، وقد أشار القرطبي إلى أن لفظة (مفاتح) في هذه الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس افتح علي كذا، أي أعطني أو علّمني ما أتوصل إليه به، فالله تعالى عنده علم الغيب وبيده الطرق الموّصلة إليه، لا يملكها إلا هو فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه، ولا يكون ذلك من إفاضته إلاّ على رسله؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)... [٢]، وهذا أيضاً ما ذهب إليه ابن عاشور في قوله تعالى (مفاتح الغيب) إلا أن (مفاتح) هنا: «استعارة تخييلية تنبني على مكنية بأن شبهت الأمور المغيبة عن الناس بالمتاع النفيس الذي يدخر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال بحيث لا يعلم ما فيها إلا الذي بيده مفاتحها... والقرينة في إضافة المفاتح إلى الغيب، فقوله: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ (الأنعام: ٥٩) بمنزلة أن يقول: عنده علم الغيب الذي لا يعلمه غيره»[٣]. وقد ذكر اللفظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ (النور: ٦١) ومعنى ما ملكتم مفاتحه هو الوكيل وما جرى مجراه. وقيل أيضاً: هو ما ملكه الرجل نفسه من بيته[٤]، وهناك من قال: «هو خادم الرجل من عبدٍ وقَهْرَمان، فلا بأس أن يأكل كل ممّا استودعه من الطعام بالمعروف. وعن عروة عن عائشة (﵂) قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع الرسول (ﷺ) فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَنائِهم، ويقولون: قد أحللنا لكُم أن تأكلوا مّما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يُحل لنا أن نأكل؛ إنهم أذنوا لنا من غير طيب أنفسِهم، وإنما نحن أُمناء. فأنزل الله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾... »[٥]. وكذا

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥١١.

(٢) سنن ابن ماجة: ١ / ٦٨.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧ / ٣.

(٤) التحرير والتنوير: ٧ / ٢٧٠-٢٧١.

(٥) ينظر: التبيان: ٧ / ٤١٠.

اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ ﴾ (القصص: ٧٦) فقد أشار الرازي إلى أن في الآية قولين: أحدهما المراد بالمفاتح المفاتيح، وهي التي يفتح بها الباب، وقالوا كانت من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع، وكان لكل خزانة مفتاح[1]. ومن الناس من طعن في هذا القول بحجة مال الرجل لا يبلغ هذا المبلغ، فأي حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح، وكذلك فإن الكنوز من الأموال المدخرة في الأرض، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح، ولكن يجوز القول: أن المال إن كان من جنس العروض، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد...

وهناك قول آخر هو أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد، ومعنى الآية بصورة عامة المراد آتيناه من الكنوز ما أن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولي القوة والهداية، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها[2]، إلا أن سيد قطب أشار إلى أن مفاتح هذه الكنوز تعني «المجموعة من أقوياء الرجال»[3]. وكما هو معروف بأن (مفاتح) هي الآلة التي ينتفع بها إلا أنها تتحول في الاصطلاح القرآني إلى دلالة أكثر عمقاً من كونها آلة لفتح كل مستغلق، وإنما هي الأسرار الخاصة بعلمه فقط، وهي المستحيلة علينا حتما، مثلما يستحيل علينا تشبيهها بالمفاتيح التي تحفظ كنوزنا ومدخراتنا الثمينة.

١٩ – ١٠: المقاليد

للجذر (قلد) أصلان صحيحان يدلُّ أحدهما على تعليق شيء على شيء وليِّه به، والآخر على حَظٍ ونصيب، فالأول التقليد: تقليد البَدَنة وذلك أن يعلق في عنقها شيء ليُعلم أنّها هَدي، وأصل القَلْد: الفتل يقال: قَلَدت الحبل أقلِدُه قَلْداً، إذا فَتَلَته، وحبل قليد ومقلود وتَقَلّدت السيف ومُقَلّدُ الرَّجُل: موضع نجاد السيف على

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٤٠٨.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٥/ ١٤.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٥ / ١٦.

مِنكَبه»[١]، والقَلْد: «إدارتُك قلْباً على قلْب من الحلِي ولو دققت حديدة ثم لويتها على شيء فقد قلَّدتها، والإقليد: المفتاح، يمانية، والمِقلاد: الخِزانة، ويجمع مقاليد»[٢]، وقد ذهب ابن منظور إلى أن المِقْلَدُ: عصاً في رأسها اعوجاج يُقلد بها الكلأ، والمِقْلَدُ: المنجَلُ يقطع به»[٣]، وقيل: «إن المقلاد ما يحيط بالشيء أخذاً من القلادة التي تتضمن معنى الإحاطة، وأما قولهم بأن معنى المقلاد المفتاح ربما يكون هذا من قبيل المجاز المرسل لعلاقته اللزومية، لأن الخزان والمفتاح متلازمان غالباً»[٤]، ويقال أيضاً: «المِقْلِيدُ: الْمِفتَاحُ: فارسي معربٌ لغةٌ في (الإقليد) والجمع مقاليد والمقاليد كلمة قرآنية وهي عربية خالصة... »[٥]، وعلى هذا فإن المِقْلَدُ يعني: «المكيال والمِنْجلُ والمفتاح»[٦]. وردت لفظة المقاليد في موضعين من القرآن الكريم[٧]، في قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر: ٦٣) فقد ذهب الرازي في تفسيره للفظة المقاليد في هذه الآية إلى أن المعنى المعلوم أنه سبحانه وتعالى مالك أمر السماوات والأرض وحافظها، وهو من باب الكناية، لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت مقاليد الملك إليه وهي المفاتيح[٨]، وأشار القرطبي أيضا إلى: إن مقاليد تعني: «خزائن السماوات والأرض، وقال غيره: خزائن السماوات والمطر، وخزائن الأرض النبات، وفيه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد، والإقليد كما ذكرنا يعني المفتاح، والمِقلد أيضاً مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلأ»[٩].

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٠/ ٣٧٣.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٩ –٢٠.
(٣) العين: ٥ / ١١٦-١١٧.
(٤) ينظر: لسان العرب: ٣ / ٣٦٥، مادة (قلد).
(٥) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٤١٧.
(٦) المعرب: ص ٣٦٢.
(٧) المعجم الوسيط، ٢ / ٧٦٠.
(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٥١.
(٩) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧ / ١٢.

وعن ابن عمران عثمان بن عفان (ﷺ) سأل رسول الله (ﷺ) عن تفسير قول الله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر: ٦٣) فقال رسول الله (ﷺ): «ما سألني عنها أحد، لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده استغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[١] ومن قالها أعطاه الله ست خصال: أولها يحرس من إبليس، والثانية يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطاراً من الأجر، والرابعة ترفع له درجة، والخامسة يزوجه الله من الحور العين، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضاً أجر كمن حج واعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيداً، وقيل: المقاليد تعني طاعة مثلما يقال ألقى فلان مقاليد أي طاعة فيما يأمره، فمعنى الآية له طاعة من في السماوات والأرض[٢]. وقد أشار الراغب الأصفهاني في قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى أن لفظة (مقاليد) في هذه الآية تعني ما يحيطها، وقيل: خزائنها، وقيل أيضاً: مفاتيحها، والإشارة بكلها إلى معنى واحد وهو قدرته تعالى عليها وحفظه لها[٣] ومثيل اللفظ في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الشورى: ١٢) وقيل: إن مقاليد هنا تعني مفاتيح الرزق من السماوات والأرض، فمقاليد السماوات المطر ومقاليد الأرض النبات[٤]. وعلى هذا فدلالة المقاليد في الآية هي نفس دلالة اللفظ في (الزمر)، وقيل: إن الذي يملك المفاتيح يملك الخزائن[٥]. أي يملك كل ما يحيط بالسماوات والأرض وهذا كله يشير إلى قدرة الله عليها وحفظه لها[٦]. وبعد الاطلاع على آراء المفسرين للفظة (المقاليد) نرى أنها مفاتيح وخزائن كناية عن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ١٧٩.

(٢) مجمع الزوائد: ١٠ / ١١٥.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ١٧٩.

(٤) ينظر: المفردات: ٦٢١.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧ / ١٥٥.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ٨.

المُلك، وبهذه المفاهيم يحيلنا السياق القرآني إلى أن لفظة (المقاليد) تعني الزعامة المطلقة للخالق جلّ وعلا على جميع خلقه، فإذاً هو المالك للحقوق كافة، وفيما عدا ذلك لا يندرج أي علم سوى باقتباس فضل علمه المطلق.

١٩ - ١١: المقامع

للجذر (قمع) أصول ثلاثة صحيحة: أحدها: نزول شيء مائع في أداة تَعْمَل له، والآخر إذلال وقهر، والثالث: جنس من الحيوان...، فالأول القِمَعُ معروف، وفي الحديث «ويل لأقماع القول»[١]، وهم الذين يسمعون ولا يعون، فكأن آذانهم كالأقماع التي لا يبقى فيها شيء[٢]، ومن هذا المِقْمَعة: وهي مسمار يكون في طرف الخشبة مُعَقَّفُ الرأس[٣] وقيل أيضا المِقمَعَة: «واحدةُ المقامِع من حديد كالمحجن يضرب بها على رأس الفيل»[٤]. ومن المجاز قولنا: «فلان قَمِعُ الأخبار: يتتبعها ويتحدث بها، وتقول ما لكم أسماع إنما هي أقماع، وتركته يتقمّع.. يطرد الذباب من فراغه»[٥]. وقد وردت اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم[٦] في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ ﴾ (الحج: ٢١) وذكر أنهم يطمعون (في الخروج) من النار حتى إذا هموا بذلك ضَربَت الخَزنة رؤوسهم بالمقامع فتخسف رؤوسهم فيصب في أدمغتهم الحميم، فَتصهَر شحوم بطونهم، فذلك قوله في إبراهيم (ﷺ): ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ (إبراهيم: ١٦)... [٧]. ويذكر الطوسي أن المقامع «جمع مقمعة وهي مدقة الرأس قمعه قمعاً إذا ردعه عن الأمر، فالزبانية بأيديهم عمد من حديد يضربون بها رؤوسهم إذا أرادوا الخروج من النار من الغم

(١) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٤١٧.

(٢) مجمع الزوائد: ٥ / ٢٧.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٢٧.

(٤) ينظر: العين: ١ / ١٨٨-١٨٩.

(٥) الصحاح: ٣ / ١٢٧٢.

(٦) أساس البلاغة: ٥٢٣.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٥٣.

الذي يلحقهم والعذاب الذي ينالهم، ردوا بتلك المقامع فيها وأعيدوا إلى حالتهم التي كانوا فيها من العقاب»(١). وقد أشار الزمخشري إلى معنى الخروج: ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً(٢).

وقيل أيضاً: المقامع المطارق، وهي المرازب أيضاً، وفي الحديث «بيد كل ملك من خزنة جهنم مِرْزَبَة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوي بها سبعين خريفاً»(٣)، وقيل كذلك: «سميت سياط لأنها تقمع المضروب، أي تذلّلهُ»(٤)، وبهذا يتصور أمامنا مشهد عنيف وصاخب، حافل بالحركة... هذه ثياب من نار تقطع وتفصل! وهذا حميم ساخن يصب فوق الرؤوس يصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس! وهذه سياط من حديد أحمته النار(٥)، وعلى هذه تكون هذه المقمعة آلة تستعمل في القَمْع عن الشيء والزَّجر عنه(٦). فأنت أمام تصور حالة مأسوية وألم شديد يتشكل في عدم قدرة الكافر على التخلص من واقع مرير ومصير خائب متمثلاً بذكر المقامع الحديدية وتصور المحاولة المستميتة لدفع القيد الحديدي الذي أحكم إطباقه عليهم(٧).

نخلص من كل ذلك أن (المقامع) في الاصطلاح القرآني أداة من أدوات التعذيب ووسيلة من وسائل الإذلال للكفرة الذين يستحقون هذا المصير المرير والمؤلم حقاً والذي تتخيله بصورة أعمدة من حديد يضربون بها ومحاولتهم للتخلص من هذه السياط والأعمدة والقيود، وهيهات ذلك، فالحسرة تلازمهم والألم يعصرهم والقيد يحكمهم بإطباقه عليهم إطباقا لا فرار منه، وبهذا يتبين المصير المؤذي الذي يؤول إليه الكافر الجاحد بأنعم الله تعالى، وبهذا يكون ذكر

---

(١) ينظر: معاني القرآن، الفراء: ٢ / ٢٢٠.

(٢) التبيان: ٧ / ٢٦٩.

(٣) ينظر: الكشاف: ٣ / ١٥٠.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٧ / ٥٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٢ / ٢٠.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن: ١٧ / ٥٨٨.

(٧) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٤٢٦.

هذه المقامع تحذيراً لتجنب هذا المصير المخيف.

١٩ - ١٢: المكيال

للجذر (كيل) ثلاث كلمات لا يُشْبه بعضُها بعضاً فالأولى الكَيل: كيل الطعام يقال: كِلتُ فلاناً أعطيته واكتَلْتُ عليه أخذت منه، قال الله سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾ (المطففين: ١-٣)... [١]. والمِكيالُ: ما يُكال به، ونقول: اكْتَلْتُ من فلانٍ، واكتَلْتُ عليه، وكِلْتُه طعاماً أي: كِلْتُ له[٢]. ومن المجاز: «كايلناهم صاعاً بصاعٍ: كافأناهم. ونقول أيضاً: تكايلوا بالدم، وكايلته في المقال إذا قلت له مثلما يقولُ لك، وقال ذلك مُكايلةً أي مقايسة»[٣]. وقد أشار ابن منظور إلى أن «الكيل والمِكْتَل والمِكْيال والمِكْيَلةُ: ما كيل به، والكيل وزن، والمكيال هو الصاع الذي يتعلّق به وجوب الزكاة والكفارات والنفقات وغير ذلك وهو مقدر بكيل أهل المدينة دون غيرها من البُلدان، وهو مِفْعال من الكَيْل والميم فيه للآلة. وأما الوزن فيريد به الذهب والفضة خاصة لأن حق الزكاة يتعلق بها»[٤] إذاً الكَيلُ: ما يكال به من حديد أو خشب أو نحوهما وما يتناثر من الزَّنْد (جمع) أكيال»[٥]. وقال الرصافي: «والكَيْل - بالفتح - ما يكال به من آلة»[٦]. وقيل إن قيمة المكيال في العراق حجمان: القِسط الصغير ويعادل وزنا قدره (٣) أرطال من السوائل والقسط الكبير كان ضعف الصغير تماماً أي أن سعته ٢,٤٣٣٦ لتر. وفي مصر كان القسط الواحد، فيما يبدو- ١/٢ صاع[٧]. وعلى هذا فالمكيال: «آلة مُعَدة للكيل والجمع

(١) ينظر: القيم الجمالية في السور المكية: ٨٩.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ١٥٠.

(٣) ينظر: العين: ٥ / ٤٠٦.

(٤) أساس البلاغة: ٥٥٤.

(٥) لسان العرب: ١١ / ٦٠٤ - ٦٠٥ مادة (كيل).

(٦) المعجم الوسيط: ٢ / ٨١٤.

(٧) الآلة والأداة: ٣٠٩.

مكاييل»[١]. وقد وردت لفظة المكيال في موضعين من القرآن الكريم[٢]. وبدلالة الآلة المُعَدَّه للكيل والوزن. في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ (هود: ٨٥) .

فقد أشار الطوسي إلى قوله تعالى أن «هنا حكاية ما قاله شعيب (ﷺ) لقومه. وإنه أمرهم أن يوفوا المكيل والميزان بالقسط يعني بالعدل والسوية»[٣]. أما القرطبي فقد فسرَّ قوله تعالى: ﴿ ...وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ ...﴾، ﴿ ...أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ...﴾ (هود: ٨٤-٨٥) أنه المقصود أن يصل كل ذي نصيب إلى نصيبه. وليس يريد إيفاء المكيال أو الموزون لأنه لم يقل: أوفوا المكيال وبالميزان. بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود. وكذا الصّنجات[٤]، إلا أن ابن عاشور بين أن إعادة النداء في جملة (ويا قوم أوفوا المكيال) لزيادة الاهتمام بالجملة والتنبيه لمضمونها، وهو الأمر بإيفاء المكيال والميزان. وهذا الأمر تأكيد للنّهي عن نقصهما والشيء يؤكد بنفي ضده[٥]، وهكذا نكون على علم أن عدم الإنقاص في الكيل والميزان مطلوب، وكذلك إن توفية المكيال والميزان مطلوبة. لأنهما أمرٌ واحدٌ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولاعن الموزون إلا بإطلاقهما، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشتري[٦]. وبهذا يتبين أن «إيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة»[٧]. وقيل أيضاً «إن المراد هنا هو ما يكال من قمح ونحوه وعلى هذا يكون المعنى: لا تبيعوا القمح ونحوه ناقصاً أقل ممّا يستحقه المشتري»[٨]. فقد ذكر القرطبي قائلاً: «إن أهل

---

(١) ينظر: المكاييل والأوزان الإسلامية: ٦٥.

(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ٢ / ١٧٦.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٤٤.

(٤) التبيان: ٦ / ٤٨.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ٥٨.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢ / ١٣٧.

(٧) ينظر: الشعراوي: ١١ / ٦٦٠٣.

(٨) قصص الرحمن في ظلال القرآن: ٣٦٥.

شعيب (ﷺ) كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف. وكانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا، وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص. وشحّوا له بغاية ما يقدرون»[١].

وكل هذا كان نداءً لأهل شعيب (ﷺ) عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان[٢]. وقيل: «ولمّا كانت أعمالهم هذهِ من أكْلِ أموال الناس بالباطل كان من عناصر نُصْحِهِ (ﷺ) في دَعوَته لهم، أن ينهاهم عن النقص في المكيال، وعن النَّقْص في الميزان»[٣]. وعلى هذا فإن الأمر يبدو مفسدة عظيمة لأنه يجمع خصلتي السرقة والغَدْر، ولأن المتكال مسترسل متسلم[٤]. وبهذا تحيلنا آلة - المكيال - في الاصطلاح القرآني إلى دلالة يُراد من ورائها تحقيق الموازنة السوية في اكتيال الأشياء وهذا هو المعيار السوي والمطلوب الذي يرضى به من يخاف الله ويهابه.

١٩ – ١٣: المنسأة

للجذر (نسي) أصلان صحيحان: يدل أحدهما على إغفال الشيء والثاني على ترك الشيء... وقال بعضهم: الأصل في الباب النِّسيان. ونسأتها: ضربتها بالمِنسأة: العصا. وهذا أقْيَسُ لأنَّ العصا كأنّهُ يُعَد بها الشيء ويُدفع ... والنّسيء في كتاب الله: التأخير كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ ﴾ (التوبة: ٣٧)... [٥]، والمِنْسَأةُ: «العصاة لأن صاحِبَها ينسأ من نفسه وعن طريقة الأذى، وبها سميت عصا سليمان (ﷺ): مِنْسَأة»[٦] وقد ذكر الجوهري أن المِنْسأة هي العَصَا

---

(١) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٥٥٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ٥٧.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢ / ١٣٦.
(٤) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٧٥.
(٥) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٥٥٣.
(٦) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٤٢١-٤٢٣.

يُهَمَزُ ولا يُهْمَزُ[١]، وقيل أيضا: «المنسأة: العصا: وهي مِفْعَلة من نسأت الدابة إذا سقتها»[٢]. وهي أيضاً: العصا الغليظة التي تكون مع الرّاعي[٣]. قال الرصافي جمع المِنْسَأة مَناسِئ[٤]. ويرى بعض المفسرين أن النسيء عندهم أن يضاف أيام إلى السنة القمرية لتعادل السنة الشمسية حتى يأتي زمن الحج في فصل من السنة لا يتغير[٥]. وقد وردت اللفظة - المِنْسَأة - في موضع واحد من القرآن الكريم[٦]. في قوله تعالى ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ (سبأ: ١٤) وقد أشار الرازي إلى تفسير الآية بقوله: «وفيها دحض وتكذيب قول الجن بأنها تعلم الغيب لأنها لو كانت تعلم لما لبثت في العذاب المهين تعمل بين يديه، كما قال تعالى: ﴿ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ: ١٤) وقيل أيضاً: كان سليمان (ﷺ) يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوماً تاماً وفي بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له (عصا) يتكئ عليها واقفاً بين يدي ربه، ثم بعض الأوقات كان واقفاً على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أياماً وتمادى شهوراً، ثم أراد الله إظهار الأمر، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله، عندئذ جاء قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ: ١٤) .

فتبين إن الجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة، وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي»[٧]. هكذا نرى أن الأرضة كانت هي الدالة على موت سليمان (ﷺ) الذي بقي خافي الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار

---

(١) العين: ٧ / ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) ينظر: الصحاح: ١/ ٧٦.

(٣) تفسير غريب القرآن: ٢٥٤.

(٤) ينظر: المعجم الوسيط: ٢ / ٩٢٤.

(٥) ينظر: الآلة والأداة: ٣٩٨.

(٦) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٧٠٦.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٩٨.

(العصا) لأكل الأرضة إياها - فكان لسقوط العصا دلالة على إعلامهم بموت سليمان (ﷺ)[١]، وبهذا تبين للأنس أن الجن لا تعلم الغيب لأنهم كانوا يقولون: إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل[٢]، وبهذا يظهر للعيان أن دلالة العصا التي هي المنسأة كانت في هذه الآية إشارة واضحة على جهل الجن، فهنا رجل يموت وهو واقف على عصاه فلا تكتشف الجن من حوله أنه مات بدليل أنهم يبقون على حالهم من السخرة في خدمته[٣].

وهكذا يتبين لنا أن المنسأة هذه الأداة الهينة في الشكل يحولها السياق القرآني إلى أداة قَدَحت في علم الجن وفضحت جهلهم بالغيب مثلما كشفت للبشر أن الله سبحانه وتعالى هو وحده العالم بكل شيء وأن أي من مخلوقاته مهما كان بتصورنا كبيراً لكنه يبقى عاجزاً أمام عظمة علم الخالق المطلق.

١٩ - ١٤: المهد - المهاد

للجذر (مهد) أصل واحد يدل على توطئة وتسهيل للشيء ومنه المَهْد، ومَهّدت الأمر: وطأته، وتمهّد: توطأ، والمهاد: الوِطاء من كل شيء... وجمع المهاد مُهُدٌ[٤] والمَهْدُ: «الموضع يهيأ لينام فيه الصّبي... والمِهاد اسم أجمعُ من المَهْدِ كالأرض»[٥]والمَهْدُ معروف ونقول مهّدت الفراش تمهيداً، والفراش يعني المهاد وكل شيء وطأته فقد مهدته[٦]، وقيل: إن سبب إطلاق لفظة المهاد للفراش وذلك لوِثارَته لأن أصل المَهْد التوثير[٧]. وبهذا فإن المهد والمهاد هو المكان الممهد الموطأ[٨]. وقد قيل: «مَهَد لنفسه: نظر لها ودَبّر ما ينفعها كما يمهد الرجل فراشه،

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٥ / ٢٥١.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤ / ١٧٨.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير: ٢ / ٥٤٩.

(٤) ينظر: كتاب القرآن: ١٧٠.

(٥) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٢٨٠.

(٦) العين: ٤ / ٣٠-٣٢.

(٧) ينظر: جمهرة اللغة: ٢ / ٣٠٢.

(٨) ينظر: لسان العرب: ٣ / ٤١٠، مادة (مهد).

والفاعل ماهد والجمع الماهدون»[١]. وقيل أيضاً: المهاد: «يعني الفراش أو الأرض المنخفضة المسَربة الممهدة، أو المهد السرير يهيأ للطفل»[٢]، وتحليل لفظة - المهد - في القرآن الكريم على أربعة وجوه هي:

الأول: المهد: حجر الأم كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ ﴾ (مريم: ٢٩).

الثاني: التمهيد يعني التوطين كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ﴾ (المدثر: ١٤) يعني وطنت له توطيناً.

الثالث: المهاد يعني الفراش كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ ﴾ (النبأ: ٦) يعني فراشاً مثله في سورة طه.

الرابع: المهد يعني جمع الثواب كما في قوله تعالى: ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ (الروم: ٤٤) أي يجمعون الثواب والكرامة في الجنة[٣].

وقيل: إن المهد «فراش يهيأ للصبي ليضطجع فيه وينام، وهو في الأصل مصدر سمي به الفراش لأنه يمهد»[٤]. وقد وردت اللفظة في أحد عشر موضعاً من القرآن الكريم، وبصيغتي (مهد، ومهاد) الدالة على معنى واحد، وهو الفراش والبسَاط الموطأ لراحة الإنسان وقد وصفت به الأرض أيضاً استعارة ومجازاً عن الاستقرار والراحة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ ﴾ (النبأ: ٦) فقد ذكر الطوسي أن لفظة المهاد هنا تعني الوطاء وهو القرار المهيأ للتصرف فيه من غير أذية. وقيل أيضاً: هو البساط[٥]، إلا أن الرازي يبين أن الله تعالى لما حكى عنهم إنكار البعث والحشر، أراد إقامة الدلالة على صحة الحشر وقدم لذلك

---

(١) ينظر: المفردات: ٧٢٣.

(٢) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٦٦١.

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ٢ / ٢١٣.

(٤) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٤٥.

(٥) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٤٥.

مقدمة في بيان كونه تعالى قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع المعلومات، فلذلك فقد ذكر الله هاهنا من عجائب مخلوقاته أمورا (أولها) ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ ﴾ علماً أن المهاد مصدر ثم هاهنا احتمالات (أحدها) المراد منه هنا الممهود، أي ألم نجعل الأرض ممهودة وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر (وثانيها) أن تكون الأرض وضعت بهذا المصدر كما تقول: زيد جود وكرم وفضل، كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة (وثالثها) أن تكون بمعنى ذات المهاد، وقرى مهداً، ومعناه أن الأرض للخلق كالمهد للصبي وهو الذي مهد له فينوم عليه[1]، وعلى هذا فإن الأرض جُعِلتْ فِراشاً موطأ كالمهْد لتمكين الخلق من الاستقرار عليها والتقلب في أنحائها والانتفاع بما أودعناه لكم فيها وهذا التشبيه من باب المبالغة في جعل الأرض موطأ للناس والدواب يقيمون عليها، أو بتقدير مضاف: أي ذات مِهاد[2]، وبعد كل ذلك نجد أننا أمام حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار حضارته ومعرفته، فلا تحتاج إلى علم غزير لإدراكها في صورتها الواقِعة[3]، ومثيل اللفظ في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ (طه: ٥٣) .

وقد صور لنا سيد قطب في ظلاله صورة الأرض وهي جُعِلَت مهداً كمهد الطفل، وما البشر إلا أطفال هذه الأرض، يضمهم حضنها! وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة ... وكأنما هو المهد الحاني على الطفل يضمه ويرعاه، والخالق المدبر الذي جعل الأرض مهداً، وشق للبشر فيها طرقاً[4]، وكذا اللفظ في سورة الزخرف: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ (الزخرف: ١٠) وقد أشار أيضاً ابن كثير إلى أن هذه الأرض فِراشاً ساكنة مستقرة ثابتة يسير عليها الناس

---

(١) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٦٦١.

(٢) ينظر: التبيان: ١٠ / ٢٣٩.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣١ / ٦-٧.

(٤) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ٧٧٥.

ويقومون وينامون ويتصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكن أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا[1]، إلا أن لفظة (مهد) وردت في موضع آخر من القرآن لتدل على خارقة من خوارق الله وهذا في سياق قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ (مريم: ٢٩) قيل: المهد هنا حجر الأم، وأصله ما وطئ للصبي. وقيل: إنهم غضبوا عند إشارتها إلى ذلك. وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها[2]، لكن عندما تكلم الطفل وهو حجة مريم اطمأن قلبها إلى أن الله لا يتركها. وهذا الطفل الذي ينطق في المهد، فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها. وهي في موقف تشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها[3]، إلا أن الشعراوي يُشير بقوله إلى أن المهد في هذه الآية يعني «المكان الممهد المعَدُ لنوم الطفل، ولأن الوليد لا يقدر أن يبعد الأذى عن نفسه، فالكبير مثلاً يستطيع أن يُمهد لنفسه مكان نومه، وأن يُخرِج منه ما يؤرق نومه وراحته وعنده وَعْي، فإذا آلمه شيء في نومه يستطيع أن يتحللَ من الحالة التي هو عليها، وينظر ماذا يؤلمه»[4]. وكذا اللفظ في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٦) وهكذا تنكشف لنا نِعَمُ الله على عيسى ابن مريم وأمه. من تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام، يبرئ أمه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال، ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله... وروح القدس جبريل (ﷺ) يؤيده هنا وهناك[5]، فالمهد بعد كل هذا. أعطى إيحاء ضمن سياقه القرآني بأنه كان إشارة إلى معجزة الخالق في تكلم الطفل على غير المعهود عند البشر.

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١٦ / ٤٧٨.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١٥٤.

(٣) ينظر: التبيان: ٧ / ١٠٩.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ١٦ / ٤٣٣.

(٥) الشعراوي: ١٥ / ٩٠٧٥.

١٩ - ١٥: الميزان

(وزن) الواو والزاي والنون: «بناء على تعديل واستقامة: ووزَنت الشيء وزناً، والزِّنة، قَدرُ وزنِ الشيء؛ والأصل وَزْنَة، ويقال: أقام ميزان النهار إذا انتصف النهار»[١]. والوَزْن: «معروف والوَزْنُ: ثقل شيء بشيء مثله، كأوزان الدراهم، ويقال: وَزَن الشيء إذا قدره، ووزن ثَمَر النَّخْل إذا خَرَصه والميزان: ما وزنت به»[٢]. والوزن أيضاً: «معرفة قدر الشيء، يقال: وزنته وزناً وزنة، والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط والقبّان. وقوله تعالى: ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ (الإسراء: ٣٥) وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٩) إشارة إلى مراعاة العدالة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ...﴾ (الأعراف: ٨) فإشارة إلى العدل في محاسبة الناس»[٣]، ومن المجاز: «كلام موزون ونقول زن كلامك ولا تَزِنهُ وهو وزين الرأي، وداري توازن دارك: أي تحاذيها»[٤]. وقيل: الميزان بالكسر «آلة ذات كفتين يوزن بها الشيء ويعرف مقداره من الثقل، وأصله موازن فقلبت الواو ياء لسكونها بعد كسرة، وهو مذكر جمعه موازين»[٥].

وقد وردت اللفظة إفرادا وجمعاً في ستة عشر موضعاً من القرآن الكريم[٦]، ويجيء الميزان لما يأتي: الميزان: «الآلة التي تقدر بها الأشياء بوصفها في كفّة بإزاء صنجات مقدرة في كفة أخرى، ومنه الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة، ويرى بعضهم أن وزن الأعمال يوم القيامة تمثيل لتقدير الأعمال، وإظهارها

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٧٠.
(٢) مقاييس اللغة: ٦ / ١٠٧.
(٣) العين: ٧ / ٣٨٦.
(٤) المفردات: ٨١٩.
(٥) أساس البلاغة: ٦٧٤.
(٦) الآلة والأداة: ٤٠٨.

على رؤوس الأشهاد»[١] في قوله تعالى: ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٨٥) .

وقد ذكر الرازي أن التقدير ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (الأعراف: ٨٥) وذكر أن هذه الأخوة كانت في النسب لا في الدين واعلم أنه تعالى حكى عن شعيب (ﷺ) أنه أمر قومه في هذه الآية بأشياء، أولها: إنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله. والثاني: إنه ادعى النبوة فقال: ﴿ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (الأعراف: ٨٥) والمراد من البينة هاهنا (المعجزة). والثالث: إنه قال: ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الأعراف: ٨٥) والسؤال: لماذا قال الكيل والميزان ولم يقل المكيال والميزان كما في سورة هود؟ الجواب: أراد بالكيل آلة الكيل، وهو المكيال أو ما يسمى ما يكال به بالكيل، كما يقال العيش لما يعاش به. والرابع: قوله ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ والمراد به لما منع قومه من البخس في الكيل والوزن منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص وأردف بقوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (الأعراف: ٥٦) وذلك لأنه لما كان أخذ أموال الناس بغير رضاها يوجب المنازعة والخصومة، وهما يوجبان الفساد. وحاصل هذه التكاليف يرجع إلى أصلين التعظيم لأمر الله، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة، والشفقة على خلق الله، ويدخل فيه ترك البخس وترك الفساد ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الخمسة. قال: (ذلكم) وهو إشارة إلى هذه الخمسة، والمعنى خيرٌ لكم في الآخرة، إن كنتم مؤمنين بالآخرة[٢]، وهذا ما أشار إليه سيد قطب قائلاً: «إلا إنه كانت هناك بينة جاءهم بها، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله أي شعيب (ﷺ) ويترتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان، والنهي عن الإفساد في الأرض»[٣]، وهناك من قال: إن الميزان هنا هو الميزان

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٧٥٠.

(٢) معجم ألفاظ القرآن: ٨٤٧.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٤ / ١٨١-١٨٢.

المعروف[١]. وكذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ (هود: ٨٤) وقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ (هود: ٨٥) وكلها «إشارة إلى أن الإيفاء بالوزن. وأن لا ينقصوا المكيال والميزان ويبخسوا الناس أشياءهم، أي ينقصونهم قيمة أشيائهم في المعاملات، وهذا الكلام لأهل مدين - وبلادهم تقع في الطريق بين الحجاز إلى الشام - وكانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآبية بين شمال الجزيرة وجنوبها»[٢].

وهكذا يتبين من سياق الآية مخاطبة أهل مدين أن الله قد رزقهم رزقاً حسناً فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى، ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال الميزان[٣]، ومثيل اللفظ في سورة الأنعام ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ (الأنعام: ١٥٢) وهذا أيضاً حكاية ما قاله شعيب (عليه السلام) لقومه، وأنه أمرهم أن يوفوا المكيال والميزان بالقسط يعني بالعدل والسوية[٤]. والميزان هنا كان «إشارة إلى أنهم مأمورون بالحّد الذي يتحقّق فيه العدل وافيا، وعدمُ النّقص يساوي الوفاء ولكن في اختيار الأمر بالإيفاء اهتماماً به لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التنقيص، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذي يتمادحُون به كأنّه قيل لهم: أين سخاؤكم الذي تتنافسون فيه فهلا تظهرونه إذا كِلتم أو وزنتم فتزيدوا على العدل بأن توفّروا للمُكتال كرما بدل أن تسرقوا حقه، وهذا تنبيه لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها»[٥]. ومثيل اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ...﴾ (الأنبياء: ٤٧) وقيل: إن الميزان هنا: «هو ميزان له كفتان ولسان يذهب إلى أنه علامة جعلها الله للعباد يعرفون بها مقادير الاستحقاق، وقال

---

(١) في ظلال القرآن: ٨ / ٥٥٦.

(٢) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٨٤٧.

(٣) في ظلال القرآن: ١٢ / ٦٠٩.

(٤) ينظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن: ٢ / ٣٦٤.

(٥) ينظر: التبيان: ٦ / ٤٨.

قوم: هو ميزان ذو كفتين توزن بها صحف الأعمال، وقال بعضهم: يكون في إحدى الكفتين نور والأخرى ظلمة، فأيهما رجح علم به مقدار ما يستحق وتكون المعرفة في ذلك ما فيه من اللطف والمصلحة في دار الدنيا»[1]. خلاصة القول أن الله في ذكره لآلة الميزان ينبه الخلق ويلفت أنظارهم إلى أن كل شيء محسوب، وسوف يوزن عليكم ويُحْصَى، وكأنه ينصحهم، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتهم[2]، وقيل أيضاً: «إن الموازين هنا هي الموازين الحقيقية، أو هو تمثيل لإظهار الجزاء»[3]، ومثله في قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ٨) .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٩) والقصد أن صحائف الأعمال توزن يومئذ بميزان، لإظهار العدل الإلهي على رؤوس الأشهاد[4]. والموازين جمع ميزان، وهو ما يوزن به من آلة أو الصنجات على ما تقدم، أو جمع موزون وهذا على سبيل الحقيقة أو المجاز كما سبق واللفظ في سورة المؤمنون (١٠٢، ١٠٣) والقارعة (٦، ٨)[5]. والميزان بهذه الدلالة يعني إقامة العدل والقسط في الأحكام والمعاملات كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٩، ٨، ٧) وكما هو معلوم أن الميزان: أصله اسم آلة الوزن، والوزن تقدير تعادل الأشياء وضبط مقادير ثقلها وهو مفعال من الوزن، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ٨) وشاع إطلاق الميزان على العدل باستعارة لفظ الميزان للعدل على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس،

---

(١) التحرير والتنوير: ٨ / ١٦٥.

(٢) التبيان: ٧ / ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) ينظر: الشعراوي: ١٥ / ٩٥٥٣.

(٤) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٨٤٧.

(٥) ينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن: ١٩٩.

والميزان هنا مراد به العدل، مثل الذي في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (الحديد: ٢٥) لأنه الذي وضعه الله، أي عينه لإقامة نظام الخلق، فالوضع هنا مستعار للجعل فهو كالإنزال في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾... "[1]، وقد تأتي أيضاً دلالة الميزان في المصطلح القرآني بمعنى الشريعة التي يتناصف بها الناس وبها يقوم العدل بينهم كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (الشورى: ١٧) أي أنزل الشريعة والعدل الذي يحكم به بين الناس وتسميته ميزاناً من تسمية الشيء باسم آلته، لأن الميزان آلة الإنصاف بين الناس في المعاملات[2].

نخلص من كل هذا أن أصل معنى الميزان آلة تستخدم في تقدير أوزان الأشياء ويستعمل مجازاً لإقامة العدل في الأحكام بين المتخاصمين بتطبيق القانون الواحد على كل منهما[3]. إلا أن السياق القرآني يظهر الميزان بمظهر غير مظهر كونه آلة وزن للأشياء فقط، بل هو ميزان غير كل الموازين لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية فلا بُدّ من ميزان ثابت يثوب إليه البشر لإقامة حالة التعادل والمساواة، وهذا ما ذهب إليه سيد قطب ضمن سياق قوله تعالى: ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥) قائلاً: «فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل»[4].

---

(١) ينظر: معجم ألفاظ القرآن: ٢/ ٨٤٧-٨٤٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) ينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: ٢٤٧.

(٤) في ظلال القرآن: ٢٧ / ٧٣٩.

٢٠. حرف النون

٢٠ - ١: الناقور

للجذر (نقر) أصل صحيح يدل على قَرع شيء حتى تُهْزَم فيه هَزْمَةٌ ثم يتوسع فيه... ومنه الناقور: الصورُ الذي ينفخ فيه المَلَكُ يوم القيامة وهو ينقُر العالَمِين بقَزعهِ[1]، والنَّقْر: «صوت اللسان يلزق لأنه بمخرج النون، فيُصَوت به فينْقُرُ بالدابة لتسير، ومنه الناقور: الصور ينقر فيه الملك أي يَنفُخُ»[2]، وقال الجوهري: «نَقَرْتُ الرجل نَقْراً: عِبته. قالت امراة لزوجها: [مُرَّ بي على بَني نَظَري، ولا تَمر بي على بنات نَقَري] أي مرَّ بي على الرجال الذين ينظرون، ولا تمرَّ بي على النساء اللواتي يَعبْن من مرّ بهن... والنَقْرُ: صوت يُسمَع من قرع الإبهام على الوسطى»[3]، ومنه نقر الطائر الحَبّ بمنقاره، ونقَر النعّار الرَّحَى بمنقاره ونَقر العود والدُّف ونَقر رأسه بإصبعه نَقْرة ونَقرت الخيل بحوافرها: احتفْرت بها، ومن المجاز: نقرتُه: عِبْته وغِبتهُ، ورميته بناقِرةٍ وبنواقر وبينها مناقَرةٌ: مراجعة كلامٍ، ونقرتُ عن الخبر نَقَّرت عنه: بحثتُ وهو يصلِّي النَّعرى إذا نقر في صلاته نقْر الديك... ونَقر في الحجر: كتب[4]. وقيل أيضاً «الناقور: القلب»[5]، وقيل كذلك: الناقور «الصور الذي ينفخ فيه جمعه نواقير»[6]، والناقور «آلة كالبوق ينفخ فيه فتصوت، وذكر الناقور في القرآن حيث يذكر الصور الذي ينفخ فيه الملك قبيل القيامة»[7]. وقد وردت لفظة الناقور في موضع واحد من القرآن الكريم[8]، في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٤٦٨، ٤٦٩.

(٢) العين: ٥ / ١٤٤ –١٤٥.

(٣) الصحاح: ٢ / ٨٣٤-٨٣٥.

(٤) ينظر: أساس البلاغة: ٦٥٠.

(٥) لسان العرب: ٥ / ٢٣١، مادة (نقر).

(٦) المعجم الوسيط: ٩٥٤.

(٧) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٧٥٤.

(٨) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٧١٧.

ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ (المدثر: ٨) وقد ذهب الرازي في تفسير الناقور قائلاً: «جاء في الأخبار أن في الصور ثقباً بعدد الأرواح كلها، وأن الأرواح تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية، فيخرج عند النفخ من كل ثقب روح إلى الجسد الذي نزع منه فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى، فيحتمل أن يكون الصور على آلتين ينقر في أحدهما وينفخ في الأخرى، فإذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أعظم، وإذا نفخ فيه للإحياء لم ينقر فيه، واقتصر على النفخ، لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها لا تنقيرها من أجسادها، والنفخة الأولى للتنقير، وهو نظير صوت الرعد»[1]. وقد أشار سيد قطب إلى أن النقر في الناقور، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور لكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه؛ كأنه نقر يصّوت ويدوي والصوت الذي ينقر الآذان، فالأجدر بالكافرين أن يستمعوا للنذير قبل أن ينقر في الناقور، فيواجههم اليوم العسير[2]. ومما هو ملاحظ أن النفخ في الصور عُبر عنه بالنقر في الناقور لبيان هول الأمر وشدته، فإن النقر في كلام العرب معناه الصوت، وإذا اشتد الصوت أصبح مفزعاً، فكأنّه يقول: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك[3]. فالناقور هو صوت يلم بجسد كل ميت ليوقظه بفزع وشدة وهو - والله أعلم - كما قلنا مرافق للنفخ في الصور فإن آيات القرآن تدل على أن الصور والناقور يقومان بعمل واحد ونتيجة واحدة[4]. وبهذا نستدل على أن هذه الآلة الرّبّانية جاءت تسمِيتُها هنا (النّاقُور) وجاءت تسميتها الصور[5]، إذاً (الناقور) جاءت في المصطلح القرآني لإعطاء درس وإنذار من لدن الرّسول وتكليفه أن يُنْذِرَ المكذبين، الذين يُصرّون على رفض الاستجابة لدعوة الحق الرّبانية التي جاءهم بها، وَدعاهم إلى الإيمان بقاعدتها الإيمانية، والإسلام والطاعة لأوامر الله ونواهيه

(١) مفاتيح الغيب: ٢٩ / ١٩٦.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩ / ٣٦١.

(٣) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٤٧٤.

(٤) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم: ٣٥٥.

(٥) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ١ / ٩٣.

فيها[١]. وبهذا يوحي السياق القرآني بأن آلة الناقور كانت أداة تنبيه لعظيم ما سيحصل في اليوم الآخر، فالناقور لفظة قرآنية صرفة استخدمت لتحل محل الناقوس والنقر على الطبل تقريباً لأذهان البشر.

٢٠ - ٢: النصب - الأنصاب

للجذر (نصب) أصل صحيح يدل على إقامة شيء وأهداف في استواء (أي انتصاب في استواء)، يقال نصبتُ الرُمح وغيره أنصِبُه نصباً، والنَّصْب: حجر كان ينصَب فيُعْبَد ويقال هو النصبُ، وهو حجر يُنصب بين يدي الصنّم نصُب عليه دماء الذبائح للأصنام، والنصائب: حجارة تنصب حوالي شفير البئر فتجعل عضائد[٢]، والنُّصُب: العَلَم، وقيل أيضاً النُّصُب: جماعة النَّصيبة، وهي علامة تنصب للقوم، أي علامة كانت لهم، والنصيبة واحدة النَّصائب، وهي نصائب الحوض[٣]، وقيل أيضاً النُّصْبُ: الشرّ والبلاء ومنه قوله تعالى: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (ص: ٤١)... [٤]. ومن المجاز: «غبار منتصب ومتنصِّبٌ، ونصُبته لأمر كذا فانتصب له ونُصِب فلان لعمارة البلد، ونصبنا لهم حرباً وناصبناهم مناصبة، وناصبت لفلان: عاديته، وأهل النَّصْب: الذين ينصبون لعلي (ﷺ)، ونصبت له رأياً إذا أشرت عليه برأي (لا يعدل عنه) وهو يرجع إلى منصب صدق وهو أصله الذي نُصِبَ فيه ورُكِّب، ومنه: نصاب السكين وهو أصله الذي نصب فيه»[٥]، وقيل: «إنه كان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (المعارج: ٤٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ (المائدة: ٣) وقد يقال في جمعه أنصاب[٦]. وقد ذكر بأن الأنصاب هي الحجارة التي يعبدونها،

---

(١) ينظر: م. ن. : ١ / ٩٥.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٥ / ٤٣٤.
(٣) العين: ٧ / ١٣٥-١٣٦.
(٤) ينظر: الصحاح: ١ / ٢٢٤-٢٢٥، المخصص: ٤ / ١٠٤ (السفر الثالث عشر).
(٥) أساس البلاغة: ٦٣٤ _ ٦٣٥.
(٦) ينظر: معاني القرآن، الأخفش: ١ / ٢٥١.

وأنصاب الحرم، أعلامُه[١] وأصل النصب هو «الرفع، والنِصبة والنصب كل ما نصب وجُعِل علماً ويجوز أن يكون النصب واحداً جمعه أنصاب وعلى هذا قرئ قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾... [٢]. وقد ذكر القرآن الكريم المصطلح إفرادا وجمعاً في ثلاثة مواضع منه[٣].

ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ (المائدة: ٣) فقد ذكر الزمخشري قائلاً: «كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون عليها ويعظمونها بذلك ويتقربون به إليها، تسمى (الأنصاب) والنصب واحد قال الأعشى:

وذا النّصْب المنصوب لا تَنسُكَنَّهُ ولا تَعْبُدِ الأوثان والله فاعبُدا[٤]

إلا أن الرازي ذهب في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ أن فيه وجهين: أحدهما: ما ذبح على اعتقاد وتعظيم النصب، والثاني: وما ذبح للنصب (واللام) و(على) يتعاقبان[٥]، وهذا أيضاً ما ذهب إليه القرطبي في قوله: «المعنى النية منها تعظيم النصب لأن الذبح عليها غير جائز، وقيل: (على) بمعنى اللام: أي لأجلها»[٦]. وهناك أقوال كثيرة في معنى النصب، فمنهم من خصه بالصنم بما كانت له صورة، ومنهم من قال: إنه بما كان صخرة غير مصورة، والأصح أن النصب حجارة غير مقصود منها أنها تمثال للآلهة بل هي موضوعة لأن تذبح عليها القرابين والنسائك التي يتقرب بها للآلهة والجن، لأن الأصنام كانت معدودة ولها أسماء وكانت في مواضع معيّنة تقصد للتقرب، وأما الأنصاب فلم تكن معدودة، ولا كانت لها أسماء وإنما كان يتخذها كل حي يتقربون عندها، فقد روي عن أئمة أخبار العرب: أن العرب كانوا يعظمون الكعبة، وهم ولد إسماعيل (عليه السلام)، فلما تفرق

---

(١) ينظر: مجاز القرآن: ١ / ١٥٢.
(٢) التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: ١٥٥.
(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٧٠١.
(٤) ديوان الأعشى الكبير: ١٣٧.
(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ١١ / ١٣٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٣٩.

بعضهم وخرجوا من مكة عظم عليهم فراق الكعبة فقالوا الكعبة حجر، فنحن ننصب في أحيائنا حجارة تكون لنا بمنزلة الكعبة فنصبوا هذه الأنصاب وربما طافوا حولها، ولذلك يسمونها الدُّوّار - بضم الدال المشددة وبتشديد الواو -، ويذبحون عليها الدماء المتقرب بها في دينهم[١].

وبهذا نلمس أن النصب «حجارة أعدت للذبح وللطواف على اختلاف عقائد القبائل وقد كان في الشرائع القديمة تخصيص صخور لذبح القرابين عليها تمييزاً بين ما ذُبح تديناً مما ذبح للأكل، فمن ذلك صخرة بيت المقدس، قيل: إنها من عهد إبراهيم (ﷺ) وتحتها جبّ يعبر عنها ببئر الأرواح، لأنها تسقط فيها الدماء، والدم يسمى روحاً، فالنُصب يذبحون عليها قلت: ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ بحرف (على) ولم يقل وما ذبح للنصب لأن الذبيحة تقصد للأصنام والجن وتذبح على الأنصاب، فصارت الأنصاب من شعائر الشرك»[٢]، وكذا اللفظة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ (المائدة: ٩٠) والأنصاب هنا أيضا تعني الآلهة التي نصبوها ليعبدونها[٣].

٢٠ – ٣: النمارق

أصل هذه الكلمة يرجع إلى مادة (نمر) وهو يدل على لون من الألوان. والنمرة: هي كساء ملون مخطط[٤]، وقد ذكر الجوهري أن النُمْرُقُ والنُمْرقَةُ: وسادة صغيرة، وكذلك النمِرْقة بالكسر لغة فيه، وربما سمّوا الطِنفسة التي فوق الرحل نُمرقَة[٥]، وقيل: «النُمرُقَة هي التي يلبسها الرجل، وقيل إنها المثيرة ما افْتَرَشْتَ

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٦ / ٩٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٦ / ٩٤-٩٥.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢ / ٨٤.

(٤) مقاييس اللغة: ٥ / ٤٨٤.

(٥) ينظر: الصحاح: ٤ / ١٥٦١.

أستُ الراكب على الرحل كالمِزفقَة، غير أن مؤخرها أعظم من مقدمها ولها أربعة سيور تشد بآخِرة الرّحل وواسطة»[١]. وقيل أيضاً «إنها وسادة يستند إليها أو يُتكأ عليها»[٢]. وقد وردت لفظة (النمارق) في موضع واحد من القرآن الكريم[٣]، في قوله تعالى ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝ ﴾ (الغاشية: ١٣ - ١٦) فالنمارق هنا يفسرها ابن الجوزي بقوله: «هي الوسائد واحدها نمرقة وهي كثيرة، وقال المفسرون: لما نعت الله سبحانه وتعالى ما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر فذكرهم صنعه فقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ ﴾ (الغاشية: ١٧) وقيل أيضاً: ذكر الله ارتفاع (سُرر) الجنة وفرشها»[٤]، قال الرازي: إن النمارق هي الوسائد في قول الجميع واحدها نمرقة بضم النون وقيل: مصفوفة بعضها إلى بعض أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى الأخرى[٥]، وبهذه الدلالة يؤكد سيد قطب قول ابن الجوزي والرازي بأن النمارق في الاصطلاح القرآني تعني الوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح! وهي من مناعم مما يشهد الناس له أشباها في الأرض، وتذكر هذه الأشياء لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض[٦]، وعلى هذا يتبين وعد الله للمؤمنين أن لهم في الجنة ما يعرفون من النعيم في الدنيا، وقد علموا أن ترف الجنة لا يبلغه الوصف بالكلام وجمع ذلك بوجه الإجمال في قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الزخرف: ٧١) ولكن الأرواح ترتاح بمألوفاتها. وبهذا يوحي السياق القرآني للفظة - النمارق - بأنها أداة خصصت لنيل النعيم والترف والارتياح. بحيثُ جعل بعضها قريباً من بعض صفاً،

---

(١) لسان العرب: ١٠ / ٣٦١.

(٢) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٢٤٦.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٧١٩.

(٤) زاد المسير في علم التفسير: ٩ / ٩٨-٩٩.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٠ / ١٥٦.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن: ٣٠ / ٥٦٢-٥٦٣.

أي أينما أراد الجالس أن يجلس وجدها[1]. وهذا ما ذهب إليه أيضاً الصابوني في تفسيره للفظة حين قال: «أنها وسائد - مخدّات - يستندون عليها»[2]، فالنمارق تأتي لتكريم الصفوة المؤمنة والتي تكون صعبة المنال على المشركين والجاحدين، وعلى هذا فالنمارق هي شكل تكريمي من أشكال عظيمة في التكريم زُجت في علم الغيب.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٠٣.

(٢) صفوة التفاسير: ٣ / ٥٥٣.

٢١ . حرف الواو

٢١ - ١: الوثاق

(وثق) الواو والثاء والقاف «كلمة تدلُّ على عَقْدٍ وإحكام، ووَثَّقت الشيء أي أحكمته، ومنه الميثاق: العهد المحكم»[١]. قال الفراهيدي: «وَثُقْتُ بفلان به ثِقَةً وأنا واثق به، وهو موثوق به، والوَثيق: المُحكَمُ ونقول: أو وَثَّقْتُه إيثاقاً ووَثَاقاً، والوِثاق: الحَبْلُ، ويُجمَعُ على وُثُقٍ، والوثيقة في الأمر: أحكامه والأخذ بالثقة والجمع وَثائِقُ»[٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾(محمد: ٤) والوِثاق بكسر الواو لغةٌ فيه[٣]، وقيل «الوَثاق والوِثاق بفتح الواو وكسرها اسمان لما يوثق به الشيء كقوله تعالى ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ (الفجر: ٢٦)... »[٤]. وقيل: «قد وثُقَ وَثاقه وشدّه بالوَثاق»[٥]، وقد ذهب ابن منظور إلى أن الوثاق اسم الإيثاق، نقول أوثقته إيثاقا ووَثاقاً، والحبل أو الشيء الذي يوثَق به وِثاقٌ، والجمع الوُثُقَ بمنزلة الرِّباط والرُّبُطِ[٦]. وقد وردت اللفظة في موضعين من القرآن الكريم أحدهما قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ (محمد: ٤) فقد ذهب الرازي إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ هو أمر من الله تعالى أي أمر إرشاد منه[٧]، وبهذا يكون المعنى إذا أسرتموهم فشدوا الوِثاق بالكسر فهو اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط، وإنما أُمِرَ بشد الوثاق لئلا يفلتوا[٨] فالوثاق هنا «الحَبْل يوثق به»[٩]، وقيل أيضاً أن معنى الوثاق في الآية يعني «هو كناية عن وقوعهم أسرى في أيدي

---

(١) مقاييس اللغة: ٦ / ٨٥.

(٢) العين: ٥ / ٢٠٢.

(٣) الصحاح: ٤ / ١٥٦٢ - ١٥٦٣.

(٤) المفردات: ٨٠٤.

(٥) أساس البلاغة: ٦٦٤.

(٦) ينظر: لسان العرب: ١٠ / ٣٧١.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٨ / ٤٤.

(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦ / ١٥٠.

(٩) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٨٢٠.

المؤمنين»[١] إلا أن ابن عاشور قال: إن معنى الكلام كله أنه إذا قاتلتم المشركين في المستقبل فأمعنوا في قتلهم حتى إذا رأيتم أن قد خضتم شوكتهم فاسروا منهم أسرى، والإثخان: الغلبة لأنها تترك المغلوب كالشيء المثخن وهو الثقيل الصلب الذي لا يخف للحركة، ويوصف به المائع الذي جمد أو قارب الجمود بحيث لا يسيل بسهولة[٢]، إلا أن سيد قطب يصف لنا هذا بقوله: «نلاحظ تصويراً لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة وبالحركة التي تمثلها، تمشياً مع جو السورة وظلالها، وبما أن الإثخان شدة التقتيل فبهذا تتحطم قوة العدو وتتهاوى، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع - عندئذٍ - يؤسر من استأسر ويشد وثاقه»[٣]. وخلاصة القول: إننا ندرك بأن استخدام لفظة (الوثاق) في قوله تعالى: ﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ استخدمت أداة من أدوات الأسر يوثق بها، كما القيْد أو الحبل ونحوه، حتى لا يفلت العدو وينهزم، وكذلك فقد وردت اللفظة في موضع ثان من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الفجر: ٢٦) فتأويل الكلام هنا «هو يومئذ لا يعذب بعذاب الله أحد في الدنيا، ولا يوثق كوثاقه يومئذ أحد في الدنيا...، وقيل: قد علم الله أن في الدنيا عذاباً وَوَثاقاً، فقال: فيومئذ لا يعذب أحد في الدنيا، ولا يوثق وثاقه أحد في الدنيا»[٤]، وقيل أيضا أن الوثاق هنا هو «كناية ترجع إلى الله تعالى أي لا يَعذب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، والمراد إبليس، أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله للكافر يومئذ، ولا يوثق كما يوثق الكافر»[٥]. وقد ذهب الصابوني إلى أن ذكر لفظة الوثاق هو لبيان أنه في ذلك اليوم ليس هناك أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، وهذا في حق المجرمين من الخلائق...، وهذا من نوع جناس الاشتقاق[٦]. والغرض من ذكر اللفظة أيضاً هو شدة الترهيب من

---

(١) ينظر: روائع البيان في تفسير آيات أحكام من القرآن: ٣١٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٧٩.

(٣) في ظلال القرآن: ٢٦/ ٤٤٣.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣/ ٢٢٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٣٨.

(٦) ينظر: صفوة التفاسير: ٣/ ٥٥٩.

عذاب الله يومئذ، لأنَ المُلْك يومئذٍ لله وحدَه، فلا تَعذيب إلا تعذيبه، ولا وِثَاق إلا وَثَاقُه، وبعد هذا العرض التفسيري لأهل التأويل والتفسير يتبين لنا أن التعبير كله لأداة الوثاق هو كناية عن أخذ الإنسان الكافر يومئذ إلى دار التعذيب - جهنم -[١]، وبهذا يوحي السياق القرآني أن أداة - الوثاق - التي يوثق بها الأسير والكافر وتُكبل العُصاة وتمنع عنهم الحركة وتوقع فيهم الذل جاءت لتبيان أن شدة العذاب الذي يلقاه الإنسان الكافر هو أضعاف ما يلقاه في الدنيا إن كان مُذنباً وعاقاً لله ودين الله جاحداً مُنكراً نِعَم الله العظيمة عليه.

٢١ – ٢: الوعاء – أوعية

(وعى) الواو والعين والياء: كلمة تدلُّ على ضم شيء، وَوَعيتُ العِلْمَ أعِيه وَعْياً، وأوعيت المتاع في الوعاء أوعيهِ[٢]، والوعاء: «واحد الأوعية، وتقول وَعَيْتُ الحديث أعيه وَعياً»[٣] وقال ابن دريد: «سمعت واعية القوم أي أصواتهم وكذلك وعاهم»[٤]، وقد ذكر الزمخشري أنه يقال: «وعَى عظمهُ، انجبر. وسمعت وعي الجيش: جَلَبَته»[٥]، إلا أن ابن منظور قال: «أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء وفي حديث أبي هريرة (ﷺ): حَفِظت عن رسول الله (ﷺ) وعاءين من العلم، أراد الكناية عن محل العلم فجمعه فاستعار له وعاءه»[٦]، والوصف واعٍ وواعية[٧]، وكذلك فإن الوعاء: الظرف يوعى فيه والجمع أوعية[٨]، وقال الرصافي: الوعاء بالكسر وقد يضم ويقال فيه الأعاء، بإبدال الواو همزة، سمّي بذلك لأنه يجمع ما فيه من المتاع، ويقال لصدر الرجل وعاء علمه واعتقاده تشبيهاً بذلك وجمع

---

(١) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ١/ ٥٤٦.

(٢) مقاييس اللغة: ٦ / ١٢٤.

(٣) الصحاح: ٦ / ٢٥٢٥.

(٤) جمهرة اللغة: ١ / ١٨٤.

(٥) أساس البلاغة: ٦٨٣.

(٦) لسان العرب: ٥ / ٣٩٧، مادة (وعى).

(٧) معجم ألفاظ القرآن: ٢ / ٨٦٥.

(٨) ينظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: ٢ / ٢٨١.

الجمع أواعٍ[١]. وقد وردت اللفظة مكررة ثلاث مرات في موضع واحد من القرآن الكريم[٢]، فبقوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ...﴾ (يوسف: ٧٦) الوعاء هنا: الأداة والظرف الذي يجمع ما فيه من المتاع، ولكن السياق القرآني يشير من وراء ذلك إلى معنى أعظم وأبلغ من كونها أداة بسيطة يجمع فيها المتاع. فقد ذهب الطوسي في تبيان المعنى من وراء ذكر أداة الوعاء بأنها كانت وسيلة ليوسف (ﷺ) ليُعبر عن الجزاء على المعصية بالكيد، فقد أخبر تعالى أن يوسف (ﷺ) أمر أصحابه بأن يفتشوا أوعيتهم ورحالاتهم، وأن يبدأوا بأوعية الجماعة قبل وعاء أخيه ليكون أبعد من التهم فإن لم يجدوا فيها شيئاً أمر حينئذ باستخراجها من وعاء أخيه، ثم أخبر الله تعالى أنه كاد ليوسف (ﷺ) والكيد التعريض للغيظ وكان التدبير على إخوة يوسف حتى أخذ منهم أخوهم بما يوجبه حكمهم، هوكالتعريض للغيظ من جهة اغتمامهم بما نزل من ذلك الأمر بهم، وقد يُعبر عن الجزاء على المعصية بالكيد[٣]. وبهذا فسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ (يوسف: ٧٦) قائلاً: «يعني علمناه وإياه وأوحينا به إليه، وهو تفسير للكيد وبيان له، لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد»[٤]، وقد ذكر الشعراوي أن الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم، وهم عشرة قبل وعاء شقيقه، كي ينفي احتمال ظنهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك، ليستخرج منه صُواع الملك وليطبق عليه قانون شريعة آل يعقوب، فيستبقي شقيقه معه، وهذا دليل على الذكاء الحكيم[٥].

وبهذا أشار السياق القرآني إلى أن أداة (الوعاء) كانت العلة التي تمكن

---

(١) ينظر: الآلة والأداة: ٤٣٤-٤٣٥.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٧٥٦.

(٣) ينظر: التبيان: ٦ / ١٧٤.

(٤) الكشاف: ٢ / ٤٩١.

(٥) ينظر: الشعراوي: ١١ / ٧٠٢٧.

بها سيدنا يوسف (ﷺ) من تقريب المسافة بينه وبين إخوته، فضلاً عن الاقتراب في فضح تدابيرهم هذه وإلقائه في اليم، ومن ثم إثبات براعته من حصر محبة يعقوب (ﷺ) له حصراً ناهيك عن تنبيه الأمة لاحقا إلى عدم الوقوع في الحسد الذي يؤدي إلى التفريق بين الإخوة وأفراد المجتمع كافة، ومن تصديق قول الله سبحانه وتعالى الذي سهل الأمر كما في مقدمة سورة يوسف (ﷺ): ﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾ (يوسف: ٥).

الخاتمة

بعد طرح الرحال في باحة الروض القرآني المقدس والاستمتاع بنسمات ألفاظه العذبة المتجددة، التي تزيد من إيمان العبد ويقينه بأن هذا القرآن الكريم كان وما يزال معيناً لا ينضب فيه المعجزات والمواعظ والحكم، ولأن القرآن الكريم يفسر في كل عصر وفق الطاقة البشرية تبين لنا أنه لا يكفي معرفة المعنى اللغوي للفظة حتى نحكم عليها في كتاب الله، لأننا وجدنا أن الدلالة القرآنية السياقية تختلف في أكثر الأحيان عن الدلالة اللغوية، وبعد فقد وفقنا الله في هذه السياحة الروحانية المباركة كي نخرج بنتائج أفرزتها الدراسة منها.

أولا: على الرغم مما هو موجود في المعاجم والمتداول في كتب اللغة بأن الآلة والأداة لفظان مترادفان أوقعتهما العرب على معنى واحد كقولنا السيف والعضب، وهو مذهب لبعض علماء اللغة في المترادفات... إلا أنه لا ضير ولا جرم في أن يكون بين الآلة والأداة فرقٌ بدليل قول ابن السكيت «ما يعتمل به أو ينقل» وهذا دليل تمثيل للقاعدة بأسماء تنوعت دلالات ما اشتقت منه من تعدية ولزوم، لأن الآلة هي التي يعالج بها وتكون واسطة بين الفاعل ومنفعله في وصول أثره إليه وهي غير الأداة التي يترفق بها مثال على ذلك لفظة (المِقَصّ) فعلى قول اللغويين والنحويين أمثال سيبويه حين قال: «المِقَصّ (آلة) بدلالة معالجة القص الذي يقص به، أما (المِخلب) فهو (أداة) لا يعالج بها بل وعاء لحفظ الشيء». وهذا القول يوحي بوجود الفرق بينهما بسبيل من دلالة تنويع العرب للاشتقاق في هذا الباب، وهذا يحل لنا المشكلة حلاً يلائم فطرة اللغة في إطلاق اشتقاق أسماء الأجهزة وأسماء الآلات وأسماء الأدوات من الأفعال والأسماء التي تلائم معانيها ووظائفها.

ثانياً: تبين لنا أن مفهوم الآلة والأداة في القرآن الكريم له دلالات متنوعة منها الحسي الذي يعطي معنى الآلة من حيث هي أداة تختص بوظيفة معينة تعارف عليها الناس عبر التعايش فاستخدمها القرآن استخداما مباشراً، كذكر لفظة (السلاسل) في قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ (الإنسان: ٢٠) الدالة على أداة من أدوات التعذيب والعقاب، ومنها ما يسوقنا إلى

دلالة المجاز اللغوي الدلالي للمصطلح بمعنى الإشارة إلى معنى آخر خارج الآلة والأداة بمعناها الحسي المباشر، كذكر لفظة (الطبق) في قوله تعالى ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ (الانشقاق: ١٩) الدالة على معنى مغاير لدلالة الطبق الذي يؤكل فيه، أي: جاءت بمعنى منزلة بعد منزلة وحالاً بعد حال.

ثالثاً: إن الهدف من ذكر أسماء الآلة والأداة في القرآن الكريم بنفس لفظ الأسماء المستخدمة في حياتنا العامة حتى نتعرف إليها، وهي مألوفة لدينا وقريبة من مدارك عقولنا وتصورنا لنصل إلى غاية ما هو أعمق وأبلغ من الاستخدام الوظيفي الاعتيادي للآلة والأداة لدينا. أرادت الحكمة الإلهية إيصاله إلينا إلا أن الاستعمال القرآني للآلات والأدوات جاء مختلفاً عما هو متعارف عليه في حياتنا العامة إذ أضفى عليها القرآن الكريم معنى جديداً عن طريق التشبيه والاستعارة والكناية.. الخ والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها: (عصا موسى ﷺ) هذه الخشبة الهينة الشكل في تصورنا يظهرها العالم الإلهي بصور عديدة تبين لنا معجزة من معجزات الخالق، وهذا ما لاحظناه من سياق قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ (طه: ١٨) فكان سؤال الله لنبيه موسى (ﷺ) عن العصا حتى يريه عظم ما يخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية فضاضة تسعى وتتحرك وتدب، كما ورد ذكرها في سياق قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ (طه: ٢٠) وهنا تقع المعجزة ولم تعد عصا موسى (ﷺ) التي صاحبها طويلاً ومن ثم تتحول مرة أخرى وتوصف بأنها: ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ (القصص: ٣١) ومن ثم ثعبان مبين في قوله: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الشعراء: ٣٢) وكذلك ذكر لفظة (السراج) التي وردت بدلالات مختلفة تماماً عن المعنى الظاهري في كونها سراجاً يستضاء به ففي سياق قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان: ٦١) فالسراج هنا يعني الشمس التي جعلت كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم وكذلك وردت على وجه الاستعارة في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥ - ٤٦) فالسراج صفة للنبي (ﷺ) أي هو هادياً كأنه سراج يهتدى به في الظلام، إنه يبلغ رسالة هدى تهدي إلى طريق الحق كما يهدي الضوء إلى سلوك الطريق.

رابعـاً: ومما يلاحظ أن القرآن تناول عدداً من الألفاظ المعربة في سياق آياته القرآنية ضمن الآلة والأداة مثال، السرابيل والزرابي وغيرهما مما ذكر في موضعه من البحث، وهذا دليلٌ على أن القرآن خاطب كل عصر بعقليته ولغته ومعتقداته.

خامـساً: وخلاصة القول: إن الحياة العامة في تطور مستمر وتقدم ومعها تتقدم مجالات الحياة كافة ومنها مجال الصناعة الذي بدوره يحتاج إلى آلات ومعدات وأدوات متنوعة غير الآلات والأدوات الأولية سابقاً بسبب سهولة الحياة وعدم تعقدها فلهذا اكتفى النحاة واللغويون كما بينا في التمهيد بثلاثة أوزان قياسية لأسماء الآلة والأداة، لكن هذا التطور ألزمنا أن نشتق أوزاناً عديدة تلائم تطور الآلات والأدوات المستحدثة توافقاً مع العصر، وهذا يسمح لنا أن نقول: لا يمكن حصر اشتقاق أوزان الآلة والأداة في أوزان محدودة وهذا ما وصل إليه العلماء لاحقاً وبيناه في التمهيد سابقاً.

ثبت المصادر والمراجع

أولا: الكتب المطبوعة

١. الآلة والأداة: معروف الرصافي، تحقيق: عبد الحميد الرّشوي، المركز العربي للطباعة، بيروت، ١٣٣٧م.

٢. أبنية الصرف في كتاب سيبويه: د. خديجة الحديثي، ط١، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٥م.

٣. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، د/ م، ١٩٧٤م.

٤. الأحاديث المختارة: أبو عبد الله حمد بن عبد الواحد الحنبلي المقدسي (ت ٦٤٣هـ)، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ.

٥. أدب الكاتب: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣م.

٦. أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م.

٧. الأساس في التفسير: سعيد حوى، ط٢، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ١٩٨٩م.

٨. أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩٧٠ م.

٩. الاشتقاق: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢ منقحة، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٩م.

١٠. إصلاح المنطق: أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخر، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م.

١١. إعجاز القرآن دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها: عبد الكريم الخطيب، ط١، دار الفكر العربي، مطبعة دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٤م.

١٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (المعروف بتفسير البيضاوي): أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي (ت ٧٩١هـ) تحقيق: عبد القادر عرفات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م.

١٣. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، د/ م، د/ ت.

١٤. البلاغة فنونها وأفنانها: د. فضل حسن عباس، ط١، دار الفرقان للنشر، عمان، ١٩٨٧م.

١٥. بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ: فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

١٦. بناء الصورة الفنية في البيان العربي (موازنة وتطبيق): د. كامل حسين البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٧م.

١٧. تأويل مشكل القرآن: أبو محمد بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٣، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٩٨٠م.

١٨. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، ط١، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ.

١٩. التبيان، أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب العاملي، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٦م.

٢٠. التحرير والتنوير، محمد طاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر والإعلان، د/ م، د/ ت.

٢١. التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: واجدة مجيد الأطرقجي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.

٢٢. التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ط ٨، دار المعارف، مصر، د/ ت.

٢٣. التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم: عودة خليل أبو

عودة، د/ م، ١٩٨٥م.

٢٤. التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، الدار التونسية للنشر، المطبعة الرسمية الجمهورية التونسية، ١٩٧١م.

٢٥. تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، القاهرة، ١٩٩١م.

٢٦. التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: حنفي أحمد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م.

٢٧. تفسير غريب القرآن: عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد صقر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٨م.

٢٨. تفسير القرآن العظيم: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، اعتنى به: أحمد عبد السلام، ط١، شركة دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٩. التفسير الكبيرأومفاتيح الغيب: فخر الدين بن ضياء الدين عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.

٣٠. تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ترجمة: د. محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م.

٣١. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: (للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني)، تحقيق: محمد خلف الله أحمد وآخر، ط٣، دار المعارف، مصر، د/ ت.

٣٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تصحيح: علي عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

٣٣. جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، ط٥، د / م، بيروت، ١٩٨٩م.

٣٤. الجامع لأحكام القرآن الكريم: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

٣٥. الجمان في تشبيهات القرآن: لابن ناقيا البغدادي (ت ٤٨٥هـ)، مطابع رواي للإعلان، الإسكندرية، د/ ت.

٣٦. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي بن دريد

(ت ٣٢١هـ)، طبعة جديدة بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد، د/ ت.

٣٧ دراسة أدبية لنصوص القرآن: محمد مبارك، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٤م.

٣٨ دروس في قواعد اللغة العربية: محيي الدين الأنصاري، ط١، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٨م.

٣٩. ديوان الأعشى الكبير: ميمون بن قيس (ت ٧هـ)، شرح وتعليق: د. محمد حسين، المطبعة النموذجية، ١٩٩٢م.

٤٠. ديوان الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٧٠م.

٤١. ديوان امرئ القيس: تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م.

٤٢. ديوان جرير، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د / ت.

٤٣. ديوان الخنساء: ط محققة وجريدة، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨م.

٤٤. ديوان كعب بن زهير: رواية أبي سعيد السكري، شرح لجنة من الأدباء، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٨م.

٤٥. ديوان الهذليين: نسخة وصورة عن طبعة دار الكتب، تحقيق، التراث العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤٦. روائع البيان في تفسير آيات القرآن: محمد علي الصابوني، ط١، دار الجيل، د / م، ٢٠٠١م.

٤٧. زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين بن عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٣هـ)، ط١، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٦٤م.

٤٨. سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، د/ ت.

٤٩. سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن حسين علي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.

٥٠. سنن الترمذي: محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ)، صححه وشرحه: أحمد

محمد شاكر، (د / م) (د / م)، ١٩٣٨م.

٥١. سنن النسائي: النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غادة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٦م.

٥٢. سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، د/ ت.

٥٣. شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين الإستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

٥٤. شرح القصائد العشر: يحيى بن علي الشيباني التبريزي (ت ٥٠٤هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥٥. شرح المعلقات السبع: الحسين بن أحمد بن حسين الزوزني (ت ٤٣٢هـ)، مطبعة الدار العربية، بغداد، د / ت.

٥٦. شرح المفصل: موفق الدين بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت، د/ ت.

٥٧. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط١، دار العلم للملايين ١٩٥١م، ط ٤، ١٩٨٧م.

٥٨. صحيح بن حبان: محمد بن حبان بن أحمد التميمي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

٥٩. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م.

٦٠. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، بيروت، بحاشية السندي، ١٩٨٧م.

٦١. صحيح مسلم: مسلم بن حجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د / ت.

٦٢. صفوة البيان لمعاني القرآن: حسنين محمد مخلوف، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٩٨٧م.

٦٣. صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ط٢، دار القرآن الكريم،

بيروت، ١٩٨١م.

٦٤. العظمة: محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ)، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ١٩٨٧م.

٦٥. العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، ط٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٦٦. غريب القرآن: أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ)، مطبعة التوفيق الأدبية، د / م، ١٩٢٤م.

٦٧. فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي وآخر، دار المعرفة،، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٦٨. الفردوس بمأثور الخطاب: أبو شجاع شيرويه بن شهردار الهمذاني (ت ٥٠٩هـ)، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.

٦٩. الفروق في اللغة: الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط٥، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.

٧٠. في ظلال القرآن: سيد قطب، ط٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

٧١. قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: الحسين بن محمد الدامغاني (ت ٤٧٨هـ)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م.

٧٢. القرآن الكريم وبهامشه كتاب نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، راجع الأستاذ عبد الحليم بسيوني، مطبعة المكتبة السعيدة، مصر، د / ت.

٧٣. القرآن الكريم وبهامشه كلمات القرآن: حسنين محمد مخلوف، دار الخير للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٢م.

٧٤. قصص الرحمن في ظلال القرآن: أحمد فائز الحمصي، ط١، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٧٥. الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، دار الجيل للطباعة، مصر، ١٩٨٢م.

٧٦. كتاب الألفاظ الفارسية المعربة: السيد أدى شير، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٨م.

٧٧. كتاب القرآن محاولة لفهم عصري: مصطفى محمود، دار العودة، بيروت، د/ ت.

٧٨. كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي التهانوني (ت ١١١٩هـ)، بتصحيح المولوي محمد وجه وآخرون، كلكته، ١٨٦٣م.

٧٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٤٧م.

٨٠. كلمات القرآن الكريم تفسير وبيان، حسنين محمد مخلوف، تعليق: محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

٨١. الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، ط٢، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر،، بيروت، ١٩٩٨م.

٨٢. لسان العرب: جمال محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ)، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

٨٣. مباحث في علوم القرآن: د. صبحي صالح، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢م.

٨٤. متن اللغة: الشيخ أحمد رضا (ت ١٩٥٣هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٨م.

٨٥. مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن مثنى التميمي (ت ٢١٠هـ)، تعليق: محمد فؤاد سزكين، ج١، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠؛ ج٢، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٢م.

٨٦. مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٦م.

٨٧. مجمل اللغة: أبو الحسن أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: هادي

حسن حمودي، ط١، الكويت، ١٩٨٥م.

٨٨. محاضرات في علم الصرف: د. علي جابر المنصوري، علاء الدين هاشم الخفاجي، بيت الحكمة، بغداد، د / ت.

٨٩. المُخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت ٤٥٨هـ)، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، د / ت.

٩٠. مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧٠١هـ)، راجعه وضبطه: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، د / ت.

٩١. المذكر والمؤنث: محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: طارق الجنابي دار الرائد العربي،، بيروت، د / ت.

٩٢. المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري (ت ٣٢١هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،، بيروت، ١٩٨٠م.

٩٣. مستند الأجناد في آلات الجهاد: لابن جماعة الحموي، تحقيق وشرح، أسامة ناصر النقشبندي، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد ١٩٨٣م.

٩٤. مسند البزار: أبو بكر أحمد بن عمر البزار (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن والحكم،، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨٨م.

٩٥. مسند الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د / ت.

٩٦. المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم: محمود شيت خطاب، ط١، دار الفتح، للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦م.

٩٧. مصنف بن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشيد، الرياض، ١٩٨٨م.

٩٨. معارج التفكر ودقائق التدبر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط١، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٢م.

٩٩. معاني الأبنية في العربية: د. فاضل صالح السامرائي، ط١، جامعة الكويت، ١٩٨١م.

١٠٠. المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: د. فتحي أحمد عامر، منشأة

المعارف الإسكندرية، د/ ت.

١٠١. معاني القرآن: أبو بكر زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار وآخر، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.

١٠٢. معجم ألفاظ القرآن: مجمع اللغة العربية، ط٢، المطبعة الثقافية، مصر، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

١٠٣. معجم الألفاظ والأعلام القرآنية: محمد إسماعيل إبراهيم، ط٢ منقحة ومزيدة، دار النصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٨م.

١٠٤. معجم الجاحظ: د. إبراهيم السامرائي، مطابع كويت تايمز، د / م، ١٩٨٢م.

١٠٥. المعجم الفلسفي: الدكتور جميل صليبا، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١م.

١٠٦. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣م.

١٠٧. معجم لغة العرب: جورج متري عبد المسيح، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٣م.

١٠٨. معجم المؤنثات السماعية العربية الدخيلة: د. حامد صادق قنيبي، ط ١، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٠٩. المعجم المساعد: الأب أنستاس ماري الكرملي (ت ١٩٤٧م)، تحقيق: كوركيس عواد وآخر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٢م.

١١٠. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: نظمه لفيف من المستشرقين، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٩م.

١١١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، مصر، ١٩٨٨م.

١١٢. المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة العلمية، طهران، د / ت.

١١٣. المُعرب من الكلام الأعجمي: موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط٢ مزيدة ومنقحة، مطبعة دار

الكتب، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

١١٤. المُغرب في ترتيب المعرّب: ناصر بن عبد السيد بن علي المطرزي (ت ٦١٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د / ت.

١١٥. المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني) (ت ٥٢٤هـ)، المطبعة الفنية الحديثة، مصر، ١٩٧١م.

١١٦. المفصل في علم العربية: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، (ت ٥٣٨هـ) وبذيله كتاب المفصل في شرح أبيات المفصل للسيد محمد بدر الدين الحلبي، ط٢، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، د / ت.

١١٧. مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري: د. أحمد جمال العمري، دار المعارف، مصر، د / ت.

١١٨. مقاييس اللغة: أبو الحسن أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

١١٩. المكاييل والأوزان الإسلامية: فالتر هنتس، ترجمة، د. كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.

١٢٠. من أدب القرآن: د. أحمد الشرباصي، مطابع دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

١٢١. من بديع لغة التنزيل: د. إبراهيم السامرائي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٢٢. المنجد في اللغة والإعلام: ط٢٣، دار المشرق، بيروت، د / ت

١٢٣. موطأ مالك، مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، د / ت.

١٢٤. النُبوات: تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية، (ت ٧٢٨ هـ)، تحقيق: د. عبد العزيز صالح الطويان، ط١، المجلس العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ٢٠٠٠م.

١٢٥. نظرات فاحصة في قواعد رسم الكتابة العربية وضوابط اللغة: محمد بهجة الأثري، ط١، مطابع الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩١م.

١٢٦. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: هارون بن موسى القارئ بعد (ت ٢٠٠ هـ)، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٨م.

ثانياً: الرسائل والأطاريح الجامعية

١. أسماء الأنبياء وصفاتهم في القرآن الكريم: صالح مطر عبدالله اللويزي، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠١م.

٢. الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي: عدنان مهدي سلطان، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٠م.

٣. القيم الجمالية في السور المكية: ورقاء يحيى قاسم، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٩م.

٤. الكناية في القرآن الكريم: أحمد فتحي رمضان، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٩٥م.

ثالثاً: البحوث المنشورة في الدوريات

١. مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، اسم الآلة، حسين والي، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٩٣٦م.

٢. مجلة اللسان العربي، التنمية اللغوية ودور الاشتقاق فيها، شحادة الخوري، العدد ٩، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، ١٩٨٧م.

٣. مجلة مجمع اللغة العربية، العصا في اللغة والأدب، علي الجندي، ج ٢٦، مطبعة مصر، ١٩٧٠م.

٤. مجلة اللسان العربي، الفارابي اللغوي، د. أحمد مختار عمر، العدد ٢٠، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، ١٩٨٣ م.

٥. مجلة المورد، المدخل إلى تقويم اللسان، د. حاتم الضامن، العدد ٣-٤، المجلد العاشر، ١٩٨١م.

فهرس المحتويات

المقدمة ٥
التمهيد ٧
أولاً : الآلة والأداة لغةً واصطلاحاً ٧
الآلة لغة ٧
الأداة لغةً ٩
الآلة اصطلاحاً ٩
الأداة اصطلاحاً ١٠
ثانيا : التمييز بين الآلة والأداة ومعايير صياغتهما ١٣
ألفاظ الآلة والأداة في التعبير القرآني ١٧
١ - حرف الهمزة ١٧
١-١: الأباريق ١٧
١-٢: الأرائك ١٩
١-٣: الأزلام ٢١
١-٤: الأسفار ٢٣
١-٥: الأسلحة ٢٦
١-٦: الأسورة - أساور ٢٩
١-٧: الأصفاد ٣٢
١-٨: الأعلام ٣٤
١-٩: الأغلال ٣٧
١-١٠: الأقفال ٣٩
١-١١: الأكواب ٤٢
١-١٢: الإمام ٤٣
١-١٣: الآنية ٤٦
١-١٤: الأوتاد ٤٨
٢ - حرف الباء ٥٠
٢-١: الباب - الأبواب ٥٠
٢-٢: البساط ٥٣

٣ - حرف التاء ٥٦
٣-١: التابوت ٥٦
٣-٢: التنور ٥٨
٤- حرف الجيم ٦٢
٤-١: الجارية - الجَوارِ ٦٢
٤-٢: الجذع - الجذوع ٦٤
٤-٣: الجفان ٦٦
٥ - حرف الحاء ٦٩
٥-١: الحُبْل - الحِبَال ٦٩
٥-٢: الحديد ٧٤
٦ - حرف الخاء ٧٩
٦-١: الخزائن ٧٩
٦-٢: الخيام ٨٢
٦-٣: الخيط - الخياط ٨٤
٧ - حرف الدال ٨٨
٧-١: الدسر ٨٨
٧-٢: الدلو ٩٠
٨ - حرف الذال ٩٢
٨-١: الذراع ٩٢
٨-٢: الذَنُوب ٩٤
٩ - حرف الراء ٩٧
٩-١: الرباط ٩٧
٩-٢: الرَحْل - الرِحَال ٩٩
٩-٣: الرق ١٠١
٩-٤: الرقيم ١٠٣
٩-٥: الرماح ١٠٥
١٠ - حرف الزاي ١٠٨
١٠-١: الزُبر ١٠٨

١٠-٢: الزجاجة ١١١
١٠-٣: الزرابي ١١٣
١١ - حرف السين ١١٥
١١-١: السبب - الأسباب ١١٥
١١-٢: السِّجل ١١٩
١١-٣: السرابيل ١٢٢
١١-٤: السِرَاج ١٢٤
١١-٥: السُرُر ١٢٧
١١-٦: السفينة ١٢٩
١١-٧: السقاية ١٣٢
١١-٨: السكين ١٣٥
١١-٩: السلسلة - السلاسل ١٣٧
١١-١٠: السُلَم ١٤٠
١١-١١: السوط ١٤٢
١٢ - حرف الصاد ١٤٥
١٢-١: الصُحفَة والصحيفة ١٤٥
١٢-٢: الصواع ١٤٩
١٢-٣: الصور ١٥٢
١٣ - حرف الطاء ١٥٥
١٣-١: الطَبَق - طِباق ١٥٥
١٤ - حرف العين ١٥٨
١٤-١: العرش ١٥٨
١٤-٢: العروة ١٦٢
١٤-٣: العصا ١٦٤
١٤-٤: العمد ١٦٩
١٥ - حرف الفاء ١٧٣
١٥-١: الفتيل ١٧٣
١٥-٢: الفراش ١٧٥

١٥-٣: الفُلك ١٧٨
١٦ - حرف القاف ١٨٢
١٦-١: القِدْور ١٨٢
١٦-٢: القرطاس - قراطِيس ١٨٣
١٦-٣: القسطاس ١٨٥
١٦-٤: القلائد ١٨٨
١٦-٥: القلم ١٩٠
١٦-٦: قوارير ١٩٤
١٦-٧: القوس ١٩٧
١٧ - حرف الكاف ٢٠١
١٧-١: الكأس ٢٠١
١٧-٢: الكتاب ٢٠٣
١٧-٣: الكرسي ٢٠٧
١٨ - حرف اللام ٢١٣
١٨-١: اللوح ٢١٣
١٩ - حرف الميم ٢١٧
١٩-١: المائدة ٢١٧
١٩-٢: الماعون ٢١٩
١٩-٣: المتاع ٢٢١
١٩-٤: المتكأ ٢٢٤
١٩-٥: المثقال ٢٢٧
١٩-٦: المشكاة ٢٢٩
١٩-٧: المصباح - المصابيح ٢٣١
١٩-٨: المعارج ٢٣٥
١٩-٩: المفاتح ٢٣٨
١٩-١٠: المقاليد ٢٤٠
١٩-١١: المقامع ٢٤٣
١٩-١٢: المكيال ٢٤٥

١٩-١٣: المنسأة ٢٤٧

١٩-١٤: المهد - المهاد ٢٤٩

١٩-١٥: الميزان ٢٥٣

٢٠ - حرف النون ٢٥٨

٢٠-١: الناقور ٢٥٨

٢٠-٢: النصب - الأنصاب ٢٦٠

٢٠-٣: النمارق ٢٦٢

٢١ - حرف الواو ٢٦٥

٢١-١: الوثاق ٢٦٥

٢٢-٢: الوعاء - أوعية ٢٦٧

الخاتمة ٢٧٠

ثبت المصادر والمراجع ٢٧٣

فهرس المحتويات ٢٨٤